جلال الدين عبد الرحمن السيوطي

موقعه في عصره - قلمه يروي حياته

د. عبد الكريم اليافي

ليلة الأحد ١ رجب ٨٤٩ القاهرة ٣ تشرين الأول ١٤٤٥ — ليلة الجمعة ١٩ جمادى الأولى ٩١١ القاهرة ١٧ تشرين الأول ١٥٠٥

عاش السيوطي في ظلال دولة المماليك الجراكسة • وقد امتد حكمهم من ٧٨٤هـ/١٣٨٢م الى ٩٢٣هـ/١٥١٧م عاصر منهم الملوك الآتية أسماؤهم :

الظاهر سيف الدين جقمق	حكم عام	٨٤٢ هـ/١٤٣٨ م
المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق	« «	٨٥٧ هـ/١٤٥٣ م
الأشرف سيف الدين اينال	« «	٨٥٧ هـ/١٤٥٣ م
المؤيد شهاب الدين أحمد بن اينال	« «	٨٦٥ هـ/١٤٦١ م
الظاهر سيف الدين خُشْقَدم	« «	٨٦٥ هـ/١٤٦١ م
الظاهر سيف الدين بلباي	« «	٨٧٢ هـ/١٤٦٧ م
الظاهر تمر بغا	« «	٨٧٢ هـ/١٤٦٧ م
الأشرف سيف الدين قايتباي	« «	٨٧٢ هـ/١٤٦٨ م
الناصر ناصر الدين محمد بن قايتباي	« «	٩٠١ هـ/١٤٩٦ م
الظاهر قانصوه	« «	٩٠٤ هـ/١٤٩٨ م

الأشرف جان بلاط	« «	٩٠٥ هـ/١٥٠٠ م
العادل سيف الدين طوماي باي		
بن قانصوه	« «	٩٠٦ هـ/١٥٠١ م
الأشرف قانصوه الغوري	« «	٩٠٦ هـ/١٥٠١ م

ويتبدى من هذا العرض أن بعض الملوك كانت مدة ملكهم أقل من سنة • ذلك أن نائب الملك والأمراء وقادة الجيش كانوا بالاتفاق مع الخليفة والقضاة يخلعون الملك اذا لم تعجبهم سيرته ويولون آخر مكانه • أما الخليفة فكان رمزاً دينياً ليس غير •

وسميت هذه الدولة بالمماليك الجراكسة للتغليب فان الملك الظاهر تمر بغا كان رومياً (يونانياً) • هذا عدا الأمراء والقادة والجنود فانهم من عروق شتى كالتركي والكردي والأرمني والهندي والقبجاقي والسلافي وغيرهم • وانما قيل لهم أيضاً المماليك البرجية أو البرجيون نسبة الى معسكرهم الذي كان في القلعة على حين كانت دولة المماليك التي سبقتهم يقال لها ملوك الترك نسبة الى جنسهم على التغليب أو المماليك البحرية أو البحريون لأن معسكرهم كان في جزيرة الروضة على النيل •

عصر المماليك على وجه العموم بحرية وبرجية ذو مكانة بارزة في تاريخ الاسلام • فقد وقفوا سداً منيعاً تجاه أمواج المغول والتتر المتتابعة الكثيفة الزاحفة وازاء الحملات الصليبية المترادفة فتوارثوا نضال الملك العادل نور الدين محمود زنكي وكفاح صلاح الدين الأيوبي وبقية الأيوبيين للصليبيين واستطاعوا بشجاعتهم وفروسيتهم وايمانهم دحر تلك الحملات ورد تلك الأمواج وحماية البلاد العربية حيناً من الدهر من شرور الوحشية وغارات الهمجية الى أن ذر قرن الاستعمارين القديم والحديث وكشرت في ظلهما نيوب الصهيونية في العصر الحاضر •

وقد بقي عصر المماليك يحفه جو من الغموض في أذهان الكثيرين من الناشئة أو يمر هؤلاء به لماماً دون التدقيق في خصائصه واستبانة مزاياه وتلمس عيوبه

في بعض الأحيان . ونحن هنا بمناسبة سيرة جلال الدين السيوطي العلمية لا بد من أن نتناول بعض معالم ذلك العصر .

لقد أدى استيلاء المغول على العراق وسقوط الخلافة العباسية في بغداد عام ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م والمظالم التي وقعت الى اتجاه أنظار المسلمين نحو مصر الأيوبية ثم المملوكية ، وهاجر عدد كبير من العلماء والمفكرين والصناع أمام جحافل التتر وهجمات الصليبيين الى وادي الكنانة . كذلك أفضى تدهور أحوال الأندلس وصروف المغرب العسيرة من ناحية مقابلة الى انتجاع مصر التي غدت مقراً جديداً للخلافة العباسية ، وقد أحياها الملك الظاهر بيبرس ولو شكلا بعد انتصاراته الباهرة كما غدت مركز قوة علمية واقتصادية وعسكرية نجحت في التألق وفي حفظ التراث العربي الاسلامي وامداده بمعين ثر فياض .

وقد تناقل الناس رسوخ العلم في مصر وازدهاره فيها لعهد ابن خلدون أي في القرنين الثامن والتاسع الهجريين على حين أقوت معاهد المعرفة والعلم في كثير من البلدان الاسلامية . يقول هذا المؤرخ العلامة في مقدمته تحت عنوان « فصل في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع » :

« أما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل أسواقه نافقة ، وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور ، واتصال السند فيه ، وان كانت الأمصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت ، مثل بغداد والبصرة والكوفة ، الا أن الله تعالى قد أدال منها بأمصار أعظم من تلك ، وانتقل العلم منها الى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق ، ثم الى القاهرة وما اليها من المغرب . فلم تزل موفورة ، وعمرانها متصلا وسند العلم بها قائماً . »

وكذلك تناقل الناس أحوال الرخاء المستفيض على مصر في القرنين أنفسهما كتب ابن خلدون قبل قدومه الى مصر في «أن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرفه لأهلها ونفاق الأسواق انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة . » جاء في هذا الفصل قوله : « ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من الترف والغنى في عوائدهم ما (لا) يقضى منه العجب . حتى ان كثيراً من الفقراء بالمغرب ينزعون الى النقلة الى مصر لذلك ، لما يبلغهم من أن شأن الرفه بمصر أعظم من غيرها .

ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة ايثار في أهل تلك الآفاق على غيرهم ، أو أموال مختزنة لديهم وأنهم أكثر صدقة وايثاراً من جميع أهل الأمصار • وليس كذلك • وانما هو لما تعرفه من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الأمصار التي لديك ، فعظمت لذلك أحوالهم • »

ومن المعلوم أن ابن خلدون يعلق اتساع العمران على زيادة عدد السكان واتساع ضروب العمل ونحل المعاش من فلاحة وصناعة وتجارة • وقد ذكر ذلك في فصل « أن الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته » فقال :

« واذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات كان من جملتها التأنق في الصنائع واستجادتها ، فكملت بجميع متمماتها ، وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو اليه عوائد الترف وأحواله » • ثم يقول : « وقد تخرج (الصناعة) عن الحد اذا كان العمران خارجاً عن الحد ، كما بلغنا عن أهل مصر أن فيهم من يعلم الطيور العجم والحُمُر الانسية ويتخيّل أشياء من العجائب بايهام قلب الأعيان (أي الحقائق الواقعة) وتعليم الحداء والرقص والمشي على الخيوط في الهواء ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب لأن عمران أمصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة أدام الله عمرانها بالمسلمين » •

وقد اجتذب صيت مصر والقاهرة في العلم والتقدم والازدهار مؤلف المقدمة نفسه فكتب حين دخلها يصف أحوالها في كتاب « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » بقلم الأديب المعجب : « فرأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذرّ من البشر وإيوان الاسلام وكرسيّ الملك • تلوح القصور والأواوين في جوه وتزهر الخوانك والمدارس بآفاقه ، وتضيء البدور والكواكب من علمائه • قد مَثَلَ بشاطىء بحر النيل ، نهر الجنّة ومدفع مياه السماء ، يسقيهم النَّهَلَ والعَلَلَ سيحه ، ويجبي اليهم الثمرات والخيرات ثَجُّه ، ومررت في سكك المدينة تغصّ بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم • وما زلنا نُحَدَّثُ عن هذا البلد ، وبُعْدِ مداه في العمران واتساع الأحوال » •

هذا ولقد دخل ابن خلدون القاهرة عام ٧٨٤ هـ في زمن الملك برقوق أول الملوك الجراكسة • ولما خلف الملك الناصر فرج بن برقوق أباه استصحب ابن خلدون مع فريق من العلماء حين خرج لمحاربة تيمورلنك • واستطاع مؤلف المقدمة أن يفاوض الطاغية في أرباض دمشق ثم أن يخلص من السير في ركابه فرجع بعد لأي الى القاهرة •

نذكر ذلك قبل ولادة السيوطي ولكن الأحوال بقيت جيدة على وجه العموم في زمن الملوك الجراكسة الذين تداولوا الحكم بعد فرج •

ولئن بدأ الفساد والعنف يدبّان بعض الشيء في زمن دولة الجراكسة فقد وقفوا بحزم أمام تيمورلنك عام ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م ، وما ارتكبه الطاغية من فظائع ، وبقوا أقوياء أولي بأس • قاموا بحملات على آسيا الصغرى وغزوا قبرس في عام ٨٢٧ هـ / ١٤٢٦ م بأسطول بحري صنعت سفنه في ميناء بولاق وكانت هذه الجزيرة وكراً للقراصنة الأوربيين الذين يهددون الملاحة المصرية وأسروا ملكها وأحضروه ظافرين الى قلعة القاهرة ومعه تاج قبرس وأعلامها المخذولة « وزينت المدينة سبعة أيام ودخل عسكر الفرنج وهم في زناجير وملكهم راكب وعليه آلة الحرب ••• وفي هذه السنة كملت عمارة السلطان (الملك الأشرف برسباي الدقماقي) وهي المدرسة الأشرفية التي عند سوق الوراقين • فلما وقعت هذه النصرة وأسر ملك الفرنج في تلك السنة رسم السلطان بأن تعلق خوذة ملك الفرنج على باب هذه المدرسة لتكون تذكاراً له » • وبقيت معلقة الى عهد المؤرخ ابن إياس الذي اقتبسنا هذه الفقرة من كتابه « بدائع الزهور » • وقد افتدى قنصل البندقية والتجار الأوربيون ملك قبرس وغدا تابعاً لملك مصر • ثم جاء ابن ملك لقبرس سنة ٨٦٣ هـ الى القاهرة يطلب الى سلطانها اذ ذاك سيف الدين اينال « تجريدة » أي نجدة عسكرية فبعث بها معه الى الجزيرة ولكنها لم تقم تمام القيام بما عُهِد اليها فيه • وبقيت قبرس تدفع جزية حتى نهاية دولة الجراكسة •

ومن أهم ملوك الجراكسة الأشرف قايتباي وهو أيضاً من أطولهم مدة حكم • حكم البلاد نحو تسع وعشرين سنة ونصف السنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م ـ ٩٠١ هـ /

١٤٩٦ م · ومات وله من العمر ست وثمانون سنة · قضى جلال الدين شطراً كبيراً من حياته في عهده (من سن الثالثة والعشرين الى الثانية والخمسين) · كان مملوكاً جركسياً تنقل من سيد الى آخر حتى أعتقه الملك الظاهر جقمق وارتقى في آخر الأمر الى أن أصبح القائد الأعلى للجيش في زمن سلفه تمر بغا اليوناني · كان يتصف بالشجاعة والعدل والحزم والنشاط · وقعت في زمنه عدة حروب بينه وبين العثمانيين كان جنوده تنتصر عليهم وتسوق أسراهم · وقد وصلت جنوده عام ٨٩٥ في زحفها الى بلاد العثمانيين بآسيا الصغرى واستولت على قيسارية ثم اصطلح الطرفان وتبادلا الأسرى · وقد أدب العربان الثائرين بنواحي البلاد كما بطش عدة مرات بجنود الفرنج المغيرين على الشواطىء · كان يتفقد المدن الكبيرة كالاسكندرية ودمياط والفيوم · وطاف في بلاد الشام وحلب نحو أربعة أشهر وزار مكة وبيت المقدس ·

وأعماله أكثر ما كانت في العمارة سواء كان ذلك في مصر أو الشام أو بلاد العرب · منها تجديد عمارة المسجد النبوي الشريف لما احترق وانشاء قبة عظيمة على القبر الشريف وانشاء مدرسة مطلة على الحرم النبوي وبنى مدرسة بمكة المشرفة عند باب السلام وعدة ربوع وأماكن بمكة أيضاً وأنشأ مدرسة ببيت المقدس ، ومدرسة وبيوتاً ودكاكين بدمشق ومدرسة بغزة ومدرسة بثغر دمياط ومدرسة بثغر الاسكندرية وبرجاً عظيماً مكان منارها القديم وعدداً من المساجد أشهرها اثنان في القاهرة كما بنى « وكالات » تعتبر من أجمل نماذج الزخرفة العربية في البناء الاسلامي وعمل كثيراً في إصلاح آثار أسلافه المتهدمة · ومن أجل ذلك كله كان يحتاج الى المال ففرض بعض الأتاوات والغرامات والضرائب وابتزّ أموال الأوقاف للانفاق على حروبه وعماراته واصلاحاته ·

ومن الملوك الجراكسة الذين طال أمد حكمهم نسبياً وبذلوا جهودهم في إصلاح الأحوال المتداعية في أواخر عهد الدولة الأشرف قانصوه الغوري · خلف سلفه العادل سيف الدين طومان باي الذي دامت سلطنته نحو ثلاثة أشهر فقط إذ خرج عليه عدد من الأمراء والجند فهرب واختفى · ثم لما ظهر قتل · وقد قبل الغوري التولية بعد إباء وتردد وكانت سنه تناهز الستين فعمد الى تسوية الأمور الداخلية وتسكين الفتن وإطفائها ولكن أهم الأخطار كانت خارجية ·

لقد كانت تجارة مصر مزدهرة ورائجة بين الشرق والغرب ، وبين الهند وأوربة ، وهال الفرنج ولا سيما البرتغاليون ما كانت تجنيه مصر وما كان عملاؤها البنادقة يجنونه من الضرائب والمكوس والأجور المفروضة على المتاجر بين الشرق والهند وأوربة لمرورها بأراضي مصر • كانت الطريق البحرية في الخليج العربي أقصر منها في البحر الأحمر ولكن طريق القوافل من البصرة الى حلب أخطر وأقل أمناً منها خلال مصر • ولما استطاع البرتغاليون أن يكشفوا طريق رأس الرجاء الصالح وجنوب أفريقية عام ١٤٩٨ م تحول بعض المتاجر اليها فنقصت واردات مصر تبعاً لذلك • ثم أخذ البرتغاليون يعبثون بالسفن المصرية والشواطىء المصرية كما كانوا يكيدون بعض أمراء العرب وأمراء الهند ممن تربطهم بمصر روابط اقتصادية • وخشي السلطان الغوري استفحال هذا الخطر الخارجي فصنع عمارات بحرية ساقها في البحر الأحمر بقيادة الأمير حسين الكردي لتأديب البرتغاليين وسحقهم في بحر العرب وشواطىء الهند •

ولكن خطرين آخرين لاحا يهددان المماليك أولهما بروز الدولة الصفوية في فارس بزعيمها الشاه اسماعيل كانت تغير على حلب وأطراف الشام وثانيهما طموح العثمانيين الى توسعة مملكتهم • وقد ابتلى الشاه اسماعيل بحروب نشبت بينه وبين ملك التتر أزبك خان وانتهت بقتل أزبك ثم حارب السلطان سليم العثماني الشاه اسماعيل وكسره شر كسرة • ولما بات الغزو العثماني قاب قوسين أو أدنى كان المماليك أولي قوة عسكرية لا بأس بها • قام الغوري بأعمال جليلة من شق الطرق وحفر الترع وتحصين السواحل كما وسع قلعة القاهرة وحسّن طريق الحجاج الى مكة وبنى مدرسة ومسجداً وبنى مئذنة للجامع الأزهر وأنشأ طواحين المياه في مصر العتيقة وأصلح قناة المياه التي تصل الى القلعة • وكان أديباً وشاعراً ترك ديواناً من الشعر ، وكان يكرم الشعراء والموسيقيين • ولما تقدم جيش العثمانيين ودخل سورية جهز الغوري حملة قوية زودها بأنواع الأسلحة • وتلاقى الفريقان في مرج دابق قرب مدينة حلب في رجب عام ٩٢٢ هـ ـ آب ١٥١٦ م كان النصر أول الأمر حليف المصريين ولكن ما عتم أن انسحبت ميسرة الجيش التي تزعمها خاير بك نائب حلب خيانة منه وثبت السلطان وهو يرى فرار جنده وهو في السادسة والسبعين من عمره فوقع الى

الأرض ووطئته سنابك الخيل • لقد حاول طومان باي آخر الملوك الجراكسة أن يحول دون دخول الغزاة الى القاهرة ولكنه دحر وأسلمه عربان البحيرة الى السلطان سليم فشنق على باب زويلة في المحرم ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م وانتهت دولة الجراكسة •

كان المماليك من سلاطين وأمراء وجنود على اختلاف مراتبهم وتفاوت أصولهم وتباين أعراقهم مسلمين • وكانوا يتلقون تربية عسكرية صارمة وتربية علمية اسلامية دقيقة • وقد اشتهر بعض ملوكهم وأمرائهم وجنودهم بالتقوى والورع وحب العلم ومجالسة العلماء واحترامهم • كانوا غرباء عن البلاد ولكنهم كانوا يشعرون بالمسؤولية الضخمة تجاه الوطن الذي تلقاهم ونشأهم وعلمهم وازاءالدين الذي حررهم وأدبهم واعتنقته قلوبهم • فكانوا يدافعون عن الدين والبلاد بحمية كبيرة وحماسة لا نظير لها ويبذلون في سبيل ذلك أرواحهم وما وصل الى أيديهم من مال بطريق التنظيمات الادارية والاقتصادية • وقد خلّفت عهود المماليك من مساجد وزوايا وخوانق ومدارس وأمثالها من منشآت دينية بنوها وتعهدوها ما يفوق سائر العهود • واشتد النشاط بمختلف وجوهه العلمي والاقتصادي والصناعي • وتجاوز احترامهم للعلماء الى تقريبهم وتقديمهم في شؤون كثيرة والى استشارتهم في الحين بعد الحين في شؤون الدولة والاستماع الى شكاياتهم واجابة طلباتهم ، وعلى رأس هؤلاء العلماء القضاة على المذاهب الأربعة • فهم مقدمون في الرأي والفتيا • وكان هؤلاء القضاة والعلماء أهلا للتكريم والاحترام • فقد ضربوا أحسن الأمثال في الزهد والورع وطيب السيرة والثبات على الرأي اذا شعروا أنه موافق للشريعة كما كانوا قدوة لأبناء الشعب وملاذاً لهم اذا عصب بهم أمر أو حلّ بهم حيف • واذا كان سلاطين المماليك قد أهملوا الشعب بوجه عام واستأثروا بالسلطة فان أولئك العلماء الذين كانوا من أبناء الشعب قد شاركوا بهذا الاعتبار الى حدٍّ ما في الحكم والمشورة والتوجيه والفتوى القاطعة •

وكأن العلماء في تلك العهود المضطربة شعروا بما يتهدد التراث الاسلامي من تفرق وضياع وطمس واحراق فهبوا لاحياء حركة علمية جليلة بالتعليم ولا سيما التأليف في شتى الميادين • والعالم في تلك العهود هو المتفقه في الدين

واللغة العربية والتراث الاسلامي خاصة . وكان يطلق على الطبيب لفظ الحكيم أو الرئيس وعلى طبيب العيون لفظ الكحال وعلى المهندس أحياناً لفظ الشادّ .

واحترام المماليك واهتمامهم باللغة العربية وهي ليست لغتهم الأصلية ناشئان عن الحاجة الى لغة مبينة تجمع شتاتهم وتتجاوز مختلف لهجاتهم . وكانت اللغتان التركية والجركسية قاصرتين عن أداء ما يقتضيه ذلك الملك الواسع من حسن ادارة وضبط ومراسلات رسمية وقضاء وتشريع . وكانت اللغة العربية لغة أهل العلم بفروعه وميادينه كلها في العالم الاسلامي أجمع .

وقد نشأ في تلك العهود من العلماء كواكب متألقة تجلو دياجير الجهل وتضيء سواد الفتن، وألفوا من الكتب واختصروا من المطولات وجمعوا من البحوث ما هو ثروة غنية وتالدة للتراث العربي بأنواعه الكثيرة الواسعة .

بل ان المماليك أنفسهم قد مثّلهم الشعب العربي المصري فذابوا فيه ، وخرج منهم عدا الملوك والأمراء علماء مشهورون ومؤلفون ثقات . من أبرزهم في عصر السيوطي المؤرخ أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ٨١٣/١٤١٠ - ٨٧٤/١٤٦٩ . كان أبوه من مماليك الظاهر برقوق . ومن أشهر كتبه «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» . ومنهم تلميذ السيوطي أبو البركات محمد بن أحمد ابن اياس الحنفي ٨٥٢/١٤٤٨ - ٩٣٠/١٥٢٤ . أبوه أحمد كان متصلا بالأمراء ورجال الدولة . وجده اياس الفخري الظاهري من مماليك الظاهر برقوق ورُسم « دوادارا ثانيا»[1] في دولة الناصر فرج بن برقوق . ألف أبو البركات كتابه المشهور بتاريخ ابن اياس والمسمى« بدائع الزهور في وقائع الدهور » أحد المراجع المهمة التي اعتمدناها في بحثنا هذا .

ومن قبله اشتهر من بين المماليك شهاب الدين أبو العباس أحمد بن رجب بن طنبغا أو طيبُغا الجركسي ٧٦٧ هـ/١٣٦٦ م - ٨٥٠ هـ/١٤٤٧ م المشهور بابن المجدي نسبة الى جده المجدي أحد مقدمي[2] الألوف في جيش المماليك .

---

١ - الدوادار : من يبلغ رسائل السلطان ويقدم اليه المظالم والأخبار وينظم المقابلات السلطانية ويرفع البريد الى السلطان ، ويطلب توقيعه على المناشير والرسائل . ومعناه صاحب الدواة .

٢ - المقدم : المشرف على عدد من المماليك والمسؤول عنهم .

وهو أعظم العلماء لعصره في الفرائض والحساب والهندسة وعلم الوقت. وله مصنفات كثيرة في هذه الشؤون ذكرها السخاوي في كتابه « الضوء اللامع » • بل ان الجلال السيوطي نفسه كانت أمه أمة تركية ، ذكر ذلك السخاوي لدى ترجمة الجلال في كتابه المذكور •

لقد زخر عصر المماليك بالعلماء ومن المناسب أن نذكر أسماء بعضهم ممن لا نزال نستند الى كتبهم ونعتمدها أو ممن تطايرت شهرته في فن من الفنون أو أسلوب من الأساليب • نطوي صفحاً عن ذكر العلماء الكبار في العصر الأيوبي وفي عصر المماليك البحرية ونشير الى طائفة من علماء القرنين التاسع والعاشر الهجريين وممن نشأ وعاش في مصر أو زارها في إبانهما •

من هؤلاء المؤرخ ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون ٧٣٢ هـ/١٣٣٢ ـ ١٤٠٦/٨٠٨ صاحب المقدمة والتاريخ المشهورين •

وكمال الدين محمد بن موسى الدميري ٧٤٢/١٣٤١ ـ ١٤٠٥/٨٠٨ من أهل القاهرة ومن فقهاء الشافعية • كانت له حلقة خاصة في الأزهر • من كتبه المشهورة « حياة الحيوان » وقد لخصه السيوطي في كتابه « ديوان الحيوان » •

وعلي بن عبد الله الغزولي البهائي الدمشقي توفي عام ١٤١٢/٨١٥ عاش وتوفي في دمشق وزار القاهرة مراراً • له كتاب « مطالع البدور في منازل السرور » •

وابن الشحنة أبو الوليد محمد بن محمد ٧٤٩/١٣٤٨ ـ ١٤١٢/٨١٥ من علماء حلب ولي قضاءها كما ولي القضاء بدمشق والقاهرة • وهو فقيه ومؤرخ وأديب له « روض المناظر في علم الأوائل والأواخر » وابنه أبو الفضل محمد بن محمد ٨٠٤ / ١٤٠٢ ـ ٨٩٠/١٤٨٥ انتقل الى مصر وولي كتابة السر فيها وأضيف اليه قضاء الحنفية وكان من الرؤساء البارزين في أيام الملك الأشرف قايتباي •

ومجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي ٧٢٩/١٣٢٩ ـ ١٤١٥/٨١٧ من أئمة اللغة والأدب ولد بكارزين بفارس • جال في مصر والشام وبلاد الروم والهند ورحل الى زبيد وأقام فيها وهو صاحب « القاموس المحيط » •

وأحمد بن علي الفزاري القلقشندي ثم القاهـري ٧٥٦/١٣٥٥ ـ ٨٢١/١٤١٨ وهو مؤرخ وأديب وبحاثة وهـو مؤلف « صبح الأعشى في صناعة الانشا» .

واللغوي محمد بن أبي بكر المخزومي المعروف بابن‌الدماميني ٧٦٣/١٣٦٢ ـ ٨٢٧/١٤٢٤ استوطن القاهرة وهـو من تلاميذ ابن خلدون تصدر لاقـراء العربية بالأزهر .

وشمس الدين أبو الخير محمد بن محمد الشهير بابن الجزري ٧٥١/١٣٥٠ ـ ٨٣٣/١٤٢٩ شيخ الاقراء في زمانه . ولد ونشأ في دمشق . ولكنه رحل مراراً الى مصر . أخذه تيمور الى ما وراء النهر ولما مات تيمور رحل الى شيراز وتولى قضاءها وتوفي فيها . وهو صاحب كتـاب « النشر في القراءات العشر » و « غايات النهايات في أسماء رجال القراءات » . و نسبته الى جزيرة ابن عمر .

وابن حجة الحموي أبو بكر بن علي ٧٦٧/١٣٦٦ ـ ٨٣٧/١٤٣٣ إمـام الأدب في عصره له خزانة الأدب في شرح بديعيـة له . وهو من أهـل حماة زار القاهرة والتقى علماءها واتصل بملوكها .

وتقي الدين المقريزي أحمد بن علي ٧٦٦/١٣٦٥ ـ ٨٤٥/١٤٤٢ مـؤرخ الديار المصرية . ونسبته الى حارة المقارزة ببعلبك تحوّل أبـوه الى القـاهرة حيث ولي بعض المناصب في القضاء . ولد ونشأ ومات في القاهرة . أربت مؤلفاتـه على مئتي مجلد . منهـا « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » و « السلوك في معرفة دول الملوك » .

والابشيهي محمد بن أحمد ٧٩٠/ ١٣٨٨ ـ ٨٥٢ / ١٤٤٨ صـاحـب « المستطرف في كل فن مستظرف » .

وتقي الدين ابن قاضـي شهبة أبو بكر بن أحمد ٧٧٩/١٣٧٧ـ٨٥١/١٤٤١ فقيه الشام في عصره ومؤرخها وعالمها وابنه اشتهر أيضـاً بابن قاضي شهبـة ٧٩٨/١٣٩٥ ـ ٨٧٤/١٤٧٠ فقيه الشام في عصره غير مدافع .

وشهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني المعروف بابن حَجَر ٧٧٣/١٣٧٢ ـ ٨٥٢/١٤٤٩ أصله من عسقلان بفلسطين ومولده ووفاته بالقاهرة . لـه « الدرر

الكامنة في أعيان المئة الثامنة » و «لسان الميزان » و « تقريب التهذيب » و « تهذيب التهذيب » ، من أشهر علماء عصره وأجل ثقاتهم وأكثرهم حفظاً ورواية . وقد اختصر السيوطي الدرر الكامنة في كتابه « الملتقط من الدرر الكامنة » .

وأحمد بن محمد المعروف بابن عربشاه ٧٩١/١٣٨٩ ـ ٨٥٤/١٤٥٠ ولد ونشأ في دمشق . برع في اللغات الثلاث العربية والفارسية والتركية . ذهب الى سمرقند ثم رحل في أواخر حياته الى مصر فأقام في الخانقاه الصالحية الى أن توفي . له « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » و« عجائب المقدور في أخبار تيمور » .

وبدر الدين محمود بن أحمد العيني ٧٦٢/١٣٦١ ـ ٨٥٥/١٤٥١ أصله من حلب ومولده في عينتاب واليها نسبته . أقام مدة في حلب ومصر ودمشق والقدس وولي في مصر الحسبة وقضاء الحنفية ونظر السجون وغدا من أخصاء الملك المؤيد سيف الدين شيخ . ولما ولي الأشرف برسباي قربه وقدمه ولازمه وهو من كبار المحدثين والمؤرخين .

وجمال الدين محمد بن محمد الغزال الدمشقي الشهير بسبط المارديني ٨٢٦/ ١٤٢٣ ـ ٨٩٠/١٤٨٥ فلكي كان موقتاً بالجامع الأزهر بمصر وتوفي فيها .

ومحمد بن عبد الرحمن السخاوي ٨٣١/١٤٢٧ ـ ٩٠٢/١٤٩٧ المؤرخ العلامة ألّف نحو مئتي كتاب أشهرها «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » ترجم فيه لمعاصره السيوطي ولنفسه ويقع الكتاب في اثني عشر جزءاً وهو مرجع مهم لرجال ذلك العصر .

ولا بد من أن يمنّ الزمان في العصور المضطربة من كاتب وشاعر فكه . فجاء أبو الحسن علي بن سولون الجركسي القاهري ثم الدمشقي ٨١٠/١٤٠٧ ـ ٨٦٨/١٤٦٢ . ولد وتعلم بالقاهرة . سلك في أكثر شعره الهزل والفكاهة . له كتب منها « نزهة النفوس ومضحك العبوس » تكشف فكاهاته عن ابتسامات ناعمة .

وينبغي أن ننوه بأبي بكر بن عبد الله العيدروس ٨٥١/١٤٤٧ ـ ٩١٤/ ١٥٠٩ . أصله من حضرموت . ساح ورأى البنّ في اليمن واقتات به وأعجبه فاتخذه قوتاً وشراباً . فهو مبتكر القهوة التي انتشرت في اليمن والحجاز والشأم

ومصر ثم في العالم كله ۰ ومن المناسب أن يحتفل متذوقو القهوة ومحبوها عالمياً بمرور خمسمائة سنة هجرية على ذكرى وفاته في العام الهجري المقبل ۰

ولا ننس شيخ الاسلام في ذلك العصر والقاضي العف النزيه زين الدين أبا يحيى زكريا بن محمد بن محمد الأنصاري المصري ٨٢٦/١٤٢٣ ـ ٩٢٦/١٥٢٠ بورك في عمره فعاش عمراً حافلاً بالحفظ والعلم والتقى ۰ عاصر جملة من سلاطين الدولة الجركسية حتى شهد مصرع دولتهم على أيدي العثمانيين ۰ وكان السلطان خشقدم عرض عليه منصب القضاء الأكبر فأبى ۰ ولما ولي الأشرف قايتباي قلده هذا المنصب فقبله بعد تمنّع وتأبّ وإلحاح ۰ فمارسه بنزاهة وكفاية ودراية وتقوى ولبث في هذا المنصب مدة طويلة تبلغ زهاء عشرين سنة ۰

وقد وقعت في زمنه فتنة ابن الفارض عام ٨٧٥ هـ ، اذ انقسم العلماء فيها فريقين : فريق كفّره بما فرط في بعض شعره من ألفاظ توهم الحلول أو نحوه وفريق يؤول كلامه ويدافع عنه ،وقد استشرت الفتنة وتطاير شررها حتى كتبت فتوى فيها ودفعت الى الشيخ الأنصاري فأفتى فيها بايمان ابن الفارض واعتذر له بعجز اللغة عن بلوغ معانيه فسكتت الفتنة وسكن ثائرها ۰

هذا وقد اشترك السيوطي في فتنة ابن الفارض وكان من المدافعين عنه ، وألّف في ذلك كتاباً سماه « قمع المعارض في الرد عن ابن الفارض » ۰

ولم يكن ما أوردناه من أسماء العلماء في ذلك العصر الحافل إلا قليلا من كثير وبرضاً من عدّ ، فلقد كان هنالك تسابق نحو مناهل العلم اذ هو تعبّد لله وتقرب من جلاله ونجاة في الدارين ۰ وكتب الطبقات مشحونة بأسماء العلماء في كل ميدان ۰ وكل ميسّر لما خلق له ۰

كان العلماء في دولة المماليك القلب الخافق والعقل المدرك وأهل المشورة والحلقة الفاصلة والواصلة بين الملوك والأمراء والشعب الطيب الدائب ۰ وكما ألّف العلماء الكتب للناشئة والمتعلمين في مختلف ميادين المعرفة والعلم اذ ذاك ، كذلك نهض أدباء شعبيون بين القرنين السادس والثامن للهجرة أي قبيل دولة المماليك فكتبوا لجماهير الشعب قصصاً وحكايات مطولة صوروا فيا أماني الشعب ونزعاته ومطامح أخيلته كما رسموا صوراً من حياته اليومية رمزية

أو واقعية • وقد أغفل هؤلاء المؤلفون أسماءهم • وكل منهم قد أخذ أعمال سلفه وزاد عليها في الرواية والنقل والكتابة • وكان للحروب الصليبية والغارات التترية أثر ظاهر في انشاء تلك الحكايات والقصص اذ أرسخت في القلوب الايمان وألهبت الحماسة الدينية ازاء تلك الغارات والحروب فحملت القصاص والقوّال على رواية تلك القصص وحكاية تلك الأقوال حثاً على الصبر والبطولة والشجاعة والاستشهاد كما في قصص سيف ذي يزن والأميرة ذات الهمة وفيروز شاه ، وسيرة الملك الظاهر • ووقع حكم المماليك بين القرن الثامن والعاشر للهجرة • وقد اطمأن الناس بعض الشيء بعد دحر الصليبيين والتتر وازدهار الصناعة والتجارة في مصر فتغير اتجاه القصص والحكايات الى تصوير أحوال التجار وجمع الثروة ورسم أنواع الحيل والشعوذة والسحر وما الى ذلك • وللاقتراب من أذواق الجماهير وأفهامهم كان المؤلفون والقصاص يعتمدون اللغة الدارجة غالباً والمبتذلة أحياناً وهذا ما جعل العلماء والمثقفين ينظرون الى تلك القصص نظرة ازدراء واستخفاف لأنها كانت خلواً من القيمة الأدبية التي كان يحرص عليها رجال الأدب واللغة الحقيقيون • ولكن الاهتمام الحالي بقضايا الشعب وتصوراته وميوله وما يعلم به أصبح متعارفاً ومتداولا في العصر الحاضر • ومن المعروف أن كتاب « الف ليلة وليلة » قديم • وهو يتألف من قصص تجمعت بتوالي الأجيال مما ترجموه أو وضعوه • وله أصل نُقِل أول الأمر عن الفارسية قبل القرن الرابع الهجري ثم تداوله الناس ووسعوه وبدلوا فيه حتى وصل الينا بنسخه المتعارفة • وأغلب الظن أن جمعه والاضافات الأخيرة على الصورة التي وصلت الينا قد تمت في القرن العاشر للهجرة أي في زمن دولة المماليك الجراكسة ففيه اشارة الى شرب القهوة وفيه اشارة الى بعض الحكام المتأخرين من المماليك كما فيه وصف لبعض خانات مصر التي كان ينزلها التجار في القرن التاسع وبعض معالمها كخان مسرور وباب زويله وغيرها من الأماكن وفيه أيضاً تصوير لمعاملات التجار وحياتهم وحياة أفراد الشعب وعرض لمباهج القاهرة اذ ذاك ، حتى ان أسلوب الكتابة في الأجزاء المضافة تشبه الكتابة العربية في العصور المتأخرة •

يتحدث التاجر البغدادي في قصة الأحدب من كتاب ألف وليلة وليلة حين دخل مصر عن الصروف التي مر بها فيقول :

« فدخلت مصر وأنزلت القماش في خان مسرور وفككت أحمالي وأدخلتها وأعطيت الغادم دراهم ليشتري لنا بها شيئاً نأكله ونمت قليلا • فلما قمت ذهبت الى بين القصرين ثم رجعت وبت ليلتي• فلما أصبحت فتحت رزمة من القماش وقلت في نفسي : أقوم لأشق بعض الأسواق وأنظر الحال ، فأخذت بعض القماش وحمّلته لبعض غلماني وسرت حتى وصلت قيسرية جرجس فاستقبلني السماسرة ـ وكانوا قد علموا بمجيئي ـ فأخذوا مني القماش ونادوا عليه فلم يبلغ ثمنه رأس ماله • فقال لي شيخ الدلالين : ياسيدي! أنا أعرف لك شيئاً تستفيد به، وهو أن تعمل مثل ما يعمل التجار فتبيع متجرك الى مدة معلومة بكاتب وشاهد وصيرفيّ وتأخذ ما يتحصل من ذلك في كل يوم خميس واثنين ، فتكسب الدراهم كل درهم اثنين ، وزيادة على ذلك تتفرج على مصر ونيلها • فقلت : هذا رأي سديد • فأخذت معي الدلالين وذهبت الى الخان فأخذوا القماش الى القيسرية فبعته للتجار وكتبت عليهم وثيقة الى الصيرفي وأخذت عليه وثيقة بذلك ورجعت الى الخان وأقمت أياماً كل يوم أفطر على قدح من الشراب وأحضر اللحم الضاني والحلويات حتى دخل الشهر الذي استحقت فيه الجباية فبقيت كل خميس واثنين أقعد على دكاكين التجار ويمضي الصيرفي والكاتب فيجيئان بالدراهم من التجار ويأتيان بها الى أن دخلت الحمام يوماً من الأيام وخرجت الى الخان ودخلت موضعي وأفطرت على قدح من الشراب ثم نمت وانتبهت فأكلت دجاجة وتعطرت وذهبت الى دكان تاجر يقال له بدر الدين البستاني • فلما رآني رحب بي وتحدث معي ساعة في دكانه • فبينما نحن كذلك اذا بامرأة جاءت وقعدت بجانبي وعليها عصابة مائلة وتفوح منها روائح الطيب فسلبت عقلي بحسنها وجمالها ••• »

كذلك نقرأ في ليلة ٨٢٦ من ذلك الكتاب وصفاً لأحد بساتين القاهرة « فيه ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وهو مشيد الأركان ، رفيع البنيان ، له باب مقنطر كأنه ايوان وباب سماوي يشبه أبواب الجنان وبوابه اسمه رضوان وفوقه مئة مكعب عنب من سائر الألوان ، الأحمر كأنه مرجان ، والأسود كأنه أنوف السودان ، والأبيض كأنه بيض الحمام ، وفيه الخوخ والرمان والكمثرى والبرقوق والتفاح كل الأنواع مختلفة الألوان صنوان وغير صنوان •• » ونجد في الليالي التالية وصفاً لأنواع الفاكهة والأشجار فيه ولصنوف الطيور وللواوين

فيه ومافي هذه اللواوين(*) من أثاث بديع وللحفلات والولائم ومجالس اللهو التي تنعقد في أبهائها وزواياها وأجنحتها • ولا شك أن الوصف هو ما كان يشاهده أبناء الشعب ويتصورونه أو يتخيلونه بالاستناد الى ما يرونه والى ما يزاولونه من أمور ومرافق •

يدل وصف البستان على التقدم الكبير الذي كانت عليه الفلاحة في وادي النيل • ولا غرو في ذلك فان خصب تربة الوادي شهير في مخلف الأزمنة على الرغم من شح النيل في بعض السنين وحصول المجاعات ، وعلى الرغم من أحوال الفلاحين السيئة في خلال عهود المماليك •

ثم ان ما كان يجري من معاملات تجارية كما رأينا في خان مسرور وهو أحد الخانات ينمّ على ازدهار التجارة بين البلاد العربية بالاضافة الى ما سبق ذكره في عهد الأشرف قايتباي وعهد الأشرف قانصوه الغوري من مكانة التجارة وحركتها المشتدة بين الشرق والغرب قبل الكشف عن طريق جنوب افريقية •

ومن المناسب أن نعود هنا ونؤكد هذا الازدهار الذي كان سبباً لتجمع الثروات في عهد المماليك • فلقد تحكم السلاطين في أثمان أصناف معينة واحتكروا التجارة بها مثل السكر والفلفل والأخشاب والحرير وجوز الطيب والقرنفل وبعض المصنوعات المعدنية • كانت حمولة الفلفل التي يبلغ ثمنها في القاهرة خمسين ديناراً تباع أحياناً في الاسكندرية للتجار الأوربيين بنحو مئة وثلاثين ديناراً وفقاً لقوانين الحكومة • كان طريق التجارة اذن مصدراً هاماً لثروة البلاد • وقد فرضت الدولة رسوماً نقدية على كل بضاعة شرقية تصل من الخليج العربي أو البحر الأحمر لنقلها الى البصرة أو السويس ثم الى ميناء الاسكندرونة أو الاسكندرية من أجل شحنها الى البندقية • كان المماليك محتكرين أكثر تجارة الهند جميعها مع بلاد الشرق وكانت البندقية عميلتهم الكبرى في أوربة • هذا وكان الطريق في الخليج العربي أقصر منه في البحر الأحمر، غير أن طريق القوافل من البصرة الى حلب كان أخطر من الرحلة القصيرة في ربوع مصر ، كما أشرنا آنفاً الى ذلك •

ولم تكن الدولة وحدها المستفيدة من هذه التجارة • كان التاجر القاهري يستورد بضائع من الهند وجزر البهار أو يشتريها من التجار الهنود في مواني

(*) الليوان تحريف الايوان •

البحر الأحمر ويكسب هو أيضاً مبالغ طائلة • وكان كثير من التجار المصريين في بحبوحة واسعة من العيش ويسار بليغ هانىء • يومىء الى ذلك بعض الحكايات في ألف ليلة وليلة •

ومن الطبيعي أن تزدهر الصناعات والفنون المختلفة الى جانب ازدهار التجارة وتقدمها • ولبيان ذلك نعتمد كتاب « فنون الاسلام » للدكتور زكي محمد حسن فهو المختص بهذا الشأن • وما نورده هنا خلاصات لبعض ما جاء في هذا الكتاب • ولا تعدم هذه من فائدة •

ان عصر دولتي المماليك بين عامي ٦٤٨ ـ ٩٢٣ (١٢٥٠ ـ ١٥٨٠) هو العصر الذهبي في تاريخ العمارة الاسلامية في مصر • كان الاقبال عظيماً على تشييد العمائر من جوامع ومدارس وضرائح وحمامات ووكالات وسُبُل (*) • كما ظهر التنوع والاتقان والأناقة في شتى العناصر المعمارية من واجهات ومنارات وقباب وزخارف جصية ورخامية • (ج ٣ ص ٧١) •

ولم يكن أمراء المماليك ليهدأ لهم بال أو تطمئن بهم حال ما لم يبنوا مسجداً أو مدرسة أو ضريحاً ينهض دليلاً على تقواهم • فتنافسوا في بناء المساجد والخوانق والزوايا والمدارس والمارستانات •

وكانت المساجد تحتوي على واجهات جميلة ونقوش غائرة وأبواب جانبية وأفاريز مزخرفة • وكذلك تطورت المآذن التي أصبحت أكثر رونقاً وجمالاً كما غدت تبنى بحجارة جميلة الشكل وزخارف دقيقة ، وازداد الاهتمام ببناء القباب الكبيرة بعد أن كان أكثرها صغيراً • والمماليك هم سادة بناء القباب وبعض قبابهم مغطى بزخارف هندسية ونقوش عربية ورسوم بديعة • واهتموا كل الاهتمام بصناعة المنابر وزخرفتها ونقوشها •

كذلك ذاع بناء المدافن الكبيرة في عصر المماليك • وهي تتشابه في تصميمها وتشبه في كثير من العناصر المعمارية ما عرفه القوم من الضرائح في بلاد تركستان • ولكن ارتقى تصميمها في مصر وتطور بناؤها • وفي القاهرة مجموعة جيدة من هذه الضرائح تعرف خطأ باسم قبور الخلفاء • والحق أنها ضرائح المماليك • ولعل أبدعها مدفن خانقاه برقوق ومدفن قايتباي ومدفن

(*) السبيل بناء صغير فيه مجرى ماء نقي للشرب والوضوء والعامة تجمع السبيل على اسبلة والضريح على اضرحة •

بارسباي (ص ٧٧) · وفي كتاب فنون الاسلام وصف بديع لمدفن قايتباي يجدر الرجوع اليه · كذلك اهتم المماليك الجراكسة بعمارة القصور · ومن أشهرها قصر الأمير قوصون خلف مدرسة السلطان حسن وهو يرجع الى القرن الثامن · وعمارة الوكالات · ومن أشهرها وكالة قايتباي بباب النصر ·

وازدهرت في عصر المماليك صناعة الشبكيات من الخشب المخروط · وهي التي تعرف باسم مشربية ولعلها تحريف مشرفة بمعنى غرفة عالية أو لعلها مشربة بمعنى المكان الذي يشرب فيه لأن المشربيات كانت تتخذ في واجهات البيوت لتلطيف النور وادخال النسيم العليل وتمكين أهل الدار من رؤية من بالخارج دون أن يكون العكس ممكناً · هذه المشربيات يصنع فيها خارجات صغيرة مستديرة أو مثمنة تركب خارج المشربية وتوضع فيها القلل لتبريدها (ص ٤٧٠) ·

وازدهرت صناعة الرخام والجص في مصر في هذا العصر · وكانت الزخارف المحفورة في الجص والرخام في العمائر المختلفة تشهد بابداع الفنانين في الرسوم النباتية الدقيقة فضلا عن الرسوم الهندسية المختلفة ·

كذلك تطور فن الفسيفساء في الحضارة العربية الاسلامية · لنرجع قروناً في تاريخ هذه الحضارة نجد أن أبدع ما وصل الينا من الفسيفساء فسيفساء قبة الصخرة في القدس الشريف وفسيفساء الجامع الأموي في دمشق · ولا نريد هنا بيان تطور هذا الفن الدقيق ولكنا نريد أن نشير الى أن نوعاً آخر من هذا الفن ازدهر في عصر المماليك وهو الفسيفساء المصنوعة من المكعبات الصغيرة من الرخام. وكان أكثر استعماله في المحاريب والوزرات بالمساجد ، كما تصنع منه الفسقيات والأحواض فضلا عن استعماله في زخرفة الأرض وما الى ذلك · من أشهرها حوض يرجع الى العصر المملوكي تسلل الى متحف فكتوريا وألبرت في لندن (ص ٦٥٤) ·

وقد ازدهر فن الحفر على الخشب في مصر والشام · ولا بد حين نذكر هذا الفن من أن نرجع قليلا في الزمان الى العصر الأيوبي وننوه بالتحفة الفنية التي أمر الأمير نور الدين محمود بن زنكي بصنعها سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ ـ ١١٦٩) وهي منبر الجامع الأقصى وقد نقله بعد وفاته صلاح الدين الى بيت المقدس ·

وعلى هذا المنبر أسماء صناع عدة ، منهم سليمان بن معالي • ويعرف الناس في الوقت الحاضر جريمة احراق هذه التحفة تحت بصر الصهاينة وسمعهم وبايعازهم الخفي •

على أنه من المنابر الهامة في القرن التاسع الهجري (١٥ م) منبر المدرسة الفخرية بالقاهرة ، (صفة المدرسة نسبة الى الأمير فخر الدين عبد الغني الأرمني الأصل) ، ومنبر مسجد المؤيد شيخ ، ومنبر المدرسة الباسطية (النسبة الى القاضي عبد الباسط) ومنبر مدرسة الأشرف برسباي ، ومنبر مدرسة قايتباي بالقرافة الشرقية ومنبر مسجد سلطان شاه (الاضافة الى الأمير سلطان شاه بن قرا ، وهو المنبر الذي أمر بعمله السلطان قايتباي بعد سنة ٨٨٠ هـ (١٤٧٥) حين جدد بناء هذا المسجد ووسعه • وقد تسرب هذا المنبر الى المتحف البريطاني حيث يرى هناك حتى اليوم ، ومنبر مدرسة أبي بكر مزهر (المزهرية) ، ومنبر مدرسة قجماس الاسحاقي •

وأقبل الصناع في هذا العصر على صناعة صناديق من الخشب لحفظ المصحف الشريف كانت تصفح بالنحاس وتزين بالكتابات والنقوش والفروع النباتية المكفتة بالفضة والذهب (ص ٥٥٩) •

وبلغت صناعة التحف الزجاجية الاسلامية أوجها في الشام ومصر فيما بين القرنين السادس والتاسع للهجرة (١٢ ـ ١٥ م) برعاية السلاطين الأيوبيين والمماليك • وكان فخر هذه الصناعة تزيين التحف بالزخارف المذهبة والمموهة بالميناء (ص ٥٥٩) • وأبدع ما وصل اليه صناع الزجاج المسلمون يتجلى في المشكاوات المموهة بالميناء والمشكاوات هي أغطية مصابيح لاضاءة المساجد والقصور والأبهاء • وبعض المشكاوات ذو ثروة زخرفية عجيبة تتجلى في الرسوم النباتية التي تغطي السطح كله أو جزءاً كبيراً منه • وقد تكون الزخرفة كتابات معظمها آيات قرآنية كريمة أو عبارات تاريخية أو دعائية مكتوبة بخط النسخ المملوكي • ومن أمثلتها « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء » •

ومن المعروف أن المسلمين افتتنوا افتتاناً كبيراً بحروف الأبجدية العربية وافتنّوا افتناناً بارعاًفي كتابتها وتنسيقهاوخلعوا عليها جمالاً حسياً وروحياً معاً وجعلوا من الخط فناً بديعاً لتزيين محاريب المساجد والأسلحة والأواني والسجاد والمصاحف ودواوين الشعراء والقناديل ومشكاوات المساجد ٠

كذلك استعمل الزجاج على يد المسلمين ولا سيما في الشام ومصر فيما يسمونه القماري والشمسيات ٠ وهي نوافذ صغيرة من الجص المفرغ تسد فتحاته بزجاج ملون وتزين هذه الفتحاتزخارف اسلامية من فروع نباتية أو رسوم خطية أو كتابات والمقصود غالباًلهذه النوافذ تخفيف حدة الضوء ٠

وغدا الاقبال على صناعة التحف المعدنية عظيماً في عصر المماليك ٠ وبقي من هذا العصر أبواب وشماعد وكراسي وصناديق ومقلمات وآنية وغير ذلك مما استعمل فيه مختلف الأساليب الفنية في صناعة المعادن من حفر وتكفيت وتخريم (ص ٥٥١) وازدهرت صناعة التكفيت وهي التطعيم بالفضة والذهب ٠ وقامت في البداية على أيدي فنانين من الموصل نزحوا الى حلب ودمشق والقاهرة ثم نبغ فيها صناع من المصريين أنفسهم ثم انتقلت هذه الصناعة وغيرها الى أوربة ٠

وفي خطط المقريزي وصف دقيق وشائق لسوق الكفتيين الى جانب الأسواق الأخرى ولأصناف السلع المكفتة التي لا تكاد تخلو دار بالقاهرة من عدد لا بأس به منها ولا سيما النحاسية ٠ وكذلك كانت الأواني والأسرة والتحف المكفتة الثمينة ترافق جهاز العروس في زفافها ولا سيما اذا كانت من بنات الأمراء أو الوزراء أو أعيان الكتاب وأماثل التجار ٠

في هذا العصر الثري بالمال الزاخر بالعلماء المضطرب بالأحداث وبين زحمة العلماء في كل فن وعلم ولد ونشأ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ٠ كان أبوه فقيهاً على مذهب الشافعي ، بارعاً في الأصول والكلام والنحو والبلاغة ٠ درس الفقه بالجامع الطولوني . وتوفي عام ٨٥٥ هـ وسن ابنه إذ ذاك خمس سنين وسبعة أشهر ٠ فأشرف على تربيته وتعليمه صديق لأبيه صوفي ٠ وأولع هذا الفتى اليتيم بطلب العلم فأخذ على نحو مئة وخمسين شيخاً في مختلف العلوم وأكبّ على البحث والتنقيب في بطون الكتب حتى صار نابغة العصر وشغف بالتأليف

والجمع والاختصار حتى غدا أغزر علماء عصره إنتاجاً • قال عنه تلميذه المؤرخ ابن إياس في حوادث ٩١١ هـ : « كان عالماً فاضلاً بارعاً في الحديث الشريف وغير ذلك من العلوم • وكان كثير الاطلاع، نادرة في عصره ، بقية السلف وعمدة الخلف • بلغت عدة مصنفاته نحواً من ستمائة تأليف وكان في درجة المجتهدين في العلم والعمل • »

ولعله من الأفضل أن نترك الآن للسيوطي نفسه أن يحدثنا عن سيرة حياته العلمية الفائقة إذ يرويها في كتابه «حسن المحاضرة» •

★ ★ ★

ترجمة مؤلف هذا الكتاب عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبي الصلاح أيوب ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيريّ الأسيوطي •

وانما ذكرت ترجمتي في هذا الكتاب اقتداءً بالمحدثين قبلي ، فقلّ أن ألّف أحد منهم تاريخاً الا وذكر ترجمته فيه ؛ وممن وقع له ذلك الامام عبد الغافر الفارسي في تاريخ نيسابور ، وياقوت الحموي في معجم الأدباء ، ولسان الدين بن الخطيب في تاريخ غرناطة ، والحافظ تقي الدين الفارسي في تاريخ مكة ، والحافظ أبو الفضل بن حجر في قضاة مصر ، وأبو شامة في الروضتين ؛ وهو أورعهم وأزهدهم ، فأقول :

أما جدي الأعلى همام الدين فكان من أهل الحقيقة ، ومن مشايخ الطريق ، وسيأتي ذكره في قسم الصوفية ، ومَنْ دونه كانوا من أهل الوجاهة والرياسة ؛ منهم من وليَ الحكم ببلده ، ومنهم مَنْ ولي الحِسبة بها ، ومنهم مَنْ كان تاجراً في صحبة الأمير شيخون ، وبنى مدرسة بأسيوط ، ووقف عليها أوقافاً ، ومنهم مَنْ كان متمولا ، ولا أعرف منهم من خدم العلم حق الخدمة الا والدي ، وسيأتي ذكره في قسم الفقهاء الشافعية •

وأما نسبتنا بالخضيريّ ، فلا أعلم ما تكون اليه هذه النسبة الا الخضيرية ، مَحِلّة ببغداد ؛ وقد حدثني من أثق به، أنه سمع والدي رحمه الله تعالى يذكر أن

جده الأعلى كان أعجمياً أو من الشرق ؛ فالظاهر أن النسبة الى المحلة المذكورة ، وكان مولدي بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة .

وحملت في حياة أبي الى الشيخ محمد المجذوب ، رجل كان من كبار الأولياء بجوار المشهد النفيسي ، فبرك عليّ ، ونشأت يتيماً ، فحفظت القرآن ولي دون ثماني سنين ثم حفظت العمدة ، ومنهاج الفقه والأصول ، وألفية ابن مالك ؛ وشرعت في الاشتغال بالعلم ، من مستهل سنة أربع وستين ، فأخذت الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ ، وأخذت الفرائض عن العلامة فرضيّ زمانه الشيخ شهاب الدين الشار مساحيّ الذي كان يقال إنه بلغ السن العالية وجاز المائة بكثير ، والله أعلم بذلك ؛ قرأت عليه في شرحه على المجموع ، وأُجِزت بتدريس العربية في مستهل سنة ست وستين .

وقد ألّفت في هذه السنة ، فكان أول شيء ألّفته شرح الاستعاذة والبسملة ، وأوقفت عليه شيخنا شيخ الاسلام علَم الدين البُلقيني ، فكتب عليه تقريظاً ، ولازمته في الفقه الى أن مات ؛ فلازمت ولده ، فقرأت عليه من أول التدريب لوالده الى الوكالة وسمعت عليه من أول الحاوي الصغير الى العدد ، ومن أول المنهاج الى الزكاة ، ومن أول التنبيه الى قريب من باب الزكاة ، وقطعة من الروضة من باب القضاء ، وقطعة من تكملة شرح المنهاج للزركشي ؛ ومن إحياء الموات الى الوصايا أو نحوها . وأجازني بالتدريس والافتاء من سنة ست وسبعين ، وحضر تصديري .

فلما توفي سنة ثمان وسبعين لزمت شيخ الاسلام شرف الدين المناوي . فقرأت عليه قطعة من المنهاج ، وسمعته عليه في التقسيم الا مجالس فاتتني ، وسمعت دروساً من شرح البهجة ، ومن حاشية عليها ومن تفسير البيضاوي .

ولزمت في الحديث والعربية شيخنا الامام العلامة تقي الدين الشبلي الحنفي ، فواظبته أربع سنين ، وكتب لي تقريظاً على شرح ألفية ابن مالك وعلى جمع الجوامع في العربية تأليفي ، وشهد لي غير مرة بالتقدم في العلوم بلسانه وبنانه ، ورجع الى قولي مجرداً في حديث ؛ فانه أورد في حاشيته على الشفاء حديث أبي الجمرا في الاسرا ؛ وعزاه الى تخريج ابن ماجه ، فاحتجت الى ايراده بسنده ، فكشفت

ابن ماجه في مظنته ، فلم أجده ، فمررت على الكتاب كله ، فلم أجده ، فاتهمت نظري، فمررت مرة ثانية فلم أجده، فعدت ثالثة فلم أجده ؛ ورأيته في معجم الصحابة لابن قانع ، فجئت الى الشيخ وأخبرته ،فبمجرد ما سمع مني ذلك أخذ نسخته ، وأخذ القلم فضرب على لفظ ابن ماجه ،وألحق ابن قانع في الحاشية ؛ فأعظمت ذلك وهبته لعظم منزلة الشيخ في قلبي ،واحتقاري في نفسي، فقلت:ألا تصبرون ، لعلكم تراجعون ! فقال : لا ، انما قلّدت في قولي ابن ماجة البرهان الحلبي. ولم أنفكّ عن الشيخ الى أن مات •

ولزمت شيخنا العلامة أستاذ الوجود محيي الدين الكافيجي أربع عشرة سنة ؛ فأخذت عنه الفنون من التفسير والأصول والعربية والمعاني وغير ذلك ؛ وكتب لي اجازة عظيمة •

وحضرت عند الشيخ سيف الدين الحنفي دروساً عديدة في الكشّاف والتوضيح وحاشيته عليه ، وتلخيص المفتاح ، والعَضُد •

وشرعت' في التصنيف في سنة ست وستين ، وبلغت مؤلفاتي الى الآن ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه •

وسافرت بحمد الله تعالى الى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور ، ولما حججت شربت من ماء زمزم ، لأمور ؛ منها أن أصل في الفقه الى الشيخ سراج الدين البلقيني ، وفي الحديث الى رتبة الحافظ ابن حجر •

وأفتيت من مستهل سنة احدى وسبعين •

وعقدت املاء الحديث من مستهلّ سنة اثنتين وسبعين ••

ورزقت التبحر في سبعة علوم :التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع ؛ على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة • والذي أعتقده أن الذي وصلت اليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه والنقول التي اطلعت عليها فيها ، لم يصل اليه ولا وقف عليه أحد من أشياخي ؛ فضلا عمّن هو دونهم ،وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه ؛ بل شيخي فيه أوسع نظراً وأطول باعاً ؛ ودون هذه السبعة في المعرفة : أصول الفقه والجدل والتصريف ، ودونها الانشاء والترسل والفرائض ، ودونها القراءات ، ولم

آخذها عن شيخ ، ودونها الطب ، وأما علم الحساب فهو أعسر شيء عليّ وأبعده عن ذهني ؛ واذا نظرت في مسألة تتعلق به فكأنما أحاول جبلا أحمله ٠

وقد كَمُلت عندي الآن آلاف الاجتهاد بحمد الله تعالى ؛ أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى لا فخراً ؛ وأي شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها بالفخر ، وقد أزف الرحيل ، وبدا الشيب ، وذهب أطيب العمر ! ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية، ومداركها ونقوضها وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرتُ على ذلك من فضل الله لا بحولي ولا بقوتي ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، ما شاء الله لا قوة إلا بالله ٠

وقد كنت في مبادىء الطلب قرأتُ شيئاً في علم المنطق ، ثم ألقى الله كراهته في قلبي ٠ وسمعتُ أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك ، فعوّضني الله تعالى عنه علم الحديث الذي هو أشرف العلوم ٠

وأما مشايخي في الرواية سماعاً وإجازة فكثير ؛ أوردتهم في المعجم الذي جمعتهم فيه ، وعِدّتهم نحو مائة وخمسين؛ ولم أكثر من سماع الرواية لاشتغالي بما هو أهم وهو قراءة الدراية ٠

وهذه أسماء مصنفاتي لتستفاد :

فن التفسير وتعلقاته والقراءات : الاتقان في علوم القرآن ، الدر المنثور في التفسير المأثور ٠ ترجمان القرآن في التفسير ٠ المسند ، أسرار التنزيل يسمى قطف الأزهار في كشف الأسرار ، لباب النقول في أسباب النزول ، مفحمات الأقران في مبهمات القرآن ، المهذب فيما وقع في القرآن من المعرّب ، الاكليل في استنباط التنزيل، تكملة تفسير الشيخ جلال الدين المحلي، التحبير في علوم التفسير، حاشية على تفسير البيضاوي، تناسق الدرر في تناسب السور ، مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع ، مجمع البحرين ومطلع البدرين في التفسير ، مفاتيح الغيب في التفسير ، الأزهار الفائحة على الفاتحة ، شرح الاستعاذة والبسملة ، الكلام على أول الفتح ، وهو تصدير ألقيته لمّا باشرتُ التدريس بجامع شيخون بحضرة شيخنا البُلقيني ، شرح الشاطبية ، الألفية في القراءات العشر ، خمائل الزهر في فضائل السور ، فتح الجليل للعبد الذليل في الأنواع البديعية

المستخرجة من قولـه تعالى : (الله وليّ الذين آمنوا ٠٠٠) الآية ، وعدتها مائة وعشرون نوعاً ، القول الفصيح في تعيين الذبيح، اليد البسطى في الصلاة الوسطى، معترك الأقران في مشترك القرآن ٠

فن الحديث وتعلقاته : كشف المغطّى في شرح الموطّا ، اسعاف المبطّا برجـال الموطا ، التوشيح على الجامع الصحيح ، الديباج على صحيح مسلم بن الحجـاج ، مرقاة الصعود الى سنن أبي داود ، شرح ابن ماجه، تدريب الراوي في شرح تقريب النووي ، شرح ألفية العراقي ، الألفيـة وتسمى نظم الدرر في علم الأثر وشرحها يسمى قطر الدرر ، التهذيب في الزوائد على التقريب ، عـين الاصابة في معرفـة الصحابة ، كشف التلبيس عن قلب أهـل التدليس ، توضيـح المدرك في تصحيـح المستدرك ، اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعـة ، النكت البـديعـات عـلى الموضوعات ، الذيل على القول المسدد ، القول الحسن في الذب عن السـنن ، لب اللباب في تحرير الأنساب ، تقريب الغريب ، المدرج الى المدرج ، تذكرة المؤتسي بمن حدّث ونسي، تحفة النابه بتلخيص المتشابه ، الروض المكلل والورد المعلل في المصطلح ، منتهى الآمال في شـرح حديث انما الأعمال ، المعجزات والخصـائص النبوية ، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور ، البـدور السافـرة عن أمـور الآخـرة ، ما رواه الواعـون في أخبـار الطاعون ، فضل موت الأولاد ، خصائص يوم الجمعة ، منهاج السنّة ، ومفتـاح الجنة ، تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش ، بزوغ الهلال في الخصـال الموجبة للظلال ، مفتاح الجنة في الاعتصام بالسنـة ، مطلـع البدرين فيمن يوتى أجريـن ، سهام الاصابـة في الدعـوات المجابة ، الكِلم الطيب ، القول المختـار في المأثور من الدعوات والأذكار ، أذكار الأذكار ، الطِب النبوي ، كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة ، الفوائد الكامنـة في ايمان السـيدة آمنـة ، ويسمى أيضـاً التعظيم والمنّة في أن أبـوي النبي ﷺ في الجنـة ، المسلسـلات الكبـرى ، جيـاد المسلسلات ، أبواب السعادة في أسـباب الشهادة ، أخبار الملائكة ، الثغور الباسمة في مناقب السيدة آمنة ، مناهج الصفا في تخريج أحاديث الشفا ، الأساس في مناقب بني العباس ، درّ السحابـة فيمن دخـل مصر من الصحابة ، زوائد شُعَب الايمان للبيهقي ، لمّ الأطراف وضم الأتراف ، اطراف الأشراف بالاشراف على الأطراف، جامع المسانيـد ، الفـوائد المتكـاثرة في

الأخبار المتواترة ، الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة ، تخريج أحاديث الدرة الفاخرة ، تخريج أحاديث الكفاية يسمي تجربة العناية ، الحصر والاشاعة لأشراط الساعة، الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، زوائد الرجال على تهذيب الكمال ، الدر المنظم في الاسم المعظم ، جزء في الصلاة على النبي ﷺ ، مَنْ عاش من الصحابة مائة وعشرين ، جزء في أسماء المدلّسين ، اللمع في أسماء مَنْ وضع ، الأربعون المتباينة ، درر البحار في الأحاديث القصار ، الرياضة الأنيقة في شرح أسماء خير الخليقة ، المرقاة العليّة في شرح الأسماء النبوية ، الآية الكبرى في شرح قصة الاسرا ، أربعون حديثاً من رواية مالك عن نافع عن ابن عمر ، فهرست المرويّات ، بغية الرائد في الذيل على مجمع الزوائد ، أزهار الآكام في أخبار الأحكام ، الهبة السنيّة في الهيئة السنية ، تخريج أحاديث شرح العقائد ، فضل الجلد ، الكلام على حديث ابن عباس : « احفظ الله يحفظك » هو تصدير ألقيته لما وليت درس الحديث بالشيخونية ، أربعون حديثاً في فضل الجهاد ، أربعون حديثاً في رفع اليدين في الدعاء ، التعريف بآداب التأليف ، العشاريات ، القول الأشبه في حديث : « مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربه » ، كشف النقاب عن الألقاب ، نشر العبير في تخريج أحاديث الشرح الكبير ، من وافقت كنيته كنية زوجه من الصحابة ، ذم زيارة الأمراء ، زوائد نوادر الأصول للحكيم الترمذي ، تخريج أحاديث الصحاح يسمى فلق الصباح ، ذم المكس ، آداب الملوك .

فن الفقه وتعلقاته : الأزهار الغضّة في حواشي الروضة ، الحواشي الصغرى ، مختصر الروضة يسمى القنية ، مختصر التنبيه يسمى الوافي ، شرح التنبيه ، الأشباه والنظائر ، اللوامع والبوارق في الجوامع والفوارق ، نظم الروضة يسمى الخلاصة ، شرحه يسمى رفع الخصاصة ، الورقات المقدمة ، شرح الروض ، حاشية على القطعة للاسنوي ، العذب السلسل في تصحيح الخلاف المرسل ، جمع الجوامع ، الينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع ، مختصر الخادم يسمى تحصين الخادم ، تشنيف الأسماع بمسائل الاجماع ، شرح التدريب ، الكافي ، زوائد المهذب على الوافي ، الجامع في الفرائض ، شرح الرحبيّة في الفرائض ، مختصر الأحكام السلطانية للماوردي .

الأجزاء المفردة في مسائل مخصوصة على ترتيب الأبواب : الظفر بقلم الظفر ،

الاقتناص في مسألة التّماص ، المستطرفة في أحكام دخول الحشفة ، السلالة في تحقيق المقر والاستحالة ، الروض الأريض في طهر المحيض، بذل العسجد لسؤال المسجد، الجواب الحزم عن حديث التكبير جزم ، القذاذة في تحقيق محل الاستعاذة ، ميزان المعدلة في شأن البسملة ، جزء في صلاة الضحى ، المصابيح في صلاة التراويح ، بسط الكف في إتمام الصف ، اللمعة في تحقيق الركعة لادراك الجمعة ، وصول الأماني بأصول التهاني ، بلغة المحتاج في مناسك الحاج ، السّلاف في التفصيل بين الصلاة والطواف ، شدّ الأثواب في سدّ الأبواب في المسجد النبوي ، قطع المجادلة عند تغيير المعاملة ، إزالة الوهن عن مسألة الرهن ، بذل الهمّة في طلب براءة الذمة ، الانصاف في تمييز الأوقاف ، أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب ، الزهر الباسم فيما يزوج فيه الحاكم ، القول المضي في الحنث في المضي ، القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق ، فصل الكلام في ذم الكلام ، جزيل المواهب في اختلاف المذاهب ، تقرير الاسناد في تيسير الاجتهاد ، رفع منار الدين وهدم بناء المفسدين، تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء ، ذم القضاء ، فضل الكلام في حكم السلام ، نتيجة الفكر في الجهر بالذكر ، طي اللسان عن ذم الطيلسان، تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك ، أدب الفتيا ، القام الحجر لمن زكّى سباب أبي بكر وعمر الجواب الحاتم عن سؤال الخاتم ، الحجج المبينة في التفضيل بين مكة والمدينة ، فتح المغالق من أنت طالق ، فصل الخطاب في قتل الكلاب ، سيف النظار في الفرق بين الثبوت والتكرار .

فن العربية وتعلقاته : شرح ألفية ابن مالك يسمى البهجة المضيّة في شرح الألفية ، الفريدة في النحو والتصريف والخط ، النكت على الألفية الكافية والشافية والشذور والنزهة ، الفتح القريب على مغني اللبيب ، شرح شواهد المغني ، جمع الجوامع ، شرحه يسمى همع الهوامع، شرح الملحة ، مختصر الملحة، مختصر الألفية ودقائقها ، الأخبار المروية في سبب وضع العربية ، المصاعد العليّة في القواعد النحوية ، الاقتراح في أصول النحو وجدله، رفع السّنة في نصب الزنة، الشمعة المضيئة ، شرح كافية ابن مالك ، درّ التاج في إعراب مشكل المنهاج ، مسألة ضربي زيداً قائماً ، السلسلة الموشحة ، الشهد ، شذا العرف في إثبات المعنى للحرف ، التوشيح على التوضيح ، السيف الصقيل في حواشي ابن عقيل ، حاشية

على شرح الشذور ، شرح القصيدة الكافية في التصريف ، قطر الندا في ورود الهمزة للندا ، شرح تصريف العزّي ،شرح ضروري التصريف لابن مالك ، تعريف الأعجم بحروف المعجم ، نكت على شرح الشواهد للعيني ، فجر الثمد في إعراب أكمل الحمد ، الزند الوري في الجواب عن السؤال السكندري ٠

فن الأصول والبيان والتصوف : شرح لمعة الاشراق في الاشتقاق ، الكوكب الساطع في نظم الجوامع ، شرحه ، شرح الكوكب الوقاد في الاعتقاد ، نكت على التلخيص يسمى الافصاح ، عقود الجمان في المعاني والبيان ، شرحه ، شرح أبيات تلخيص المفتاح ، مختصره ، نكت على حاشية المطوّل لابن الفنري رحمه الله تعالى، حاشية على المختصر ، البديعية ، شرحها، تأييد الحقيقة العليّة وتشييد الطريقة الشاذليّة ، تشييد الأركان في ليس في الامكان أبدع مما كان ، درج المعالي في نصرة الغزالي على المنكر المتغالي ، الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال ، مختصر الاحياء ، المعاني الدقيقة في ادراك الحقيقة ، النقاية في أربعة عشر علماً ، شرحها ، شوارد الفوائد ، قلائد الفرائد ، نظم التذكرة ، ويسمى الفلك المشحون ٠ الجمع والتفريق في الأنواع البديعية ٠

فن التاريخ والأدب : تاريخ الصحابة وقد مر ذكره ، طبقات الحفاظ : طبقات النحاة : الكبرى والوسطى والصغرى، طبقات المفسرين ، طبقات الأصوليين، طبقات الكتّاب ، حلية الأولياء ، طبقات شعراء العرب ، تاريخ الخلفاء ، تاريخ مصر هذا ، تاريخ سيوط معجم شيوخي الكبير يسمى حاطب ليل وجارف سيل ، المعجم الصغير يسمى المنتقى ؛ ترجمة النووي ، ترجمة البلقيني ، الملتقط من الدرر الكامنة ، تاريخ العمر وهو ذيل على إنباء الغمر ، رفع الباس عن بني العباس ، النفحة المسكية والتحفة المكية ، على نمط عنوان الشرف ، درر الكلم وغرر الحكم ، ديوان خطب ، ديوان شعر، المقامات ، الرحلة الفيومية ، الرحلة المكية ، الرحلة الدمياطية ، الرسائل الى معرفة الأوائل ، مختصر معجم البلدان ، ياقوت الشماريخ في علم التاريخ، الجمانة، رسالة في تفسير ألفاظ متداولة ، مقاطع الحجاز ، نور الحديقة من نظم القول ، المجمل في الرد على المهمل، المنى في الكنى، فضل الشتاء ، مختصر تهذيب الأسماء للنووي ، الأجوبة الزكية عن الألغاز السبكية ، رفع شأن الحبشان ، أحاسن الأقباس في محاسن الاقتباس ، تحفة

المذاكر في المنتقى من تاريخ ابن عساكر، شرح بانت سعاد، تحفة الظرفاء بأسماء الخلفاء، قصيدة رائية، مختصر شفاء الغليل في ذم الصاحب والخليل .

* * *

من مزايا السيوطي سعة معرفته وتبحره في علوم شتى أشار اليها في سيرته تلك تحدثاً بنعمة الله عليه لا افتخاراً . وقد ألف في علوم كثيرة وذكر من مؤلفاته أن عددها بلغ ثلثمائة . ولكنه ثابر على التأليف بعد كتاب حسن المحاضرة . وروى تلميذه أن مؤلفاته بلغت نحو ستمائة . وهذا العدد في الحالين ضخم يدل على غزارة مادته وامتداد آفاقه وسعة مداه وان كان بين هذه المؤلفات عدد لا بأس من الرسائل الصغيرة التي هي بمنزلة بحوث عارضة .

وبعض مؤلفاته شروح أو مختصرات لمؤلفات لغيره ممن تقدمه أو مؤلفات له كما جرى على ذلك العلماء في عصره أو العصر الذي تقدمه . وقد غدت مؤلفاته كلها مراجع مهمة في العصور التالية حتى العصر الحاضر . وحسبه فخراً تأليفه المزهر والاتقان والأشباه والنظائر وبغية الوعاة وحسن المحاضرة والاقتراح في أصول النحو . ولم يذكر السيوطي المزهر بين مؤلفاته . وهذا يدل على أنه ألفه بعد حسن المحاضرة .

هذا ومن المناسب أن نذكر بأن السيوطي في تلخيصه لبعض الكتب الهامة في التراث لم يقتصر على التلخيص . فقد ألف السيوطي كتاب « طبقات الحفاظ » مثلا من « طبقات الحفاظ » للحافظ الذهبي المتوفى عام ٧٤٨ . فلم يكتف بما أورده الذهبي في طبقاته بل كان يختار ويلخص ويؤلف ويزيد بعض النقول ثم يذيّل عليها بالحفاظ الذين تلوا عصر الذهبي الى طبقة الحافظ ابن حجر .

ومن مزايا السيوطي في تآليفه أن يورد في مقدمات بعض كتبه مصادره من الكتب التي اعتمدها ويذكر أسماء مؤلفيها كما في مقدمات كتاب « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » وكتاب « الاتقان في علوم القرآن » وكتاب « حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة » . كذلك يضيف ما نقله سماعاً عن علماء عصره من الشيوخ والأقران وما وقع له أحياناً من المشاهدة والتثبت .

ومن مزاياه أنه ألّف في موضوعات مبتكرة قل أن تخطر على البال منها كتابه فيمن عاش من الصحابة مئة وعشرين سنة . وهذا موضوع يهم بحوث « الديمغرافية » أي علم السكان الحديث في معرفة مدى تعمير المعمرين .

وكتاب « الدراري في أبناء السراري » به أسماء أبناء الخلفاء المولودين من الجواري ، وغير ذلك .

ومن مزايا السيوطي تواضعه مع علمه الجمّ الواسع وتآليفه الكثيرة التي قلّ أن يؤلف بعددها المؤلفون . ومع ذلك يعترف أنه لم ينبغ في فن الانشاء والترسل بعد هذا العدد الضخم من المؤلفات .

وعلى الرغم من هذه المزايا قيض له من علماء عصره المشهورين والمؤرخين المدققين من يبحث عن هفواته . فقد حمل السخاوي عليه في كتابه « الضوء اللامع » ومن المعروف أن السخاوي مع اشاراته الدقيقة وتحرياته الصائبة شديد التجريح لمن ترجم لهم في كتابه ولا سيما معاصروه وشيوخه . ومن الذين لم يسلموا من وخزات قلمه أستاذه المقريزي .

وقد عمد السيوطي فردّ على شمس الدين السخاوي بمقامة سماها « الكاوي على تاريخ السخاوي » . قال في أولها :

« ما ترون في رجل ألّف تاريخاً جمع فيه أكابر وأعياناً ، ونصب لأكل لحومهم خواناً ، ملأه بذكر المساوىء وثلب الأعراض ، وفوّق فيه سهاماً على قدر أغراضه والأعراض هي الأغراض ، جعل لحم المسلمين من جملة طعامه وادامه ، واستغرق في أكلها أوقات فطره وصيامه ، ولم يفرق بين جليل وحقير ... وامتد حتى الى العلماء الأعلام وقضاة القضاة ومشايخ الاسلام . » الخ .

يذكر ابن اياس أنه في رجب شاع بين الناس أن الشيخ جلال الدين السيوطي أفتى بأنه لا يجوز البناء على ساحل الروضة لأن الاجماع متعقد على منع البناء على شطوط الأنهار الجارية . وأما ما ذكر من أن ذلك يجوز في مذهب الامام الشافعي رضي الله عنه فباطل ، وليس له صحة في كتب الشافعية قاطبة .

ونحن نعجب بموقف الجلال وفهمه لروح الدين الحنيف . فمنع البناء على شطوط الأنهار الجارية دفع لتلوثها .

كذلك ذكر ابن اياس : « ولما دخلت سنة ٨٩٩ هـ صعد القضاة يهنئون السلطان قايتباي بالقلعة بالعام الجديد . وصعد أيضاً الشيخ جلال الدين

الأسيوطي • فلما جلس سأله السلطان عن أي سنة سنّها رسول الله ﷺ ولم يفعلها • فلم يجبه الشيخ جلال الدين عن ذلك بشيء مع غزارة علمه وقوة اطلاعه ، وكان السلطان عنده كتاب يسمى « حيرة الفقهاء » ... ثم أجاب الشيخ جلال الدين بعد ذلك بجواب حسن كاف في هذه المسألة بأنه قصد بذلك الأذان ، فانه سنّه ولم يفعله ••• وعمل في هذه المسألة كراساً مطولا • »

هذا ونلحظ طموح السيوطي منذ صباه ولفت الأنظار نحوه. كتب السخاوي في كتابه «الضوء اللامع» حين ترجم للسيوطي أن هذا الفتى « ترقى حتى قرأ في بعض المتون الفقهية على العَلَم البلقيني وحضر عند الشرف المناوي يسيراً جداً ولمّح له بالأدب حيث قال له وقد تألم من جلوسه فوق ملاً علي : كنا ونحن صغار لا نجلس الا خلف الحلقة ، في كلمات من هذا النمط وحينئذ انقطع ••• »

ثم نلحظ ماذكره تلميذ السيوطي محمد بن أحمد بن اياس في كتابه « بدائع الزهور في وقائع الدهور » في سياق حوادث ٩٠٢ هـ من « أن الخليفة المتوكل على الله عبدالعزيز عهد للشيخ جلال الدين الأسيوطي بوظيفة لم يسمع بمثلها قط وهو أنه جعله على جميع القضاة قاضياً كبيراً يولّي منهم من يشاء ويعزل منهم من يشاء مطلقاً في سائر ممالك الاسلام • وهذه الوظيفة لم يلها قط سوى القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز في دولة بني أيوب • فلما بلغ القضاة ذلك شق عليهم واستخفوا عقل الخليفة في ذلك ،وقالوا : ليس للخليفة مع وجود السلطان حل ولا ربط ولا ولاية ولا عزل ولكن الخليفة استخف بالسلطان لكونه صغيراً • فلما قامت الدائرة والألسنة على الخليفة رجع عن ذلك وقال : ايش كنت أنا • الشيخ جلال الدين هو الذي حسّن لي ذلك ، وقال لي : هذه كانت وظيفة قديمة، وكان الخلفاء يولونها من يختارونه من العلماء • ثم أشهدوا على الخليفة بالرجوع عن ذلك وبعث فأخذ العهد الذي كان كتبه للشيخ جلال الدين الأسيوطي وكادت أن تكون فتنة كبيرة بسبب ذلك ووقعت أمور يطول شرحها ثم سكن الحال بعد مدة » •

كان السيوطي صديقاً للخليفة المتوكل على الله وكان السلطان اذ ذاك محمد بن قايتباي • وقد اشترك الخليفة في السنة نفسها مع القضاة الأربعة في خلع السلطان هذا ومبايعة «قانصوة خمسمائة» بالسلطنة • ولكن لم يلبث هذا الا ثلاثة أيام ثم غلب ورجع الملك الى صاحبه وهو الناصر محمد بن قايتباي • فعاد الخليفة

نفسه وبايعه السيوطي بالسلطنة. وقد رغب الخليفة في عيد الفطر من السنة نفسها أن يهنىء السلطان بالعيد • فلم يقابلـه السلطان وبعث اليه بمن يشكره ويصرفه. وقد مرض هذا الخليفة في أواخر عام ٩٠٢ وتوفي آخر المحرم عام ٩٠٣ وله من العمر ٨٤ سنة • وقد اشتهر بدماثة الخلق والاشتغال بالعلم والأدب • وكان السيوطي قد ألّف له كتابيه في تاريخ بني العباس • الأول هو « كتاب الأساس في فضل بني العباس » والثاني « رفع الباس عن بني العباس » •

هذا وربما كان السيوطي يرنو الى منصب القضاء زيادة على تدريسه في بعض الجوامع • ولكنه لم يصل الى ذلك المنصب مع تقدمه في الفقه وذيوع شهرته بين أترابه ورجال جيله • وكان منصب قاضي قضاة الشافعية قد تبوأه في أيامه الشيخ زكريا الأنصاري مدة طويلة وبكفاية عالية • وقد تكون حادثة السيوطي مع الخليفة المتوكل هي التي حملته في أواخر عمره على اعتزال الناس وترك وظائفه من تدريس وإفتاء فتجرد للتأليف وشرع في تحرير باقي مؤلفاته وألّف كتابه « التنفيس في الاعتذار من ترك الافتاء والتدريس » • وأقام في روضة المقياس • فلم يتحول عنها الى أن وافاه أجله •

كان السيوطي ذا مكانة مرموقة في عصره وكان الأمراء والوزراء وغالبية الملوك يحترمونه ويقدرون فضله • ويعرضون عليه هباتهم فيردها • قال صاحب « السنا الباهر بتكميل النور السافر » : « ولما مات لم يتعرض أحد في تركته ، مع أن الزمن كان زمن جور • وقال السلطان الغوري : لم يقبل الشيخ منا شيئاً في حياته فلا نتعرض في تركته » •

★ ★ ★

شملت دولة المماليك مصر وسورية وبسطت نفوذها بدرجات متفاوتة على كثير من الأقطار المجاورة مثل شبه الجزيرة العربية وبرقة وبلاد النوبة وأطراف آسيا الصغرى •

وكان في عهدها بنو حفص في تونس، وبنو زيان في الجزائر • وبنو مرين ثم بنو وطاس في المغرب الأقصى •

أما الأندلس فقد استطاعت ايزابيلا ملكة قشتالة وفرديناند ملك أرغون اللذان كانا قد تزوجا الاستيلاء على درة هذه البلاد غرناطة في ٢ شهر ربيع الأول

٨٩٧ ـ ٢ كانون الثاني ١٤٩٢ فكان ذلك أدهى الكوارث على المسلمين • وقد اتصف حكمهما بتأسيس محاكم التفتيش ومنحها سلطة واسعة واطلاق يدها إطلاقاً كلياً مما أكسب اسبانيا زعامة الاضطهاد الديني والتعصب الأعمى في أقصى مظاهرهما ، كذلك اتصف بطرد المسلمين من بلادهما بعد ارساء أركان حضارة امتد أمدها نحو ثمانية قرون وبطرد اليهود الذين كان يحميهم المسلمون في ظلال تلك الحضارة •

ومع ذلك فقد أرسل الملكان الاسبانيان مستكشفاً من أهل جنوة في رحلة كانت أعظم الرحلات في التاريخ اذ أبحرت ثلاث سفن مع كريستوفر كولمبوس حاملة مئة وعشرين بحاراً في ٣ آب ١٤٩٢ وباحثة عن بلاد الهند ومتجهة غرباً لا شرقاً وفي نهاية الاسبوع العاشر وقع نظرهم على الأرض • ولكنها لم تكن أرض الهند كما ظلّ يعتقد كولمبوس ولكنها أرض العالم الجديد •

أما في الشرق فقد عاصر المماليك بني رسول ثم بني طاهر في اليمن وفي آسيا الصغرى كانت سلاطين بني عثمان تشتد شوكتهم ويقوى سلطانهم وأهم الأحداث التي جرت في زمن المماليك افتتاح السلطان محمد الثاني القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ/١٤٥٣م • وهلكَ آخر أباطرة الروم بين أكداس القتلى وانتهت الامبراطورية البيزنطية • وقد استمر السلطان العثماني يتوغل في فتوحه وتمكن قبل موته في عام ٨٨٦ هـ ـ ١٤٨١ من إخضاع شبه جزيرة البلقان كلها في جنوب نهر الدانوب وفرعه الساف فضلا عن بلاد الأفلاخ (رومانيا) في شمال هذا النهر العظيم •

وفي عهد سليم الأول ٩١٨ هـ ـ ١٥١٢ م ـ ٩٢٦ / ١٥٢٠ الذي دام حكمه نحو ثماني سنوات هزم هذا السلطان شاه ايران اسماعيل من الأسرة الصفوية وضم كردستان وديار بكر اليه • ذكرنا آنفاً حربه مع السلطان المملوكي قانصوه الغوري ، واستيلاءه على سورية ومصر وقضاءه على دولة المماليك الجراكسة • وقد بسط سلطته على مكة المشرفة والمدينة المنورة وأتى بالخليفة العباسي في دولة المماليك وهو المتوكل على الله الثالث الى استانبول وأخذ منه الخلافة •

وفي أواخر دولة المماليك أسس الشاه اسماعيل دولة الصفويين في ايران ٩٠٧ هـ/١٥٠٢ م وجعل عاصمتها تبريز ونسبتهم الى الشيخ صفي الدين

الأردبيلي • ويقال انهم من الأسرة الحسينية ينحدرون من الامام السابع موسى الكاظم ، وقد استطاع الشاه اسماعيل أن يستولي على ايران كلها وأن يقضي على الدول الصغيرة المتفرقة من حوله واجتازت جيوشه خراسان وجعل ملكه يمتد من نهر جيجون الى خليج البصرة ، ومن أفغانستان الى الفرات • وقد أشرنا آنفاً الى الحرب التي وقعت بينه وبين السلطان سليم الأول العثماني والى ربح العثمانيين لهذه الحرب •

وفي الهند اعتلى بهلول لودي الأفغاني عرش دهلي في عام ١٤٥١/٨٥٥ وأسس دولة صغيرة استمرت بولده وحفيده حتى عام ١٥٢٦/٩٣٢ حين قتل ظهير الدين محمد بابر شاه آخر سلاطينها •

وقد تأسست في الهند أيضاً دول مختلفة في شتى الولايات ألحقها بعد حين أكبر شاه بامبراطورية الهند المغولية

هذا وان فتح محمد الثاني للقسطنطينية وهو عام ١٤٥٣ يعده المؤرخون نهاية للعصر الوسيط وبداية للعصور الحديثة • وذلك أن النهضة الأوربية قد بدأت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين واستمرت في القرن السادس عشر بيقظة الآداب والفنون والعلوم والصناعات من جنوبي أوربة كله مشعة في مختلف أقطارها شمالا بعد الاحتكاك بالحضارة العربية الاسلامية واحتذاء الغرب سبل المسلمين في الحياة والتفكير والعلوم والثقافة والصناعة • وقوى هذه النهضة هجرة رجال الأدب والعلم من القسطنطينية بعد فتحها الى ايطاليا • وعلى الرغم من تاريخ نشوء الطباعة الحديثة الغامض فان أغلبية الباحثين يجرون على أن يوحنا غوتنبرغ من مدينة ماينس في ألمانيا هو صاحب الاختراع في عام ١٤٥٣ فدعم نشوؤها انتشار الثقافة والمعرفة وساند النهضة . وكذلك في عالم الملاحة والتجارة طاف الملاح البرتغالي فاسقو داغاما (١٤٦٩ ؟ ـ ١٥٢٤) حول رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٧ في طريقه الى الهند • وهو من الذين تخرجوا في فن الملاحة العربية • مثله في ذلك مثل كريستوفر كولمبوس.

ونشأ في أوربة عدد كبير من رجال الاصلاح والعلماء والفلاسفة والفنانين

كانوا نجوم النهضة الأوروبية • وحسبناهنا أن نشير الى بعضهم ممن عاصر السيوطي •

ظهر من رجال الاصلاح الديني مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) في ألمانيا ، وألريخ تسفنغلي (١٤٨٤ ـ ١٥٣١) في سويسرة ، وحنا كلفن (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤) في فرنسة •

ومن العلماء براسلسوس (١٤٩٣ ـ ١٥٤١ الكيماوي الطبيب السويسري الألماني ، وليوناردو دافنشي (١٤٥٢ ـ ١٥١٩) في ايطاليا كان عالماً موسوعياً الى جانب اهتمامه بالنحت والتصوير ، ونيقولاوس كبرنيكوس (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) الفلكي البولندي البروسي •

ومن الفلاسفة بونبوناتزي (١٤٦٢ ـ ١٥٢٥) أشهر أساتذة بادوفا في ايطاليا وجيرولامو كردانو (١٥٠١ ـ ١٥٧٦) اشتهر بالفلسفة والطب تخرج من جامعة بادوفا • وكلاهما تشبعا بالفلسفة الرشدية (نسبة الى ابن رشد).

كذلك عاش العالم المفكر ايراسموس (١٤٦٦ ـ ١٥٣٦) الهولندي الذي نشر أفكار النهضة والاصلاح في شمالي أوربة •

ويلحق بهم الطبيب الاسباني ميخائيل سرفيتوس (١٥١١ ـ ١٥٥٣) الذي اطلع على ترجمة لاتينية لكتاب « شرح تشريح القانون » لابن النفيس وانتحل كشفه للدورة الدموية •

وغيرهم كثير تشعبت مبادئهم واتجاهاتهم • وكلهم هبت عليهم وعلى أساتذتهم قبلا نسمات الحضارة الاسلامية رخية منعشة موقظة •

* * *

نلاحظ في خاتمة هذا البحث الأمور الثلاثة الآتية :

آ ـ أخذ تيمور من بلاد الشام الى عاصمته سمرقند جيلا يكاد يكون كاملا من العلماء والمتخصصين في شتى الصنائع والفنون • وكذلك فعل العثمانيون بعد استيلائهم على مصر فأخذوا العلماء وأهل الصنائع فيها الى عاصمتهم الجديدة استانبول • وأخذ مثل ذينك الجيلين من دولة أو صقع يحكم على الصقع أو الدولة

بالتأخر والجمود حتى يستطيع الشعب أن يرمم نفسه ويلم شعثه ويجبر وهنه ويداوي جراحه بعد أمد طال أو قصر .

٢ ـ لقد نهكت غارات التتر والحملات الصليبية جسم الأمة ولكنها كانت من أسباب الاتصال العميق بين مستويين حيويين وحضارتين متفاوتتين . فأدى ذلك الى بث المعرفة ونقل الاختصاص وانتشار حرية الفكر والاقبال على العمل وعلى تحسين الحياة الفردية والاجتماعية في أوربة .

٣ ـ تبدو لنا الحضارة الاسلامية في ذلك العصر أي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين والخامس عشر والسادس عشر الميلاديين كالخضم المحيط قد صبّت فيه بعد طول جريان أنهار وروافد كثيرة جلبت مع مياهها المخصبة حمولا طيبة وغثاءً طافياً ، وكانت الشمس تجنح فوق ذلك المحيط الخضم نحو الغروب وتتركه يستنير بسنا النجوم .

ومن ذلك البحر اللجي الواسع السحيق الأغوار والمعتلج الأمواج انبجست ينابيع شتى متدفقة في العلوم والصنائع والاصلاح جرت في أراضٍ أُنُفٍ متفاوتة في أوربة تحت سنا فجر جديد ثم في ضوء شمس مشرقة ما زالت ماتعة حتى اليوم ولكنها آلت الى ما آلت اليه من اتجاه مادي صرف وتخبط في السيطرة والعنصرية . « وتلك الأيام نداولها بين الناس » (آل عمران ١٤٠) .

ومع ذلك فتبقى المعرفة الرشيدة السديدة فحوى الحياة الانسانية وجوهرها النافع ونسغها الناجع ونورها الساطع ، وتبقى الحكمة الالهية سيدة التوجيه في المجتمعات هاديةً سواء السبيل :

« فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » . (الرعد ١٧) .

* * *

عصر جلال الدين السيوطي والحياة العلمية فيه

د. محمد زهير البابا

ازدهرت العلوم بصورة عامة والطب والفلك بصورة خاصة في عصر الفاطميين • وكان من أهم آثارهم بناء جامع الأزهر ، الذي تحول الى جامعة كانت ولم تزل يؤمها طلاب العلم من مختلف أقطار العالمين العربي والاسلامي •

وخلال حكم الأيوبيين لمصر وبلاد الشام أنشأوا عدداً كبيراً من البيمارستانات والمدارس في القطرين الشقيقين • وقد تخرج في تلك المؤسسات عدد من الأطباء والصيادلة والكحالين والجرائحيين، انتشروا وذاع صيتهم ومؤلفاتهم في كثير من البلاد ، بالاضافة الى عدد كبير من العلماء والفقهاء والمؤرخين •

وفي عام ٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م قتل الملك طوران شاه ، ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكان آخر ملوك الأيوبيين، ولما اختلف الناس على من يبايعون توسطت شجرة الدر ، زوجة الملك الصالح بين الأمراء ، فبايعوها بالملك ، وبهذه الصورة أصبحت أول امرأة ملكت في الاسلام •

الا أن النزاع لم يلبث أن قام بينها وبين الأمراء المماليك، فاستقالت مرغمة. وبويع بعدها لعز الدين إيبك ، فلقب بالملك المعزّ ، فتزوجها وأفضت السلطة الى المماليك الأتراك ، الذين توارثوها من بعده •

كان الملك الصالح أيوب آخر الملوك الأيوبيين قد لجأ الى شراء المماليك ليكونوا سنداً له في الحكم داخل البلاد ، وليستعين بهم لصد الغزوات الخارجية •

★ استاذ باحث في التراث العلمي العربي •• عضو مجمع اللغة العربية بدمشق •

وكان أكثرهم يستقدم من بلاد الترك . وقد أطلق على أوائل من جلب من هؤلاء اسم المماليك البحرية ، ذلك لأن الملك الصالح أسكنهم في منازل شيّدت بجزيرة الروضة وسط النيل .

ولما كثر عدد هؤلاء المماليك وقويت شوكتهم ساد البلاد الفوضى والقلق في أول الأمر ، بسبب الحروب والثورات والنزاع على السلطة . ولكن المماليك الأتراك استطاعوا أن يوطدوا حكمهم ، خاصة بعد نجاحهم في رد غارات المغول في عين جالوت ، بقيادة السلطان قطز عام (٦٥٨ هـ ـ ١٢٦٠ م) ، كما استطاعوا تطهير بلاد الشام من بقايا الصليبين تحت قيادة السلطان الظاهر بيبرس .

ومن مشاهير السلاطين الأتراك المنصور قلاوون ، الذي كان محباً للانشاء والعمران . أمر ببناء بيمارستان ، في القاهرة ، يعد من أجمل وأوسع البيمارستانات في العالم الاسلامي ، وذلك عام (٦٨٣ هـ ـ ١٢٨٤ م) ، وألحق به مدرسة لطلاب العلم وداراً للأيتام .

لقد أكثر السلطان قلاوون من شراء المماليك الجراكسة ، وأنزلهم في برج القلعة بالقاهرة ، ليبعدهم عن الاتصال بسكان البلاد ، ومن هنا جاءت تسميتهم بالمماليك البرجية .

وكان هدف السلطان قلاوون من جلب المماليك الجدد هو أن يكوّن فرقة جديدة من المماليك يعتمد عليها ضد منافسيه من كبار مماليك الأتراك ، ولتكون سنداً له لدوام المُلك له في ذريته من بعده في مصر وبلاد الشام .

لذلك رأى أن تكون هذه الفرقة من جنس آخر غير الأجناس التي كانت تتألف منها مماليك مصر ، فأعرض عن شراء الأتراك والتتار والتركمان ، وأقبل على شراء المماليك الجراكسة ، الذين كانوا ينتمون الى بلاد الكرج (جورجيا) . ومما شجع السلطان المنصور قلاوون على شراء عدد كبير منهم ، تجاوز ثلاثة آلاف مملوك ، هو كثرة الغلمان الجركس في أسواق الرقيق ، بسبب تعرض بلادهم لغزوات المغول ، وبالتالي لانخفاض أثمانهم .

اتصف المماليك الجراكسة بجمال الصورة ، وقوة الجسد والشجاعة . وقد

خدموا أسرة قلاوون وأخلصوا لها ودافعوا عنها • وقد حرص السلطان قلاوون أن يحول دون اتصالهم بغيرهم من المماليك ،ومنعهم من النزول الى المدينة ليلا •

ونظراً للمعاملة الحسنة والميزة التي كانوا يعاملون بها ، من قبل الأسرة الحاكمة، فقد حلت روح التنافر والبغضاء بينهم وبين المماليك الأتراك . ولما ازداد عدد المماليك الجراكسة وقويت شوكتهم صار لهم رأي مسموع في انتخاب السلاطين ، لكنهم لم يتجرأوا على طلب السلطان لأنفسهم •

لقد بدأ الخلاف بين المماليك الأتراك والجراكسة في عهد السلطان خليل ، وانتشرت الاضطرابات بعد مقتله عام ٦٩٣ هـ • وبعد سكون الفتنة نزل المماليك الجراكسة من القلعة ونفي قسم منهم الى بلاد الشام •

الا أن الأمير برقوق ، وهو أحد المماليك الجراكسة ، استطاع بفضل ذكائه وطموحه أن يصل الى مرتبة أتابك العسكر ، أي القائد العام للجيش ، عام (٧٨٠ هـ/١٣٧٨ م) • وكان يحكم مصر في ذلك الوقت السلطان علاء الدين علي ، وهو أحد أحفاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وكان عمره لا يتجاوز الثامنة •

لقد كان باستطاعة الأمير برقوق أن يزيح هذا السلطان القاصر عن عرشه ويحل محله ، وخاصة بعد وفاة الأخير بعد ذلك بثلاث سنوات • الا أن عائلة قلاوون كان لها منزلة خاصة في نفوس الشعب المصري • ذلك لأن العصر الذي حكمت فيه كان يمثل عصر ازدهار اقتصادي وأمني وعلمي • ولا شك أن الفضل في ذلك يرجع الى السلطان المنصور قلاوون في ارساء هيبة الحكم ، واحاطة اسم أسرته بهالة من المجد ، لذلك احتفظت هذه الأسرة بمنصب السلطنة حتى أواخر القرن الثامن للهجرة •

لقد انتهز الأمير برقوق فرصة وجود سلطان قاصر على الحكم فعمل على اكتساب محبة الشعب وثقته ، فسعى لخفض المكوس والضرائب ، وسك نقوداً جديدة بدلا من النقود الزائفة ، كما سعى لتنصيب أنصاره ممن المماليك الجراكسة في الوظائف المرموقة • وقبيل وفاة السلطان علاء الدين جرى اجتماع حضره كبار الدولة ، فقام أحد أنصار الأمير برقوق وقال ان الوقت قد ضاق ، ونحن محتاجون

لسلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ، فأجمع الحضور على خلع السلطان الصغير وتنصيب الأمير برقوق، الذي تلقب بالملك الظاهر عام (٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م) وقد استمر حكم السلاطين الجراكسة حتى عام (٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م) • وتعاقب على عرش السلطة (٢٣) سلطاناً كانوا جميعاً من الجراكسة عدا اثنين يرجعان الى أصل يوناني وهما خشقدم وتمربغا • كان المماليك الجراكسة زعماء أو أمراء اقطاعيين أكثر منهم سلاطين • لذلك كان التناحر والتنافس والقتال بينهم قائماً •

وكثيراً ما كان الأتابك (قائد الجيش) يغتصب السلطة ، وخاصة اذا كان ابن السلطان المتوفى أو المغدور طفلا لا يقوى على حماية حقوقه • فيتولى الأتابك الوصاية عليه ، ثم لا يلبث أن يخلعه أو يسجنه أو يقتله ليأخذ مكانه •

وقد عانت مصر خلال حكمهم كثيراً من الويلات بسبب منازعاتهم المستمرة وصراعهم الدامي على تولي الحكم • يضاف الى ذلك تعسفهم في فرض الضرائب على الشعب واستيلائهم على أراضيه واحتكارهم لقوته أحياناً •

لقد أدخل المماليك الأتراك والجراكسة نظاماً اقطاعياً عسكرياً في مصر وبلاد الشام • فكانوا يتهافتون على مصادرة الأراضي الزراعية والأملاك الخاصة • لذلك لجأ أثرياء المصريين والسوريين الى نظام الوقف ، الذي يعتمد بالأصل على فعل الخير، كانشاء المساجد والبيمارستانات والمدارس والزوايا والخانقاهات • ووقفوا الأملاك والأراضي الزراعية ليصرف ريعها لصيانة تلك المنشآت ، ولدفع رواتب العلماء والفقهاء والأطباء، والقائمين على ادارتها وخدمتها • ولشراء ما يحتاجه المرضى من الفقراء وطلاب العلم من غذاء ودواء •

بقي المماليك في مصر وبلاد الشام يؤلفون طبقة ممتازة ، منفصلة عن بقية أفراد الشعب • وكانوا يختارون زوجاتهم وجواريهم من بنات جنسهم ، يشترونهن من النخاسين • وكان لا يحق لأبناء الشعب، مهما علت مرتبتهم ومكانتهم ، وبلغ غناهم شراء المماليك ، ومن خالف ذلك يتعرض للعقوبة • كما أن ركب الخيل كان حقاً لفرسان المماليك دون غيرهم ، حتى أن بعض القضاة والفقهاء ، بالرغم مما كانوا يتمتعون به من مكانة واحترام ، كانوا يتعرضون للاهانة ، ويجبرون على ترك ركوب الخيل ، والاكتفاء بركب الحمير أو البغال •

كان المماليك يشعرون بأنهم غرباء عن أهل البلاد • لذلك حرص أكثرهم على اظهار الاحترام تجاه العلماء والفقهاء وأصحاب الفرق الصوفية ، لأن ذلك يقربهم من قلوب عامة الشعب ، ويكسبهم ثقة واحترام البسطاء منهم •

لقد اعتنى سلاطين المماليك بصورة عامة بانتقاء مماليكهم ، بحيث يكونون أصحاء الأجسام ، سالمين من العلل والأمراض • كما اعتنوا بتعليمهم وتدريبهم ، والحفاظ على صحتهم ، وتدبير طعامهم وشرابهم • ولما كان هؤلاء المماليك ينتمون الى بلاد عديدة ، ويتكلمون لغات أو لهجات مختلفة ، ولهم عادات وتقاليد متوارثة ، لذلك كان يخصص لكل مجموعة عرقية بناء خاص أطلق عليه اسم الطباق • ويشرف على ادارة كل طباق عدد من الطواشين لتربية وتدريب صغار المماليك • كما كان بعض الفقهاء يترددون عليهم لتعليمهم القرآن الكريم ، والخط وأحكام الدين الاسلامي •

وكانت تصرف لصغار المماليك رواتب شهرية (جامكية) ، وذلك عند مغادرتهم الطباق للالتحاق بخدمة الأمير أو السلطان ، حين بلوغهم سن الرشد • وبعد اتقانهم فنون القتال ، وخدمتهم بالجيش ، وتقدمهم في السلك ، تمنح لهم الاقطاعات والعبيد والجواري ليعملوا في خدمتهم • وكان السكن والاقطاع يتناسبان مع رتبة ونفوذ المملوك •

□ الحياة العلمية في مصر وبلاد الشام خلال عصر المماليك :

لقد ازدادت أهمية مصر في العالم العربي ـ الاسلامي في عصر المماليك باعتبارها قلعة العروبة والاسلام • واستُدعي العلماء والفقهاء ، ورحِّب بهم ، عند مجيئهم لاجئين من الأقطار العربية والاسلامية، ليقوموا بنشر العلم والدين بين أفراد الشعب • وأصبحت المدن الكبرى في تلك الأقطار تضم مراكز علمية التقى فيها العلماء الوافدون بالعلماء المستوطنين وكان من مظاهر هذا النشاط العلمي بناء الكثير من المدارس والجوامع والمكتبات ودور الحديث والبيمارستانات والزوايا• وقد ازدادت أهمية مصر خاصة بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، وحرق المغول والتتر الكتب والمكتبات التي كانت تضم كنوز التراث العربي • وقد ساعدت الحروب الصليبية المتتالية في نشر الخراب ونهب خيرات البلاد في بلاد الشام بصورة خاصة •

لقد فر الى مصر جماعات كثيرة من علماء العراق والشام حاملين معهم العلم والكتب ، فلاقوا كل احترام وتشجيع من سلاطين المماليك ، كما قدم الى مصر

أيضاً كثير من علماء ووجهاء المغرب بقصد الحج ، أو فراراً من الاضطرابات التي حصلت في المغرب وبخاصة حينما انتقلت السلطة من يد المرابطين الى يد الموحدين، ويكفي أن نذكر ما قاله ابن خلدون في معرض حديثه عن عصر المماليك « واختص العالم بالأمصار الموفورة الحضارة ، ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر ، فهي أم العالم وإيوان الاسلام ، وينبوع العلم الضائع » لقد ورثت مصر الزعامة الدينية والسياسية والعلمية في العالمين العربي والاسلامي بعد سقوط بغداد على يد هولاكو في (١٠ شباط ١٢٥٨ م) ومقتل المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين، وبقيت كذلك حتى نهاية عصر المماليك .

لقد أعلن أمراء سورية بعد سقوط بغداد خضوعهم لهولاكو، لأنهم كانوا أعجز من أن يقفوا أمام جحافله . أما مماليك مصر فكانوا أول من وقف في وجه الغزاة ،وذلك حينما اكتسح المغول المدن السورية ووصلوا فلسطين ، فرد عليهم المماليك بهجوم قاموا به بقيادة قطز وبيبرس في ٣/٩/١٢٦٠ م وأنزلوا بهم الهزيمة في عين جالوت قرب مدينة الناصرة . ومما ساعد المماليك في هذا الانتصار انهماك هولاكو في حرب مع بركا خان ، رئيس القبائل الذهبية في بلاد القوقاز .

وبعد معركة عين جالوت قام القائد بيبرس بقتل السلطان قطز ، لأنه وعده بولاية حلب ثم أخلف وعده . لقد أظهر بيبرس بسالة نادرة في قتال المغول لذلك بايعه الأمراء سلطاناً عليهم . ولكي يدعم بيبرس سلطته استدعى الى القاهرة أحد أفراد الأسرة العباسية ، ونصبه خليفة على المسلمين ، تحت اسم المستنصر بالله . وبالرغم من أن هذه الخلافة كانت وهمية، اذ لم يكن لها بالواقع أي تأثير فعلي في ادارة الدولة ، من الناحيتين الدينية والسياسية، لكنها اعتبرت من الأمور التي دعمت سلطة المماليك في العالمين العربي والاسلامي ، حتى سقوطهم وسقوطها عام ١٥١٧ م . وذلك بعد معركة مرج دابق، التي حصلت بين القوات العثمانية بقيادة السلطان سليم الأول ، وقوات المماليك بقيادة قانصوه الغوري .

كان تحصيل العلوم، الدينية والدنيوية، هو الوسيلة الوحيدة التي يتمكن بواسطتها أبناء البلاد من الحصول على وظائف مرموقة في الدولة ، كالقضاء ، والافتاء ، ورئاسة الحسبة والبيمارستانات ، والتدريس والقاء خطب الجمع والأعياد في المساجد الكبرى والاشراف على أوقاف المسلمين ، بالاضافة الى ممارسة الطب ، وبيع الأدوية والعقاقير ، وغير

ذلك من المهن المرتبطة بأمر الدين والدنيا • وكانت أكثر هذه المهن تمارس في المدن الكبرى، أما أبناء الريف فكانوا محرومين من العلم والخدمات الصحية ، لذلك انتشر فيهم الجهل والمرض والفقر • وكانوا ينتهزون الفرص للفرار الى المدن هرباً من شظف العيش وظلم المماليك المسيطرين على أرضهم ورزقهم •

لقد أشار المقريزي وابن تغري بردي والعيني وابن أياس وغيرهم من المؤرخين المصريين الى حرص المماليك في مصر على التوسع والاحسان والصدقة طوال شهر رمضان • فقد اعتاد السلطان برقوق أن يذبح كل يوم من أيام رمضان خمساً وعشرين بقرة يتصدق بلحومها ،مع ما يُطبخ من الطعام ويوزع من آلاف الأرغفة من الخبز • والتي كانت توزع على أهل الزوايا والجوامع والخانقاهات والسجون • أما الفقراء المعدمون فكانت مطابخ السلطان في شهر رمضان مفتوحة لهم في وقت الافطار •

وكان بعض سلاطين المماليك يعتقون خلال شهر رمضان ثلاثين عبداً من الرقيق، بعدد أيام الشهر ، كما كانوا يصرفون لطلاب العلم والعلماء رواتب اضافية خلال شهر رمضان ، كل ذلك تكفيراً عن خطاياهم أو تظاهراً بالتقيد بأحكام الدين •

لقد حظي أصحاب العمائم في ظل الحكم المملوكي بقسط وافر من العطف ، أما بقية أفراد الشعب من تجار وعمال وفلاحين فلم يلاقوا إلا الذل والهوان ونهب الأرزاق • لذلك كثرت المجاعات وانتشرت الأوبئة وشاعت الفتن واختل الأمن بصورة عامة •

لقد اشترك سلاطين المماليك مع أهل الاحسان من المصريين في انشاء الزوايا والخوانق والربط • وكان لكل واحدة من هذه المنشآت مهمة تقوم بها ، فالزاوية بالأصل مسجد صغير أو دار يجتمع فيه أصحاب احدى الطرق، للصلاة والتدريس ولأداء شعائر الطريقة ، وقد وصف ابن بطوطة حياة سكان الزوايا باسهاب •

أما الخانقاه فهي كلمة فارسية تُجمع على خوانق أو خانقاهات • وهي تدل على البناء الذي كان يقطن فيه المتصوّفون ، تحت اشراف شيخهم الذين يخضعون لأوامره خضوعاً أعمى • والى جانب الخانقاه أو في داخله مسجد ومكتبة وحمام ومطبخ وخزانة للأشربة والأدوية •

أما الرباط فهو بناء يشبه القلعة ،كان يقطنه الجنود المدافعون عن الثغور ٠ وقد انتشرت بين الجنود المرابطين أفكار المتصوفين ، فصاروا يجمعون بين حياة المجاهدين والمتدينين ٠

عرف الشعب المصري التصوف زمن الحكم الفاطمي ، ولكنه كان تصوفاً مقصوراً على فئة محدودة من أصحاب العلم والدين ٠ أما في عصر المماليك فقد ازداد عدد طوائف المتصوفين ، كما ازداد عدد المريدين ٠ وكان لكل طائفة شيخها وشعارها وعلمها وزواياها وخانقاها ٠كما كان لها مقابر خاصة في أطراف القاهرة محاطة بالأسوار ٠ ومن أشهر هذه الطرق : الأحمدية ، المنسوبة الى الشيخ أحمد البدوي المدفون في طنطا ، وكان شعارها اللون الأحمر ٠ وهناك الطريقة الرفاعية ، التي تنسب الى أبي العباس أحمد الرفاعي ، وشعار أصحابها العمائم السوداء ٠٠٠

ان مبدأ التصوف مبني على التقشف في الملبس والمأكل ومباهج الحياة ٠ واشتق اسم التصوف من الصوف الذي كانت تصنع منه ملابس المتصوفين ٠ أما طعامهم فكان زهيداً وقليل التنوع ، وكان كثير منهم يعانون الصيام أكثر أيام السنة ٠ ولكل طريقة شيخ يأتمر أفرادها بأمره ، هو الذي يُلبس كل مريد جديد خرقة التصوف ٠

لقد ناصر كثير من سلاطين المماليك بمصر حركة التصوف ، وشاركوا الشعب في الاعتقاد بالصوفية والعطف على المتصوفين ٠ فالسلطان برقوق أنشأ لهم بين القصرين مدرسة ضمت كثيراً منهم ،وقرر لهم المرتبات ٠ حتى ان زوجته غلب عليها التصوف ، فاتبعت الطريقة الأحمدية فنسبت اليها ٠ وحينما توفيت غطي نعشها بخرقة مرقعة ، هي رمز الفقر والتصوف ، وسار أمام جنازتها حملة أعلام الطريقة ٠

استطاع سلاطين المماليك الجراكسة باستمالتهم لأصحاب الفرق الصوفية ، الذين يمثلون الطبقة الفقيرة الزاهدة بالطيبات، والراغبة عن الدنيا ، امتصاص النقمة التي تتولد عادة من وجود التباين الطبقي في المجتمع ، فانتشرت بذلك روح الكسل والتواكل ، والقبول بالأمر الواقع والايمان بالخوارق والمعجزات ٠

لقد كانت القاهرة حافلة بدور العلم والعلماء ٠ كما كانت تضم عدداً كبيراً من

المكتبات العامة والخاصة • وكانت أسواق الوراقين مكتظة بالكتب والكراريس المخطوطة • وهذا ما عوّض عن الخسارة الجسيمة التي أصيب بها التراث العلمي والأدبي بعد خراب ونهب بغداد وحلب ودمشق وغيرها من المدن •

لقد ذكر المقريزي في خططه أن سوق الكتبيين بدمشق قد احترقت عام ٦٨١ هـ، ومن جملة ما احترق فيها مكتبة لتاجر يدعى شمس الدين ابراهيم الجزري ، وكانت تحوي خمس عشرة ألف مجلد • وهذا يدل على أن دمشق كانت تحفل كالقاهرة بعدد كبير من العلماء ودور العلم ، كما كان يقصدها أيضاً الطلاب والعلماء من جميع الأقطار العربية والاسلامية •

كانت مجالس العلم والفقه والأدب تعقد في الجوامع ، كما كانت المناظرات تعقد بالقاهرة أحياناً في قصر السلطان وبتشجيع منه وحضوره •

أما العلوم الأساسية والتطبيقية فقد تأخرت خلال العصر المملوكي ، لقلة عدد الباحثين فيها ، وخاصة العلوم الطبية • ذلك لأن طرق تشخيص الأمراض لم تتقدم ، كما أن المواد الأولية المستعملة في المداواة ، وخاصة العقاقير المجلوبة من أقطار الشرق الأقصى ، أصبحت بعيدة المنال وغالية الثمن ، لصعوبة النقل وفقدان الأمن • لذلك اضطر الأطباء ، وكان أكثرهم من رجال الدين ، الى استعمال العقاقير المحلية ، والاعتماد على الكتب القديمة المؤلفة في الطب النبوي ، أو بعض الكتب والرسائل المجتزأة من الموسوعات الطبية العربية •

من المعلوم أن جميع أفراد الشعوب ، القديم منها والحديث ، حينما تنتشر بينهم الأمراض ، وتعم الأوبئة والمصائب الطبيعية ، يزداد لديهم الايمان والتسليم بالقدرة الالهية، حتى يبلغ الأمر الى التصوف والزهد •

لقد عانى الشعب المصري من حكم المماليك القساة الشيء الكثير كما توالت عليه سنوات عجاف وزلازل وطاعون ، فازداد عدد المرضى من الفقراء والمعدمين ، وكثرت الوفيات وخاصة بين أبناء الريف وفي أحياء القاهرة المكتظة بالسكان •

ونظراً لقلة عدد الأطباء وندرة الدواء ، وعدم نجاعته عند وجوده ، فقد أخذ الناس يتجهون الى العبادة ، والى زيارة أضرحة أصحاب الكرامات من الأولياء الصالحين • وكثر الرجال المتخصصين بكتابة الحُجب وقراءة التعاويذ ، وتبخير المنازل والسكان لطرد الشياطين •

في هذه البيئة ، المتأخرة علمياً وصحياً واقتصادياً ظهر العالم جلال الدين السيوطي •

كان الامام السيوطي عالماً موسوعياً، تطرق في مؤلفاته لمواضيع مختلفة، وكان سريع الكتابة غزير الانتاج • وقدأحصى مؤلفاته أحد تلاميذه، وهو الحافظ شمس الدين محمد الداوودي، فبلغت الخمسمائة، بين رسالة وكتاب وموسوعة، طبع منها ما يزيد على المائتين •

لمؤلفات السيوطي طابع خاص، اذاما قورنت بالمؤلفات العربية التي ظهرت قبل زمانه • ذلك لأن هذا العالم عاش في عصر يعتبره المؤرخون عصر انحطاط، ذلك لأنه لم يظهر فيه مؤلفات أصيلة •

ولكن حينما نطلع على العلوم التي درسها السيوطي، والكتب التي ألّف فيها، والمراجع الكثيرة التي اقتبس منها، نؤمن بأنه باحث متعمق وفذّ • ويعود اليه الفضل في حفظ واحياء كثير من مؤلفات من سبقه من العلماء •

لقد انصرف السيوطي بصورة خاصة للتأليف في علوم القرآن والحديث واللغة وتراجم العظماء • وانتشرت وراجت مؤلفاته أثناء حياته، فاكتسب بذلك شهرة كبيرة وثقة بالنفس •

وكان يُحبّ أن يُطلق عليه اسم امام القرن العاشر للهجرة، واسم مجدد الدعوة للاجتهاد، وهذا ما جلب اليه النقد والحسد •

لقد ظهر في عصر السيوطي كثير من أهل الكرامات، والمدّعين بأنهم رأوا الرسول (ﷺ) بالمنام واليقظة، ومنهم السيوطي • ولما ثار بعض العلماء عليه، لهذا الادعاء، ألف كتاباً عنوانه (نور الحلك في جواز رؤية النبي والملك) • وقد سار تلميذ له، يدعى محمد بن سالم الطبلاوي، على خطاه من بعده فأقبل الناس عليه واشتهر أمره •

★ ★ ★

☐ مراجع البحث :

١ ـ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمريزي •
٢ ـ النجوم الزاهرة : لابن تغري بردي •
٣ ـ بدائع الزهور : لابن أياس •
٤ ـ صبح الأعشى : للقلقشندي •
٥ ـ كتاب العبر : لابن خلدون •
٦ ـ الكواكب السائرة : لنجم الدين الغزي •
٧ ـ خطط الشام : لمحمد كرد علي •
٨ ـ المماليك : د• الباز الريني •
٩ ـ تاريخ المماليك : د• عادل زيتون •

أعلام التراث الإسلامي

جلال الدين السيوطي .. الإنسان

عبداللطيف أرناؤوط

العبقرية موهبة لا تخفى على الباحثين ،مهما توالت عليها المحن وعاكستها الظروف السيئة ، انها قطعة ماس تفرزها الطبيعة منتراب الأرض ، فتظل تتألق عبر العصور ، وفي كل مكان ، شاهدة ببريقها على ما خصها الله من سمات ومحاسن ٠

ويمكننا القول أن جلال الدين السيوطيهو أحد العباقرة الذين يزهى بهم تاريخنا العربي الاسلامي ، أصالة وتجديداً وسعة أفقوغزارة معرفة ٠ وما زال الدارسون له يحارون كيف تأتى لهذا العالم الجليل أنيترك لنا مجموعة من المؤلفات يبلغ عددها (٥٨٣) مؤلفاً ، بحسب تقدير صاحب كتاب« هداية العارفين » ، أو (٥٠٤) مؤلفاً ، وفق ما أورده حاجي خليفة في « كشف الظنون» ٠

ان العمر ليقصر عن بلوغ هذه الغاية الا اذا أمضى الانسان كل ثانية من حياته تحصيلا وتأليفاً ، وخصه الله دونالبشر بقدرة الاستيعاب ، وعمق الفهم ، ومعجزة الابداع ، والتفرغ الكامل للعلم٠

لقد ذكر السيوطي نسبه في سيرة حياته التي أوردها في كتابه «حسن المحاضرة» انه يدعى عبدالرحمن بن الكمال ،ويلقب بجلالالدين، ويكنى بأبي الفضل، وينسب الى مدينة « أسيوط » في مصر ،التي ولد فيها والده ، وتولى القضاء فيها قبل قدومه الى القاهرة ٠ وكلمة أسيوط تعريب لاسمها القبطي « سيوت » واليها ينتسب عدد من العلماء النابهين في تاريخمصر ، منهم الفيلسوف أفلاطين ٠

★ كاتب وباحث ومترجم ـ امين تحرير مجلة « التراث العربي » ٠

ولد جلال الدين السيوطي سنة ٨٤٩ هـ في أسرة علم ودين ، وكان والده يتقن علوماً كثيرة ، برع في الخطابة والانشاء والفقه ، وتتلمذ عليه الخليفة يعقوب بن المتوكل على الله ، كما نال حظوة لدى الخليفة المستكفي .

وقد تحدث السيوطي عن أخلاق والده فأشار الى أنه كان على جانب كبير من الورع ، والتحري في الأحكام ، وعزة النفس والصيانة . يغلب عليه حب الانفراد ، مواظباً على قراءة القرآن .

توفي والد السيوطي ولجلال الدين من العمر ست سنوات، وكان والده قد جهد في تحفيظه القرآن طفلا . ثم تولّى أمره بعد وفاة والده الشيخ كمال الدين ابن الهمام ، وكان صاحب علم وفضل ، غير أن رعايته للطفل لم تدم ، لأنه مات بعد خمس سنوات من وفاة الأب ، ولجلال الدين آنذاك من العمر احدى عشرة سنة. غير أن الشيخ كمالا استطاع أن يغرس في نفس تلميذه حب العلم والتحصيل .

تلقّى السيوطي علوم عصره المختلفة على عدد من الشيوخ أربوا على مائة وخمسين شيخاً ، منهم جلال الدين المحلي ، الفقيه المتكلم النحوي ، والبلقيني قاضي القضاة ، والفقيه المفسر المحدث ، وسيف الدين الحنفي ، والكافيجي ، والعز الحنبلي ، وشمس الدين المرزباني ، وسواهم ... وكان له شيوخ من النساء ، اللاتي بلغن الغاية في العلم والتبريز فيه ، منهن : آسية بنت جار الله المحدثة ، وكمالية بنت محمد الهاشمية المكية ، وأم هانىء بنت أبي الحسن الهرويني الكاتبة المحدثة ، وأم الفضل هاجر بنت محمد المقدسي المحدثة وغيرهن ، مما يدل على المكانة العلمية التي بلغتها المرأة العربية في ذلك العصر .

نال السيوطي من شيوخه اجازات عدة في تدريس العلوم المختلفة ، الا أنه لم ينقطع عن التحصيل طوال عمره ، فكان يعلّم ويتعلم ، وقد تتلمذ عليه عشرات من الأعلام ، منهم الشيخ عبدالقادر بن محمد الشاذلي ، ومحمد بن عبد الرحمن العلقمي ، وعلى بن محمد بن يخلف ، وشمس الدين محمد الداوودي .

* * *

كانت رحلات العلماء هي السبيل الى تحصيل المعرفة ، فجاب السيوطي في حياته جانباً كبيراً من العالم الاسلامي ، طالباً العلم ، فرحل داخل الديار المصرية وسافر

الى الشام واليمن والهند والمغرب وتكرور والحجاز وكان عصره عصر سعى العلماء فيه لجمع وحفظ التراث العربي بعد أن غزا المغول بغداد وأحرقوا وأغرقوا ما وجدوه في خزائن الكتب ، فظهرت الموسوعات في كل علم وفن ، وقابل ذلك نهضة فكرية في مصر زمن المماليك ، وبرز في هذا القرن أعلام منهم ابن حجر العسقلاني مؤلف « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة » ، والسخاوي مؤلف « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » ، فاكتسب السيوطي من هؤلاء نزعتهم الموسوعية ، ونحا نحوهم في التأليف ، الذي يقوم على جمع العلم ، أو اختصاره في رسائل مبسطة تقربه الى أذهان الناس .

توزعت حياة السيوطي في مستهل عمره بين التدريس والمناصب ، فدرّس الفقه في الجامع الشيخوني ، والحديث في الخانقاه الشيخونية ، وأسندت اليه مشيخة الخانقاه البيبرسية ، ثم جعله الخليفة المستكفي كبيراً للقضاة ، يولّي منهم مَنْ يشاء ، ويعزل مَنْ يشاء ، مما أثار الحسد في نفوسهم .

فلما تولّى السلطنة في مصر (طومان باي) ، ولم تكن علاقة السيوطي به حسنة ، تشجع صوفية الخانقاه التي كان يديرها السيوطي ، فثاروا عليه ، لأنه أراد أن يصلح أمور هذه المؤسسة ، بعد أن فسدت صوفيتها ، فامتلكت الأموال والعبيد ، واستغلت مخصصات الخانقاه ، التي كانت تصرف على الفقراء من طلاب العلم .

ولم يهادن السيوطي هؤلاء الفاسدين ، فشدد عليهم الخناق ، غير أن بعض حسّاده من القضاة آزروهم على مايبدو ، فشغب عليه الطلاب ، وضربوه ، وألقوه بثيابه في الماء ، وذلك في سنة ٩٠٦ هـ . فهجر التدريس والمناصب ، واعتزل الناس في بيته ، منقطعاً للعبادة والتأليف حتى وفاته . وقد ألف في ذلك كتابا دعاه : « التنفيس في ترك الفتيا والتدريس » .

لم تكن الواقعة بحد ذاتها سبباً لهذا التحول في حياته لولا شخصيته وطبعه ، فقد كان يضيق بالمناصب ويكره تقاليدها . وقد روي عنه أنه توجه الى السلطان (قايتباي) مرة ، وعلى رأسه طيلسان ، مما لا تسمح به تقاليد المثول بين يدي السلاطين ، بالاضافة الى ميله للتفرد والعزلة ، ونزاهة ضميره ، في

عصر شاع فيه الفساد، وامتد الى العلماء أنفُسَهم ، الذين كان همهم الطمع في أمور الدنيا ، يسخِّرون علمها لنيل مكاسبها .

كانت للسيوطي مواقف عنيفة ،وصراعات مع خصومه من العلماء ، من ذلك دفاعه عن ابن الفارض ، فاعتصب ضده من العلماء ، منهم برهان الدين البقاعي ، وقاضي القضاة محب الدين بن الشحنة ، فنادوا بتكفيره ، بسبب أبيات نظمها ابن الفارض ، وردت في تائيته الكبرى ، فألف السيوطي كتاباً يرد فيه على المعارضين سمَّاه : «قمع المعارض في الرد عن ابن الفارض» . كما دافع عن ابن عربي المتصوف الشهير ، في كتاب آخر عنوانه «تنبيه الغبي الى تبرئة ابن عربي» . وكتاباً ثالثاً في نصرة الغزالي ، عنوانه « درج المعالي في نصرة الغزالي على المنكر المتغالي» .

لقد أثارت المنزلة العالية التي نالها السيوطي في حياته ، وعلمه الواسع ، ومصنفاته في الرد على خصومه غضب هؤلاء الخصوم ، فحملوا عليه وشنعوا في اتهامه . ومنهم السخاوي المؤرخ ، وابن الكركي ، وابن العليف وأحمد بن محمد العسقلاني .

وكان السيوطي يرد عليهم برسائل يؤلفها مثل كتاب : « الكاوي على تاريخ السخاوي » ، مما أثر في نفسه وحياته ،وكان يتمثل بقول الشاعر :

ألم تعلم بأني صيرَ فيَّ ... أحكَّ الأصدقاء على محكّي
فمنهم بَهْرَجٌ لا خير فيه ... ومنهم من أجوّزه بشكي
ومنهم خالص الذهب المصفى ... بتزكيتي ومثلي مَنْ يزكّي

وقد ندم كثير من هؤلاء العلماء على مخاصمته ، بعد أن طبقت شهرة السيوطي الآفاق ، فاعتذروا له ، وأسفوا على ما رموه به ، فصفح عنهم بحلمه الكبير .

* * *

□ **وفاته :**

ذكر ابن إياس أن وفاة السيوطي كانت يوم الخميس ، التاسع عشر من جمادى الأولى سنة ٩١١ هـ ، وقيل يوم الجمعة التاسع عشر من جمادي الأولى ، وله من

العمر احدى وستون سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوماً ، وقد رثاه الشيخ عبد الباسط الحنفي بقصيدة قال فيها :

مات جلال الدين غوث الورى   مجتهدُ العصر إمام الوجود
وحافظ السنّة مُهدي الهدى   ومرشد الضالّ لنفع يعود
فيا عيون انهملي بعده   ويا قلوب انفطري بالوقود

ومشهده قائم الى اليوم شرقي باب القرافة المواجهة لمسجد السيدة عائشة بالقاهرة ٠

عاصر جلال الدين السيوطي من السلاطين المماليك الجراكسة اثني عشر سلطاناً ، فقد ولد في عصر الظاهر جقمق، ومات في عهد السلطان قانصوه الغوري ٠

* * *

□ مؤلفاته :

تناولت مؤلفات السيوطي عدة علوم ، برع في بعضها ، وبعضها ـ كما يعترف ـ لم يبلغ الغاية فيها ٠ فقد برع في الفقه والجدل والتصريف ، وكان دونها في الانشاء والترسل والفرائض ، ودونها في القراءات التي لم يأخذها عن شيخ ، ودونها في الطب ٠ أما علم الحساب ، فكان أعسر العلوم بالنسبة له ٠ ولتاليف السيوطي خصائص جعلت كتبه تروج في عصره وتطغى على ما أُلّف في بابها ٠ وهذه الخصائص هي التي حدت بالمعاصرين أيضاً أن يطبعوا عدداً وافراً ٠ ومن هذه الخصائص :

١ ـ الاجتهاد والاستقصاء :

فقد أوتي قدرة على تتبع العلم واستيعابه وتمثله والاحاطة به من مصادره المختلفة ٠ ويقول عن نفسه في ترجمته الذاتية :

« وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى ، أقول ذلك تحدثا بنعمة الله لا فخراً ، وأي شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها في الفخر ٠٠؟ وقد أزف الرحيل ، وبدأ المشيب ، وذهب أطيب العمر ، ولو شئت أن أكتب في كل

مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها : والموازنة بين اختلاف المذاهب لقدرت على ذلك ٠٠ » ٠

وفي هذه الاحاطة والشمول نزعة موسوعية وتتبع مضن للمراجع لا يقدر عليه الا العالم الصابر المتجلد ٠ على أن كدّه لم يكن منصباً على النقل فحسب ، بل كان مجتهداً يبذل جهده في طلب المقصود ٠

وللسيوطي كتاب عنوانه : « التنبيه بمن يبعثه الله على رأس كل مائة » ذكر فيه أسماء المجتهدين المجددين حتى عصره ٠

لقد ادعى السيوطي الاجتهاد ، وجرّت عليه دعوته كثيراً من المشكلات ، فقد أخذ عليه أنه لا يجيد علم المنطق ، والمجتهد يجب أن يكون ملماً بالمنطق ٠ ولكن السيوطي دافع عن نفسه وأثبت إلمامه بهذا العلم ، وان كان قد ذهب الى تحريم الاشتغال به ، ولخّص كتاب ابن تيمية الذي ينقض قواعد هذا العلم ٠

كان السيوطي أهلاً للاجتهاد ، اجتمعت فيه شروطه ، والتي لخصها في منظومته عن المجتهدين المجددين ٠ فقال :

والشرط في ذلك أن تمضي المئة	وهو على حياته بين الفئة
يُشار بالعلم الى مقامه	ويَنصُر السنّة في كلامه
وأن يكون جامعاً لكل فن	وأن يعمّ علمُه أهلَ الزمن
وأن يكون في حديث قد رُوي	من آل بيت المصطفى وهو قوي
وكونه فرداً وهو المشهور	قد نطق الحديث والجمهور

وذكر السيوطي في منظومته أنه يرجو أن يكون هو مجدد المئة التاسعة الهجرية ، غير أن الشيخ عبد المتعال الصعيدي في كتابه « المجددون في الاسلام » يستبعد أن يكون السيوطي مجدد القرن التاسع ، لعدم اشتغاله بالفلسفة والمنطق ، ولأن بضاعته في العلم بضاعة جمع واختصار ، فلم يأت بجديد يذكر ٠

والحق أن تجديد السيوطي يظهر أكثر في توجيهه تآليفه لتكون ملبيّة لحاجات الناس ، نافعة لهم ، ولذلك راعى فيها التنوع والشمول والتركيز ، فمنها ما هو عظيم القيمة ، ككتابة (الاتقان في علوم القرآن » و « المزهر في علوم اللغة » وهو فريد في بابه ٠

ومن مميزات أسلوبه في التأليف السلاسة وجمال العبارة وحسن العرض، والأمانة في النقل، فهو يردّ الأفكار والآراء الى مصدرها، والخبر الى اسناده •

٢ ــ ومن خصائص تأليفه تزويد القارىء بفوائد قد تفوت على كثير من الناس، واهتمامه بالطرائف والأمور الدقيقة، ومنهجه يقوم على احصاء الظواهر المعرفية، كاستقصائه المفردات الغريبة في القرآن الكريم، واستدراكه منها ما لم يرد قبله، واحصائه المفردات القرآنية التي جاءت بغير لغة الحجاز • ومنها على سبيل المثال: « سامدون » ومعناها « مغنون » بلغة أهل اليمن، « ولا وزر » ومعناها « لا حيل » بلغة أهل اليمن • وذلك كله في كتابه « غريب القرآن » •

ان استعراض مؤلفات السيوطي كلها كالغوص في بحر واسع، ذلك أنه لم يترك فناً الا كتب فيه، ولا علماً من علوم عصره الا طرقه، وسأكتفي بهذه الالمامة الوجيزة بالكلام عن بعض مؤلفاته:

آ ــ في علوم الدين:

١ً ــ الاتقان في علوم القرآن: حققه محمد أبو الفضل ابراهيم، وهو كما يقول الأستاذ عبد الحفيظ فرغلي: الحلقة الذهبية في سلسلة الدراسات القرآنية، أحسنها تأليفاً وتصنيفاً، وأكثرها استيعاباً وشمولاً، وقد جعله مقدمة لكتابه في التفسير المسمى « مجمع البحرين ومطلع البدرين » وطبع الكتاب مرات عدة في جهات متعددة • جمع المؤلف مادته من أكثر من مائتي كتاب من الكتب الجامعة، وتحدث فيه عن القرآن الكريم منبع العلوم، ثم تناول ثمانين موضوعاً حوله، وهي تكاد تكون ضعف موضوعات كتاب « البرهان » للزركشي الذي سبقه الى التأليف في هذا الباب، كما خصّ الجزء الرابع منه بالحديث عن إعجاز القرآن •

٢ً ــ جمع الجوامع أو الجامع الكبير: جمع فيه كل ما وصلت اليه يده من أحاديث الرسول ﷺ وسننه، وجعله في قسمين: الأول تضمن الأقوال مرتبة على حروف المعجم، والثاني الأفعال مرتبة على الأسانيد • ونظراً لضخامة هذا الجامع الكبير، فقد قام السيوطي باختصاره في كتاب سماه « الجامع الصغير » واختار فيه أصح الأحاديث وأكثرها ايجازاً •

٣ً ـ الاكليل في استنباط التنزيل :طبع في بيروت عام ١٩٨١ وحققه عبد القادر الكاتب • وتحدث فيه عن استنباطات العلوم من القرآن الكريم •

٤ً ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور : وهو مختصر لكتاب مطوّل جمع فيه أكثر من عشرة آلاف حديث من تفاسير النبي (ﷺ) والصحابة للقرآن الكريم •

٥ً ـ اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة : بيّن فيه ما أضافه الوضّاع الى أحاديث النبي (ﷺ) وقد طبع مرات عدة •

٦ً ـ مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة : دافع فيه عن سنة النبي (ﷺ) والطعن فيها ، ورأى فيه أن الصوفية المحققين محافظون على السنة ، وأورد أقوالاً لهم في ذلك • منها قول الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق الا على من اقتفى أثر رسول الله (ﷺ) •

٧ً ـ تفسير الجلالين •

٨ً ـ الأشباه والنظائر « في الفقه » •

ب ـ في التاريخ والتراجم :

١ً ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة : وهو كتاب ذكر فيه السيوطي الآيات التي وردت في القرآن الكريم ، والأحاديث الشريفة ، وفيها تنويه بفضل هذا البلد ، وما نزل به من الأنبياء ، وممن كان فيه من الصديقين والحكماء ، ثم ذكر عجائب مصر القديمة ، والفتح العربي لها ، والصحابة الذين دخلوها ، وأمراءها وملوكها وسلاطينها ، وآثارها الاسلامية ولطائفها ، وأورد ما قاله الشعراء في وصف محاسنها • فكان كتابه أشبه بدائرة معارف •

٢ً ـ تاريخ الصحابة •

٣ً ـ تاريخ الخلفاء •

٤ً ـ طبقات الحفاظ •

٥ً ـ طبقات المفسرين •

٦ً ـ طبقات الأصوليين •

٧ً ـ طبقات النحويين •

ج ـ في البلاغـة :

١ً ـ عقود الجمان في علم المعاني والبيان : (جمع الأبواب التي تشمل عليها هذه العلوم) .

٢ً ـ الافصاح .

٣ً ـ شرح تلخيص المفتاح .

٤ً ـ فتح الجليل للعبد الذليل : يتضمن مائة وعشرين نوعـاً من البديع وجدها السيوطي في آية واحدة هي قوله تعالى : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهـم من الظلمات الى النور .. » (سـورة البقرة ٢٥٧) .

د ـ في الأدب المنثور :

١ً ـ ورد الكلم وغرر الحكم : رسالة ضمنها نظراته وحكمه في الحياة .

٢ً ـ رشف الزلال عن السحر الحلال : المشهور بمقامات النساء وهو يتضمن عشرين مقامة ، تدور بين عشرين عالمـاً تزوج كل منهم ووصف أول ليلة قضاهـا مع زوجته مستخدماً توريات لطيفة . ومن هؤلاء العلماء المقرىء والمفسر والمحدّث والفقيه والأصولي والجولي واللغوي .. مظهراً براعتـه اللغوية ناقـداً عصـره ومجتمعه .

٣ً ـ الوسائل الى معرفة الأوائل :أخذه من كتاب العسـكري ، وزاد فيـه وأحسن ترتيبه ، وموضوعه يتناول الأوائل من كل باب ، كقولهم أول من خطب فلان ، وأول مـن لبس كذا ، .. وهـو كتاب مخطوط .

هـ ـ في الطـب :

ً ـ المنهج السويّ والمنهل الرديّ في الطب النبـوي : جمع فيـه الأحاديث الخاصة بالطب .

و ـ في الشـعر :

له مقطوعات من الشعر متفرقة ، وقصائد في الرثاء ومـدح شيوخه ، ولـه بديعية جميلة تسمى : نظم البديع في خير شفيع .

مطلعهـا :

من العقيق ومن تذكـار ذي سلم   براعة العـين في استهلالهـا بدم

ومختاراته الشعرية تشهد بحسن ذوقه الأدبي ٠

ز ـ في اللغـة وعلومهـا :

١ ـ المُزْهِر في علوم اللغة وأنواعها ، وهـو في جزأين يبحث أولهمـا في ألفاظ اللغة وأصلها وصحيحها ، ومتواترها ومرسلها ، وطـرق الأخذ ، ومعرفـة المصنوع والفصيح والضعيف والمنكر ٠٠٠ والمطرد والشاذ ، ويبحث الجزء الثاني في أوزان الكلام ، وأبنية الأفعال وضوابطها ، والنادر من الأبنية ٠

ويعدّ الكتاب مرجعاً في الدراسات الألسنية ، لا يضارعه الا مؤلفات ابن جني ونظرات الجاحظ ، ولم يسبق اليـه في منهجه سابق ٠

* * *

هذا هو جـلال الدين السيوطي صاحب القلم الفيّاض الذي يقول فيه تلميذه الداوودي : « وعاينت الشيخ وقد كتب في يوم واحد ثـلاث كراريس تحريـراً وتأليفاً ، وكان مع ذلك يُملي الحديث ،ويجيب عن المتعارض بأجوبة حسنة٠٠!»

ولا يسعنا في آخر المطاف الا أن نحني رؤوسنا إجلالاً للسيوطي ذلك العبقري المبدع ، والعالم العربي المسلم الذي نادراً ما تجود بمثله العصور ٠٠

دمشق : عبداللطيف أرناؤوط

□ مراجـع البحث :

١ ـ كشف الظنون لحاجي خليفة ٠
٢ ـ المجددون في الاسلام ـ عبد المتعال الصعيدي ٠
٣ ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي ٠
٤ ـ جلال الدين السيوطي منهجه وآراؤه الفكرية محمد جلا أبو الفتوح ٠
٥ ـ الحافظ جلال الدين السيوطي ـ عبد الحفيظ فرغلي القرني ٠
٦ ـ معجم الأدباء ـ لياقوت الحموي ٠

* * *

السيوطي علامة عصره

سعدي أبو جيب

علامة فذ ، ونابغة له عند أهل العلم مقعد صدق ، ولآثاره من الشهرة ، والذيوع في عصره ، وبعد عصره ، ما ليس لغيره من نوابغ العلماء • لأن فيها خلاصة ما جادت به قرائح عباقرة الاسلام، مع فكر محقق، وعقل حافظ عجيب..

☐ **الاسم والنسب :**

هو الامام الجليل ، شيخ الاسلام عبدالرحمن بن كمال الدين أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبي صلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيري السيوطي ••

☐ **لقبه :**

جلال الدين ، وبه اشتهر ••

☐ **كنيته :**

أبو الفضل •

جده الأعلى ينتسب الى محلة معروفة في شرق بغداد ، هي الخُضَيْرة •

وجده الأدنى هاجر الى أسيوط (أوسُيوط) المدينة العامرة في صعيد مصر ، وبها كانت ولادة ولده كمال الدين ، واليها انتسب السيوطي ، وبها عُرف ، وتفرّد من بين العلماء ، مع أنه من مواليد القاهرة ، ولم يزرها قط •

★ استاذ باحث •• له مؤلفات في الفقه والتاريخ الاسلامي ••

□ الأســرة :

كانت هذه الأسرة من وجوه الناس ، وسراتهم ثراء ، وتجارة ، الا الجد الأعلى ، فانه كان من « أهل الحقيقة » ، ومن « مشايخ الصوفية » ، ولم ينبغ فيهم واحد من أهل العلم غير والد السيوطي ، الذي ولد سنة (٨٠٦ هـ أو٨٠٧ هـ) ، وأخذ العلم عن علماء أسيوط ، ثم رحل الى القاهرة سـنة ٨٢٥ هـ ، وبهـا اسـتقر ٠

درس الفقه على قاضي القضاة محمـدعلي القاياتي، والحديث الشريف على الحافظ الكبير ابن حجر العسقلاني ، وولي القضاء ،وبلغ منزلة اجتماعية عالية ، حتى ان الخليفة العباسي المستكفي بالله كان يجله ، ويحترمه .ودرّس الفقه بالجامـع الشيخوني ، وكـان يخطب بجامع ابن طولون ، وله في فن البيان، والانشاء شهرة ٠

وكان علي حظ كبير من الدين، والورع،وعزة النفس ، مع ميل للعزلة ، والانفراد ٠ وكانت له مكتبة خاصة حافلة بنفائس الكتب،وقد ترك بعض المؤلفات في القراءات، والنحو، والصرف ، وغيرها ٠

أما الأم ، فكانت جركسية من أصل فارسي ، لم يُعلم من سيرتها الا أنها عمّرت حتى شهدت وفاة ولدها ، ودفنت الى جانبه ٠

□ النشأة الأولى :

فيهذا البيت الكريم ، وبين الكتب ، ولدجلال الديـن ، فكـان فرحـة أبيه العـالم ، والأديب وأمه الرؤوم ٠

ولم يكد يقوى على المشي حتى اصطحبهوالده الى حلقة الحـافظ ابن حجر ، ليكـون ذلك أول خطوة في طريق العلم ٠

وما ان بلغ الولد ربيعه السادس ، حتىفجـع بأبيـه (سنة ٨٥٥ هـ) ، فتولت أمـه رعايته ، فأخذت بيده الى صديق أبيه ، الفقيهالحنفي الكبير الكمـال بن الهمام ، ليتـولى تعليمه ، وتأديبه ٠ فقام بذلك خير قيام الىأن أتـاه اليقين سـنة ٨٦١ هـ ، وكان عمـر السيوطي احدى عشرة سنة ، أصاب خلالهـاالحظ الوفـير ٠

□ في مدارج العلم :

فقد حفظ القرآن الكريم ، وهو ابن ثمان ، وحفظ كتب التنبيه لأبي اسحق الشيرازي، وتهذيب الفروع للبغوي ، وروضة الطالبين ،والمنهاج للنووي ، وجميعها في الفقه الشافعي، ومنهاج الأصول للبيضاوي ، وعمدة الأحكامللحافظ المقدسي في الحديث الشريف ، وألفية ابن مالك في النحو ، وهو فتى ٠

ومن وقف على هذه الكتب أدرك قـوةالذاكرة الحافظة الواعيـة ، التي وهبهـا الله سبحانه لهذا الشاب ، وأدرك أيضاً ما ينعـم به من صبر على طلب العلم لا يمكن أن يكون من طبع المراهق ، ولا اليافع ، فمن أوتي ذلككان من نوابغ الرجال ٠

في سنة ٨٦٤ هـ اتجه السيوطي نحو كبار علماء عصره ، فامتحنوه فيما حفظ ، فأجاب ، وأجاد ، وتلك اجازة تخوله شرف الجلوس في حلق العلم ·

لازم السيوطي هؤلاء العلماء ملازمة جادة ، فما ترك واحداً منهم عنده شيء الا أخذ عنه ، حتى بلغ عدد شيوخه نحواً من مئة وخمسين · فاذا أضيف اليهم من أخذ عنه العلم بالاجازة ، لا بالتلقي ، بلغ الجميع أكثر من ستمئة شيخ · وهذا ما لم يعهد مثله لأحد من فحول أهل العلم ·

وكان أبرز هؤلاء العلماء ، وأعمقهم أثراً في شخصية السيوطي ثلاثة :

أولهم : الشيخ علم الدين صالح البلقيني (توفي ــ ٨٦٨ هـ) ، وقد لازمه السيوطي ملازمة تامة ، وتلقى اجازته بالتدريس ، والافتاء سنة ٨٦٧ هـ ·

بل ان هذا العلامة الكبير أحاط السيوطي بتكريم ما بعده تكريم ، وذلك حين حضر أول درس ألقاه في الجامع الشيخوني ، وهو في الثامنة عشرة من عمره ·

وأوسطهم : الامام تقي الدين أحمد بن محمد الشمني (ت ٨٧٢ هـ) ، أبرز شيوخه في في النحو والعربية ، وكثيراً ما كان يشهد للسيوطي بالتقدم ، والتفوق بالعلم ·

وآخرهم : العلامة محيي الدين الكافيجي (ت ٨٧٩ هـ) ، الذي لازمه أربعة عشر عاماً ، لم يلازم مثلها شيخاً سواه ، وكان صديقاً لأبيه ، وزميلاً في التدريس بالجامع الشيخوني ، وهو الذي أعان السيوطي على أن يأخذ مكان أبيه · وقال في حقه : ما كنت أعد الشيخ الكافيجي الا والداً لي بعد والدي ، لكثرة ما له علي من الشفقة والافادة ·

وكان آخر شيوخه موتاً الشيخ سيف الدين محمد بن محمد قطلوبغا الحنفي المتوفى سنة ٨٨١ هـ ·

كما تلقى السيوطي العلم عن عدد من النساء الفاضلات ، منهن أم هانىء بنت أبي قاسم الأنصاري ، وخديجة بنت أبي الحسن أخت جلال الدين بن الملقن ، وأم هانىء مريم بنت الشيخ نور الدين الهوريني ، والدة شيخه سيف الدين الحنفي ·

★ ★ ★

أما ساعات الدرس ، فحسبك أن تقرأ قوله : كنت أذهب من الفجر الى دروس البلقيني ، فأحضر مجلسه الى قرب العصر ، هكذا أيام الجمعة والسبت والاثنين والخميس. وكنت أحضر الأحد والثلاثاء عند الشيخ سيف الدين الحنفي ، بكرة · ومن بعد الظهر في هذين اليومين ، ويوم الأربعاء عند الشيخ الكافيجي » · وما بقي من الوقت ، لشيوخ آخرين ، وللحفظ ، والمطالعة ، ولحاجة الجسد ، فتأمل ! ·

★ ★ ★

وفي سنة ٨٦٩ هـ حج ، واجتمع بعدد من علماء الشام ، والحجاز ، فتلقى عنهم ٠ وفي السنة التالية طوّف في كبرى المدن المصرية ، وقابل علماءها ، فأخذ عنهم ، وأخذوا عنه ٠ وكان يكتب عن رحلاته ، وما لاقاه فيها ، ومن قابله من الرجال ٠

لقد ذكر الباحثون المعاصرون الذين ترجموا للسيوطي أنه رحل الى بلاد الشام ، والحجاز ، والهند ، والمغرب ، والتكرور(١)، واليمن ٠ واستند هؤلاء الى نص جاء في ترجمة السيوطي لنفسه في كتابه « حسن المحاضرة » :

« وشرعت في التصنيف في سنة ست وستين ٠ وبلغت مؤلفاتي الى الآن ثلاثمئة كتاب ، سوى ما غسلته ، ورجعت عنه ٠ وسافرت بحمد الله تعالى الى بلاد الشام ، والحجاز ، واليمن ، والهند ، والمغرب ، والتكرور ٠٠ »فظن هؤلاء أن التاء في (سافرت) هي تاء الفاعل ، ولذلك ادعوا أن السيوطي قام برحلات الى جميع تلك البلاد سوى بلاد الشام ، والحجاز في رحلة الحج ٠

وليس هذا بدقيق ، لأن التاء هي تاء التأنيث ، والفاعل عائد الى مؤلفات السيوطي التي انتشرت في هذه البلاد ٠ ويدل على ذلك أن السيوطي قد دوّن سيرته الذاتية بنعمة الله « بصورة موسعة » ، وبعد سنوات من « حسن المحاضرة » ولم يذكر تلك الرحلات ٠

كما ان جميع من عاصر السيوطي ، ممن ترجم له ، كالشعراني ، والشاذلي ، وابن اياس ، وهم من تلاميذه ، ومريديه ، وكذلك السخاوي ، ومن أخذ عن هؤلاء لم يذكروا شيئاً من ذلك ٠

* * *

المناصب :

سبعة عشر عاماً (٨٦٤ ـ ٨٨١ هـ) ، والسيوطي جاثٍ على الركب بين أيدي العلماء ، يصغي ، ويحفظ ، ويكتب ، فاذا أضيفت اليها السنوات التي أمضاها في ظل وصيه ، وراعيه الكمال بن الهمام أدركنا أبعاد الثقافة التي فاز بها ، والمكانة التي تبوأها بين أقرانه ، وهو بكل ذلك جدير ٠

وفي عام ٨٦٦ هـ تصدر لتدريس العربية بعد أن أجازه شيخه الشُمُنّي بذلك ٠
وفي سنة ٨٦٧ هـ تولى تدريس الفقه في المدرسة الشيخونية ، وهو المنصب الذي كان لأبيه من قبل ، وأضيف اليه تدريس الحديث الشريف ٠

وفي سنة ٨٧١ هـ كان له الافتاء العام ٠

وفي سنة ٨٧٢ هـ جلس لاملاء الحديث النبوي في جامع أحمد بن طولون ، بعد أن انقطع بوفاة الحافظ ابن حجر العسقلاني سنة ٨٥٢ هـ ٠

وفي سنة ٨٩١ هـ أصبح شيخ الخانقاه البيبرسية ، أكبر خوانق مصر ، وأغناها ، اضافة لمشيخة التصوف بتربة برقوق الناصري ٠

وفي سنة ٩٠٦ هـ صرفه السلطان طومان باي عنها ، بعد تمرد الصوفية عليه ، ثم عرضت عليه سنة ٩٠٩ هـ ، فأباها وكان هذا آخر عهده بالمناصب ٠

☐ مـن التلامـذة :

من دروسه الحافلة بطلبة العلم وعشاق المعرفة ، نبغ أعلام لهم ذكر وأي ذكر ، فيهم محدثون ، وفقهاء ، ولغويون ٠٠ من أشهرهم : محمد بن أحمد بن اياس ، مؤرخ مصر الشهير (توفي ٩٣٠ هـ) ٠

وعبد القادر بن محمد الشاذلي المصري، صاحب كتاب بهجة العابدين في ترجمة الحافظ جلال الدين ، وقد لازمه فترة طويلة ٠ (توفي ٩٣٥ هـ) ٠

والحافظ شمس الدين محمد بن يوسف الشامي ، صاحب كتاب « سبل الرشاد في سيرة خير العباد » المعروفة بالسيرة الشامية ٠ وهي أجمع وأنفع ما ألفه المتأخرون بالسيرة النبوية، وقد استقاها من ألف كتاب (توفي ٩٤٢ هـ) ٠

وشمس الدين محمد بن علي الداوودي، شيخ أهل الحديث في عصره ، أشهر تلامذة السيوطي ، وأكثرهم اتصالا به ، واعجابا ، وهو كاتب سيرته ، وناسخ مؤلفاته ٠ (توفي ٩٤٥ هـ) ٠

☐ مؤلفاتـه :

ومع عظيم قدر هؤلاء النوابغ من الطلبة ، فانهم لم يكونوا سبب خلود ذكر السيوطي، كما كانت مؤلفاته التي وجدت من الشهرة ، والذيوع في أيامه ، ما لم تفز به مؤلفات أي عالم آخر ، كما جعلت منه أحد كبار المؤلفين في التاريخ الاسلامي ٠

وانك لا تستطيع أن تكتب في أي جانب من جوانب المعرفة ، ولا سيما في التفسير ، والحديث ، والفقه ، والأصول ، والتاريخ ، واللغة ، الا وجدت نفسك مشدوداً الى مؤلَّف ، أو أكثر مما خطه قلم السيوطي المعطاء ٠

لقد كتب سنة ٩٠٤ هـ فهرساً بمؤلفاته، فبلغت ثمانية وعشرين وخمسمئة ، موزعة كما يلي :

ستة وثلاثون منهما في فن التفسير ، ومايتعلق به ٠

ثلاثة ومئتان في الأصول ، والعقائد ، والتصوف ٠

تسعة وستون في الأدب ، والنوادر ، والانشاء والشعر ٠

ثلاثة وستون في اللغة ، والنحو ، والصرف ٠

تسعة وعشرون في التاريخ ٠

تسعة في كتب جامعة لفنون عدة ٠

فاذا علمنا أنه عاش بعد ذلك سبع سنين هي أكثر ايامه انتاجاً ، أدركنا صعوبة حصـر كتبه ، وسبب الاختلاف في العدّ ، حتى ان من العلماء من جاوز بها التسعمئة عدداً ·

غير أن الأستاذ أحمد الشرقاوي إقبال ، في مؤلفه الخاص بكتب السيوطي ، ذكر أنهـا خمسة وعشرون وسبعمئة ، المطبوع منهـا أربعة ومئتان ، والمخطوط ثلاثة وسبعون ومئة، محفوظة في المكتبات العامة والخاصة ، أمـا الباقي فمجهول ، ولعل القابـل من الزمن يظهره ·

ولئن كان العديد من هذه الكتب قد جاءفي بضع ورقات ، أو تجزئة لبعض منها ، فان المجلد ، والمجلدات ·· وما تاريخ الخلفاء ، والأشباه والنظائر في أصـول الفقـه عنـد الشافعية ، والأشباه والنظائر في النحو ، والمزهر في علوم اللغة ، والجوامع في الحديث ، والـدر المنثـور في التفسـير ، عن أنظارنا ببعيد ··

★ ★ ★

□ منهجـه العلمـي :

للسيوطي في مؤلفاته ، ولا سيما الكبيرةمنها ، منهج علمي ثابت ، فهو يحدد الموضوع، أو ما يريد بحثه من المسائل ، والغاية منوراءذلك ، ويجمع المادة اللازمة ، فاذا كتب جاءت مقسمة ، مرتبة حافلة بأقوال أهل العلم في كل مسألة ، مع ذكر قائلها ، والمصدر الذي استقاه منه ، وهو متشدّد في ذلك ، حتى انه أفرد في « المزهر » فصلا بعنوان «عزو العلم الى قائله» وهو يعد ذلك من أمانة العلم، وبركته ·

وله في رسم هذا المنهج رسالة بعنوان « التعريف بآداب التأليف » ونصوص وردت في بعض مقاماته ، مثل : مقامة « الفارق بـين المصنف والسارق » ، ومقامة « طرز العمامة في التفرقة بين المقامة والقمامة » ، ومقامة : « الكاوي في تاريخ السخاوي » ، و « المقامـة اللؤلؤية في الاعتذار عن ترك الفتيـا والتدريس » ·

وهو في الكتابة بعيد عن الاستطراد ، متأثر بطريقة علماء الحديث بالجمع ، والنقل ، والاسناد ·

وربما تأثر بأصول الفقه أيضاً · فقـدألف كتابه : « الاقتراح في أصول النحو »وذكر أنه رتبه على أصول الفقـه ، في الأبـواب ،والفصول ، والعنوان الذي عنون به كلا منها·

★ ★ ★

وان كتب السيوطي خلو من أي تجديد ،أو ابداع فكري ، وهذا هو الأسلوب الغالب في مؤلفات علماء عصره · ومع ذلك ، فان هـذا الأسلوب كان قد حفظ لنا نقولاً من مؤلفات فقدت بسبب الغزو الهمجي الذي تعرّض لـهشرق العالم الاسلامي على يد جنكيز خـان ، وهولاكو ، وغربه على يد الاسبان ، عندمـاسقطت غرناطة آخر مدينة في الأندلس ، سنة ٨٩٧ هـ · وقد أحرق الكردينال زيمتسي نحوامن ثمانين ألف مجلد كانتفيمكتبتها العامرة ·

★ ★ ★

☐ الثقافــة :

هذه المؤلفات التي حوتها مكتبة السيوطي خير شاهد على تبحره في التفسير ، والحديث، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع •• وعلى أنه عالم بالأصول ، والتاريخ ، ومطلع على فنون المعرفة الأخرى ، وعلى أن له في الأدب ، والشعر مكاناً مقبولاً • ولذكر الأمثلة على ذلك موضع آخر •

أما علم المنطق فقط أعرض عن دراسته حين وقف على أقوال بعض الفقهاء بتحريم الاشتغال فيه ، وكتب سنة ٨٦٨ هـ رسالة بعنوان « القول المشرق في تحريم المنطق » •

غير أنه بعد عشرين سنة اضطر لدراسته، ومعرفة أصوله ، وقواعده ، لتكمل لديه أهلية الاجتهاد ، وكتب بذلك كتاب « صون المنطق والكلام » •

★ ★ ★

وتدلك هذه المؤلفات على عمق ثقافة السيوطي، وقدرته على جمعها ، واستحضارها في فكره •

فتراه في المقامات يتكلم على لسان المقرىء ، والمفسر، والمحدث،والفقيه ،والأصولي، والجدلي ، واللغوي ، والفلكي ، والطبيب ،والمنطقي ، والصوفي ، بمصطلحات كل من هذه العلوم والفنون • وربما أورد في المقامة الواحدة مصطلحات أكثر من علم وفن •• ويزين كل ذلك بما يحفظ من روائع الشعر ،وأقوال الحكماء ، والعلماء ، ويضع كل ذلك في محله اللائق •

ولو أن أحداً درس المقامات ، واستخرج ما فيها من مصطلحات ، لقدّم لنا ثروة علمية، وفنية ، قلما يظفر بمثلها عند أحد من العلماء ـ فيما أعلم ـ •

★ ★ ★

وتشير تلك المؤلفات الى أن تلك الثقافة كانت منظمة ، مرتبة ، لا اختلاط بين فروعها، ولا تداخل ••

فلو وقفت على الفن الذي يكتب فيه ،لحسبت أنه لا يتقن غيره •• وتلك خصيصة فذة ، ونادرة • حتى قال تلميذه الشاذلي في وصفه :

« انفرد بغزارة العلم ، وكثرة الحفظ ،وسعة الاطلاع ، واستحضار كل تصنيف صُنِّف بين عينيه • » •

وصدق فيما قال •

★ ★ ★

□ المكانــة :

تبوأ السيوطي في المجتمع مكانة رفيعـة ، لما يتمتع به من غزارة علم ، وسعة تأليف ، وعراقة محتد ·· ولم يكن في أهل العـلم في عصره من يدانيه في ذلك الا شيخ الاسلام زكريا الأنصاري ، لجلال قدره وعظيم علمه ، ولتقدمه في السن ، فقد ولد قبل السيوطي بربـع قـرن ·

وقد بدأت شهرة السيوطي بين العلمـاء ، والعامة على حد سواء سنة ٨٧٥ هـ حـين وقعت في القاهرة معركة فكريـة قامت حـول أبيـات من الشعـر لابن الفـارض وردت في قصيدته التائية المشهورة · وكان العلماء بين مهاجم يرمي ابن الفارض بالكفر والزندقـة لقوله بالحلول ، والاتحاد ، وبين مدافع يدعي له الولاية ··

وكان من الفريق الأول العلامة برهان الدين البقاعي ، وقاضي القضاة محب الدين ابن الشحنة ، وقاضـي القضـاة عز الديـن الحنبلي ، وثلة من أهل العلم ·

وأما الفريق الثـاني ، فيتزعمه الكـافيجي ، وقاسم الحنفي ، وبـدر الديـن بن الفرس ، وجمهرة من أهل العلم ··

وقامت بين الفريقين مناظرات ، وشطرت العامة قسمين ·· وكان السلطان قايتباي ذو النزعة الصوفية ، والأمراء ، والكثرة من الناس مع الفريق الثـاني ، وذلك لانتشـار التصوف ، وطرقه في المجتمع ، وتغلغله بـين طبقاتـه ·

وكان السيوطي مع الفـريق الثاني ، فكتب رسالة : « قمع المعارض في نصرة ابن الفارض » · وأتبعها بأخرى بعنوان : « البرق الوامض في شرح يائيـة ابن الفـارض » · وانتهى الى تمجيد ابن الفارض ، وجعله من كبار الأولياء · بل يذهب الى أنه من أعـلام الفقهاء · وهذا ما لم يقل به أحد أهل العلم · وقد ترك له هذا الموقف شهرة ، وأي شهرة ·

★ ★ ★

وكان السيوطي موضع احترام وتقـدير أصحاب السلطة ·· فالخليفة العباسي المتوكل على الله الذي تولى الخلافة بين عامي ٨٨٤ و٩٠٣ هـ كـان يبـالغ في احترامـه ، ويلقبـه « شيخ الاسلام والمسلمين » و « حافظ العصر » و « مجتهد الوقت » ·· وقد عهـد اليه سنة ٨٩٢ هـ بالنظر بأمور القضاة في جميع البلاد ، يقر الصالح منهم ، ويعزل سواه ·· ولكـن هذا العهد لم ينفذ ، لأن القضاة ثاروا عليه ، وعدوه افتئاتاً على السلطان ·

وأما سلاطين المماليك الذين عاصروهم ، فقد كان له في نفوسهم احترام شديد ، عـدا السلطان طومان باي ، الذي توعده بالقتل ، فاختفى في عهده حتى خلع · وكان الأمراء ، والأغنياء يقصدونه للزيارة ، ويتوددون لـه بالهدايا ، فيرفض ··

★ ★ ★

وأما العلماء ، فكان السيوطي عظيم المنزلة عند أكثرهم ، موفور الكرامة بينهم ، يلقبونه بالعلامة ، والحافظ ، والامام ، والمجتهد ٠

وأما العامة ، فلهم فيه اعتقاد كبير ، وهو عندهم من كبار الأولياء ، والعارفين ، ومن أهل الكشف ، والكرامات ، ويروون في ذلك القصص والأخبار ٠

★ ★ ★

وذاع اسمه في الآفاق ، ولا سيما بعد نصرته لابن الفارض ٠

وانتشرت كتبه في المغرب ، وبلاد الشام ، والحجاز ، وغيرها من أرجاء العالم الاسلامي..

وأصبح مقصداً يفد اليه طلبة العلم ، كما يفد اليه العامة لما ينعم به من ولاية ، وكرامة ٠ بل ان سلطان بلاد التكرور زاره لما قدم الى مصر سنة ٨٨٩ هـ ، وسأله أن يكلم الخليفة العباسي في أن يفوض اليه أمر بلاده ، لتكون ولايته صحيحة شرعاً ٠٠

وبلغ من شأن السيوطي أن رسالة منه أخمدت ثورة عظيمة قام بها أحد قواد ذلك السلطان ، فكتب للقائد يحذره من عقاب الله تعالى ، ويأمره بالطاعة ، ولزوم الجماعة فاستجاب ، واستسلم للسلطان ٠

وفي رسالة أخرى وجهها الى حكام بلاد التكرور ينصحهم ، ويدعوهم الى الحكم بشريعة الله تعالى ، ويخوفهم عذابه في الدنيا ، والآخرة(٢) ٠

وفي سنة ٨٩٨ هـ تلقى السيوطي رسالة من الشيخ شمس الدين اللمتوني من التكرور فيها مشكلات فقهية مختلفة ، أجابه برسالة منشورة في كتابه الحاوي ، تدل على مدى سعة علمه ، وفقهه ٠٠

★ ★ ★

□ المعاناة :

ارتقى السيوطي سلم المجد والشهرة مسرعاً ، يعينه على ذلك عراقة البيت ، وتفتح العبقرية المبكر ، مع اعتداد بالرأي ، وثقة بالنفس ٠٠ ومن كانت هذه حاله زادت متاعبه ، وكثر خصومه ٠

وقد عانى السيوطي من أهل السلطة ، والأقران ، والمتصوفة ، والعامة الشيء الكثير ٠

أما أهل السلطة في عصره :

فان السيوطي عاش في عهد ثلاثة عشر سلطاناً من دولة المماليك الجراكسة ، والتي امتدت من عام ٧٨٤ هـ ، حتى ٩٢٣ هـ ٠

فقد ولد بعد سبع سنين من حكم الظاهر سيف الدين جقمق ، ومات بعد أربع من حكم السلطان الأشرف قانصوه الغوري .

وكان السلطان قايتباي الذي حكم نحو من ثلاثين سنة (٨٧٢ ـ ٩٠١ هـ) أفضلهم، وأشجعهم ، وقد استطاع أن ينشر الأمن ، وأن يرد الهجمات الخارجية عن مصر ، والشام ، والحجاز .

وقد خلفه في الحكم ابنه الملك الناصر ، وكان صغير السن ، فاشتد النزاع بين أمراء المماليك .

وتعاقب على السلطنة من سنة ٩٠١ وحتى ٩٠٦ هـ خمسة سلاطين ، وصلوا الى الحكم عن طريق الدسائس ، والفتن ، وسفك الدماء ، وآخرهم طومان باي الذي لم يدم حكمه مئة يوم من سنة ٩٠٦ هـ ، لأن كلمة الأمراء ، والقضاة قد اتفقت على خلعه ، وتولية قانصوه الغوري الذي قتل في معركة مرج دابق على مقربة من حلب (سنة ٩٢٢ هـ ـ ١٥١٦ م) وهو يحاول صد العثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول عن الشام ومصر ، وبه انتهت دولة المماليك .

كان من عادة هؤلاء السلاطين أن يستقبلوا العلماء في القلعة ، ليكونوا زينة للبلاط .

وكان كثير من أهل العلم يأتون القلعة ، بسبب ارتباطهم بالدولة ، أو حباً للجاه ، أو خوفاً من الأذى والضر .

غير أن السيوطي كان لا يرغب بمثل هذه الزيارة ، ويرى أنها تخالف نهج السلف الصالح ، الذين كانوا يكتفون بالزيارات اليسيرة في عمرهم ، ولضرورة ملجئة .. ومع ذلك فقد قام بزيارة السلطان قايتباي يوم ولي مشيخة البيبرسية ، وزاره بعد أن شفي من مرضه .

كان السيوطي يرفض كل دعوة توجه اليه لزيارة السلطان ، مما أغضبه ، فعزم على قطع استحقاقه الشهري ، فلم يأبه له ، وكتب اليه « الرسالة السلطانية » ، وفيها جملة الأحاديث المروية في نهي العلماء عن التردد الى السلاطين ، فلما قرئت عليه ، قال : « لو أخذ لي عمتي ، وضربني بها بعد هذ لم أخاطبه » . غير أن أحد العلماء من حاشيته أوغر صدره عليه ، فعاد يتوعد بقتله ، فكان جواب السيوطي على ذلك عزل نفسه من جميع الوظائف التي للحكام عليها ولاية ، وكتب رسالة : « ما رواه الأساطين في عدم المجيء الى السلاطين » ، وكان ذلك سنة ٩٨٩ هـ .

وكان في زيارته للسلطان مثالا للعالم المعتز بشرف انتمائه للعلم ، لا ينحني ، ولا يماري ، ولا يداهن .

وفي سنة ٩٠١ هـ غضب عليه السلطان حين زاره، وعليه طَيْلَسان(٣) خلافاً للقواعد المرعية ، فلم يلتفت لذلك وكتب رسالة :« الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان » .

وامتنع بعد ذلك عن زيارته حتى مات ، وكان أقسى السلاطين على السيوطي السلطان العادل طومان باي الذي أمر بالقبض عليه ، فاختفى منه خوف القتل ، لأنه كان يتهدده ويتوعده ، ولم يظهر الا بعد خلعه .

★ ★ ★

وسبب موقف السيوطي من سلاطين المماليك يرجع فيما أرى الى موقفه الخاص من الخلافة العباسية .. فقد كان والده صديقاً للخليفة المستكفي ، وهو مثله في ذلك صديق الخليفة المتوكل . وله رسالة « رفع الباس عن بني العباس » ذكر فيها فضلهم . وفي كتابه « تاريخ الخلفاء » ذكر محاسن خلفائهم في مصر ، وتوسع في سيرتهم ، وحين ترجم للخليفتين مدح ، وأفاض .

وكان يعد وجود الخلفاء في مصر سبب عظمتها ، وقوتها وازدهارها .

وان قناعته تلك تجعل من الخليفة الامام الشرعي ، والحقيقي ، فيجب أن يكون الحكم ، والسلطة ، وأمور الدولة جيمعاً في قبضته . غير أن الواقع يؤكد أنه ليس له من كل ذلك الا الاسم . وأما عداه ، فبيد سلطان المماليك، وأعوانه غصباً من حقوق الخلافة .

يومىء الى ذلك عنوان ورد في كتاب حُسن المحاضرة، هو « ذكر سلاطين مصر الذين فوض اليهم خلفاء مصر العباسيون ، فاستبدوا بالأمر دونهم » .

وفي مقامة الرياحين حوار بين أنواع الورود ، وما احتج به كل منها على أنه الملك الفرد . ولما اشتدت الملاحاة ، اتفقت الكلمة على اختيار حكم عدل ، عالم بالأصول ، والفروع ، محيط بأغلب الفنون .

وبعد مرافعة طويلة أصدر حكمه ، فقال: « ليس أحد منكم مستحقاً عندي للملك » .

وفي هذه المقامة يظهر أن قضية الحكم ، ومن يصلح له هي القضية التي قامت من أجلها هذه المناظرة .

★ ★ ★

□ **خصومة الأقران :**

خاض السيوطي مع بعض علماء عصره معركة حامية الوطيس ، وكان أشدهم عليه وطأة الامام الجليل ، والمؤرخ الكبير عبدالرحمن السخاوي .

لقد عاب خصومه عليه كثرة المؤلفات ، وسرقة بعضها ، وادعاءه العريض ببلوغه مرتبة الاجتهاد ، وعيوباً ألصقت بشخصه .. وصاغوا حوارهم بلاذع القول .

فأما كثرة المؤلفات ، فقد نوقشت قبلا . وأما السرقة ، فمن المستبعد جداً أن يقترفها إمام جليل ، كالسيوطي ، وقد علمنا تشدده في أمانة النقل ، وعده ذلك من شرف العلم ، وبركته .

ومع ذلك ، فان التحقق من هذه التهمة كان في عصر السيوطي من الصعوبة بمكان • أما في عصرنا الحاضر ، فانه أيسر ما يكون، بعد أن أخرجت المطابع جلّ كتب التراث •

أما دعوى الاجتهاد ، فهي التي أذكت الحقد ، وأججت الحسد الذي قلما تخلو منه نفس ، الا من رحم ربك ، وقليل ما هم •

كان السيوطي يدعي أنه « المجتهد الأعظم » وقد بلغ به الأمر أن وصف نفسه « بالامام الذي يبعثه الله الى الأمة مرة في كل مئة عام» •وكانت هذه الدعوى عام ٨٨٨ هـ ، وهو في سن الأربعين •

جهر السيوطي بادعائه في عصر كان فيه أمثال شيخ الاسلام زكريا الأنصاري ، وقبيل كريم من الفقهاء الأعلام • ولقد استدل السيوطي على ذلك باحاطته بجميع العلوم،والفنون، وتفرده فيها ، وبذيوع مؤلفاته ، وشهرته في بلاد الاسلام، وهذا لم يكن لأحد من معاصريه•

أما دعوى الشهرة ، فتسلم له ، وأما الاحاطة بجميع العلوم ، والفنون ، وأنه أوحد زمانه ، فدعوى عريضة ، ولا شك ، والأعرض منها دعوى الاجتهاد المطلق •

وحسبك أن جعفراً الصادق (ر) ، وأباحنيفة ، ومالكاً ، والشافعي ، وأحمد ، والطبري ، والأوزاعي ، والثوري لم تخطر لهم هذه الدعوى على بال ، مع أن كلاً منهم بلقب المجتهد الأعظم جدير ، لاجماع الأمة على ذلك في كل العصور ، لا ينازع فيه الا معاند ، أو مكابر •• فأين السيوطي من هؤلاء ، وأمثالهم • ؟ • بل أين هو من طبقة المجتهدين في كل مذهب • ؟ •• ولئن سلمنا له مخالفته لفقهاء عصره في نحو خمسين مسألة ، كما قال ، فاننا لا ندري أمسبوق هو فيها أم مجتهد • ؟ • فان كانت الأخرى ، فان المجتهد الحق هو الذي يتحلى بملكة الاجتهاد ، والقدرة على اعطاء الحكم الشرعي في واقعة لم تحكم بنص ، ولا بقول لفقيه ، وذلك استناداً لقواعد الاستدلال المعروفة في أصول الفقه •

ومن وقف على ما نشر من آثار السيوطي الفقهية لا يقف الا على جودة التصنيف ، والاعتماد على أقوال العلماء ، ونقلها بدقة وأمانة ، ولا شيء سوى ذلك •

وعلى كل حال ، فالمسألة عندي تحتاج لمن يتصدى لبحثها ، والكشف عن موقع الامام السيوطي بين أهل الاجتهاد ، يفعل ذلك كرامة للعلم ، وانصافاً للرجل •

وأما ما يتعلق بشخصه ، فكلام هواء ،أعرضت عن ذكره ، لأن خصومه أقذعوا النقد ، فرد عليهم بمثله ، فاستوفى بذلك حقه ، وخير للقلم أن يرتفع عن نشره ، لأنه لا يسمن ، ولا يغني من جوع •

ومهما يكن ، فحسب هذه الخصومة أنها أخرجت ما كان مخبأ من كنوز العلم في ذاكرة المتخاصمين ، فأغنت الثقافة ، وانتفعت بها الأجيال •

* * *

وأما المتصوفة ، فقد كان لهم في عصر السيوطي صولة ، ودولة ، تأتيهم الأرزاق الوفيرة من أوقاف الخوانق(٤) التي أنشأها السلاطين ، والأمراء ، والأغنياء ·

وبعد أن تولى السيوطي مشيخة البيبرسية ، وجد الكثير منهم لا يستحق هذا الرزق، لأن شرط الواقف لا ينطبق عليهم ، وهو ما لايمكن له السكوت عنه ، لأنه الفقيه والعالم بأن شرط الواقف كنص الشارع ، كما هومقرر في كتب الفقه ·

وفي سنة ٩٠٣ هـ أمر السيوطي بحرمان من لا ينطبق عليه شرط الواقف من استحقاق، فتجمهر هؤلاء وهم كثير واندفعوا نحوه ، وجرّوه ، وألقوا به في البركة ، وكادوا يقتلونه ، فعزم على عزل نفسه ·

وقد انتهز خصومه ذلك ، واتهموه بالفساد ، والاستيلاء على حقوق الفقراء ، وفازوا بعزله ، وكان على رأس هؤلاء الأمير طومان باي وقد أصبح سنة ٩٠٦ هـ سلطاناً ، وكان منه ما كان ·

★ ★ ★

وأما العامة ، فقد صدمهم أول مرة حين أفتى بتحريم المنطق ، فتلقف أحد طلاب الشيخ البُلقيني هذه الفتوى ، ونشرها بين أهل العلم ، فألبوهم عليه · وقد ثار هؤلاء عليه ، وتناولوه بالسب والشتم ، وتوعدوه بالرجم والقتل ، حين أفتى بتحريم رواية الأحاديث المكذوبة ، ونشرها بين الناس · وكان هناك قاصّ مشهور ، له حلقة كبيرة ، يحدث العامة بتلك الأحاديث ، فأفتى بضربه وتعزيره ان لم يرجع عن ذلك · وألّف كتاباً في (تحذير الخواص وأكاذيب القصاص) ، فهاج الناس بسبب هذه الفتوى ، فما كان منه الا أن أقسم بأغلظ الأيمان على ترك الافتاء ، والتعليم ، والجهر بانكار المنكر ، وعدّ ما تعرض له عذراً يسوغ ذلك ، وعزم على اعتزال الناس أيضاً ··

★ ★ ★

□ شخصيته وأخلاقه :

كان السيوطي على حظ عظيم من الدين، والتقوى ، والورع ، شديد التمسك بالسنة المطهرة ، ونهج السلف الصالح ، قؤولاً للحق ، مجاهراً به ، لا يخشى به أحداً ··

وكان متصوفاً ، يؤمن بوجود القطب ، والأوتاد ، والنجباء ، والأبدال · ويتحدث عن المكاشفات ، والكرامات ، وقدرة الولي على طي المسافات ، والوجود في أكثر من بلد في وقت واحد ·

وكان يدافع عن أعلام الصوفية · فقد انتصر لابن الفارض ، ورد على من انتقد كتاب فصوص الحكم لابن عربي ، وكتب في ذلك رسالة : « تنبيه الغبي في تنزيه ابن عربي » · وله عن الشاذلية كتاب : « تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية » ·

وأما موقفه من متصوفة عصره ، فمرده لهذه الصوفية النقية التي يتصورها ، ويتمذهب بها ، أما أولئك ، فادعياء ، دخلاء ، اتخذوها مرقاة للشهرة ، وسببا للارتزاق على خلاف مقتضى الشرع ٠

وهو في صوفيته لم يكن يذهب الى القول بالحلول ، والاتحاد ، وله في ذلك رسالة ٠

كان السيوطي زاهداً بما في أيدي الناس ، فلا يأكل الا مما يستحقه من غلة الوقف المرصود لأهل العلم والمتصوفة ، وربما احتاج ، فباع بعض كتبه ، ليسد خلته ، وخصاصته. حتى قال تلميذه الشاذلي : « وبعت له كتباً كثيرة ، ولم يسأل مخلوقاً في شيء من أمور الدنيا ، ولم يُعلم بحاله أحداً » ٠

ولذلك كان عزوفاً عن هدايا الأمراء ، والأغنياء ٠ وقد أرسل له السلطان الغوري ألف دينار ، وعبداً ٠ فرد المال ، وأعتق العبد ، وجعله خادماً لقبر الرسول ﷺ ٠ وقد عرض عليه هذا السلطان مرتباً شهرياً ، ودعاه الى مشيخة مدرسته ، فلم يقبل شيئاً من ذلك ٠

وكان في خلقه سمحاً ، لين العريكة ، كريم النفيس ، محباً للخير ٠ وكان يرى أن الأصل في الانسان الدين ، والخير ، والصلاح ، حتى يثبت عنده بالتجربة الطويلة ، أو بالتواتر ، ما ينافي ذلك ٠ ولهذا لم يكن يقبل قالة السوء في حق أحد ٠ انها نظرة للناس تقطر طيبة ، ووداعة ٠

* * *

كان السيوطي معتداً بنفسه ، معجباً بها ، يعينه على ذلك ما يتمتع به من ذكاء ، وقوة حافظة ، وسرعة تذكر ، وجلد على طلب العلم ، وتحقيق مسائله ، مع احاطة بكل ما كتب حولها احاطة لم يبلغ أحد من معاصريه فيها شأوه ، مع قوة حجة ، واستدلال ، وسيولة قلم ، وذيوع صيت ، وشهرة طبقت الآفاق ، جعلت منه فرداً علماً مجلياً بين أهل العلم ٠٠

ولكن ذلك تجاوز حد المعقول ، ووصل الى الاستعلاء ، والاستهانة بكل من حوله ٠٠

انه يصور قدرته على قهر خصومه ، فيقول : « ان ثم من ينفخ أشداقه ، ويدعي مناظرتي ، وينكر علي دعوى الاجتهاد ، والتفرد بالعلم على رأس هذه المئة ، ويزعم أنه يعارضني ، ويستجيش علي بمن بمن لو اجتمع هو ، وهم في صعيد واحد ، ونفخت فيهم نفخة صاروا هباء منثوراً ٠٠ » ٠

وعندي أن هذه الخصلة ناشئة من فرط الحساسية بالذات ، وبالمواهب ٠ وهي سر كثرة الخصوم ، وشدة العداوة ٠ لأن الانسان قد يصبر على مصائب الدنيا ، ولا يصبر على من يستهين به ٠ فكيف اذا كان من أهل العلم ، والبيان ، وله في مجتمعه مقام ٠

وقد تعين هذه الخصلة صاحبها على الوقوف لحظة في وجه خصم ، أو اثنين ، أو ثلاثة ٠٠ ولكن لا يمكن أن تجعله يصمد فترة طويلة في مقارعة خصوم لهم قوة ، وتأثير في السلطان ، وفي العامة ٠٠

وعندئذ لا بد أن يلجأ الى العزلة ، والتفرد ، والانزواء بعيداً عن الناس ٠٠

وهذا ما انتهى اليه السيوطي في سنواته الأخيرة ٠ فقد ترك القاهرة ، واعتزل في بيته بالروضة(٥) ، وأغلق بابه دون طلبة العلم ، والفتوى ، وحتى الخواص من العلماء ، والأصدقاء ٠٠ بل أغلق نوافذ بيته المسترخي بين أحضان الطبيعة الغناء ، والنيل الخالد ٠٠ لا يعزيه في هذه الوحدة الا الكتاب ، والقلم ، وتلميذ يكتب له ، بعد أن رحلت عنه زوجته الى دار البقاء ، دون عقب ٠

وظل على هذه الحال سنين عددا ، الى أن وافاه الأجل بعد مرض ترك في ذراعه اليسرى ورماً دام سبعة أيام ٠ وكانت جنازته يوماً مشهوداً خرج فيه الطلبة ، والأحبة ، والخصوم جميعاً ، ودفن في قبر أبيه في مقبرة قوصون شرقي باب القرافة ، والمعروف اليوم ببوابة السيدة عائشة بشارع سيدي جلال ٠ وهو مزار مقصود يقف المرء عنده ليذكر من عاش للعلم من المهد الى اللحد ٠ ولئن بلي منه الجسد ، فان ما تركه من تراث في علوم الشريعة ، واللغة العربية المقدسة ، خالد لا يبلى مع الزمان ٠ وسيبقى السيوطي ترنيمة فخر على كل لسان ٠

دمشق : ٢٣ ذي القعدة ١٤١٢ هـ — المحامي

٢٤ أيـــار ١٩٩٢ م — سعدي أبو جيب

* * *

☐ **الحواشـي :**

١ ـ بلاد تنسب الى قبيل من السودان في اقصى جنوب المغرب ، واهلها اشبه الناس بالزنوج (معجم البلدان ـ لياقوت) ٠ وهي البلاد الممتدة من المحيط الاطلسي الى حدود وادي النيل ٠

٢ ـ وهي محفوظة بدار الكتب المصرية ـ مخطوطة رقم ٤١٦مجاميع ٠

٣ ـ الطيلسان : تعريب للكلمة الفارسية تالسان ، او تالشان ٠ ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف ، أو يحيط بالبدن ، خال من التفصيل والخياطة ٠ ويعرف بالعامية المصرية بالشال ٠ (المعجم الوسيط) ٠

٤ ـ جمع خانقاه ٠ وهي كلمة فارسية معناها بيت العبادة ٠وقد سماها السيوطي بيت الصوفية ٠

٥ ـ موقع بين القاهرة ، والجيزة ، عندها مقاص النيل ، وكانت تعرف في صدر الاسلام بالجزيرة ٠

* * *

مصـــادر ترجمة السيوطـــي

١ ـ ترجم السيوطي لنفسه مرتين :

الأولى : في كتاب : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ٠ وهي ترجمة وجيزة ٠ وقد حققه محمد أبو الفضل ابراهيم ـ مكتبة البابي الحلبي ـ ط ١ ـ ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م ٠

الثانية : في كتاب : التحدث بنعمة الله ٠ وقد فرغ من هذه الترجمة سنة ٨٩٦ هـ ٠ وهي ترجمة موسعة ، كتبها بعد سنوات من الترجمة الأولى ٠ وفيها حديث عن والده ، وشخصه ، ورحلاته ، ومسموعاته، ومؤلفاته، وخلافاته مع بعض معاصريه ، وتبحره في بعض العلوم ، وبلوغه رتبة الاجتهاد ٠
ولهذه السيرة الذاتية قيمة كبيرة في التعريف بشخصية السيوطي ، وعصره ٠
وقد حققتها اليزابث ماري سارتين، وتقدمت بها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة كمبرج طبعتها المطبعة العربية الحديثة في القاهرة سنة ١٩٧٢ م ٠

٢ ـ بهجة العابدين بترجمة حافظ العصر جلال الدين ٠ تاليف عبد القادر الشاذلي تلميذ السيوطي ، وناسخ كتبه ، وقد لازمه أربعين سنة ، واعتمد كتاب التحدث بنعمة الله ، وما شاهده من أحوال شيخه ٠
وفي معهد المخطوطات العربية في الكويت نسخة مصورة تحت رقم ١٦٧٠ ٠ وقد اطلعت على نسخة منها في مكتبة الأستاذ محمد الشريجي ٠

٣ ـ الضوء اللامع ـ للسخاوي ٠
٤ ـ بدائع الزهور ـ لابن اياس ٠
٥ ـ مفاكهة الخلان ـ لابن طولون ٠
٦ ـ الطبقات الصغرى ـ للشعراني ٠
٧ ـ البدر الطالع ـ للشوكاني ٠
٨ ـ الكواكب السارة ـ للغزي ٠
٩ ـ النور السافر ـ للعيد روسي ٠
١٠ـ شذرات الذهب ـ لا بن العماد ٠

١١ـ الحافظ جلال الدين السيوطي ـ عبد الحفيظ القرني ـ سلسلة أعلام العرب (١٣٧) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٩٠ ٠

١٢ـ جلال الدين السيوطي ـ بحوث القيت في الندوة التي أقامها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم بالاشتراك مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ٦ـ ١٠ آذار ١٩٧٦ ٠نشرتها الهيئة المصرية للكتابسنة١٩٧٨ ٠

١٣ـ جلال الدين السيوطي ـ محمد العروسي المطوي ـ تونس ـ نشر جمعية الاتحاد الثقافي لعمل قابس ٠

١٤ـ السيوطي النحوي ـ عدنان محمد سلمان ـ بغداد ـ دار الرسالة ـ الطبعة الأولى ١٩٦٦ ٠

١٥ـ مكتبة الجلال السيوطي ـ احمد الشرقاوي اقبال ـ الرباط ـ دار المغرب ـ ١٩٧٧ ٠

١٦ـ حسن المحاضرة ـ دراسة كتبها ابراهيم الابياري ـ نشرت في كتاب : تراث الانسانية ـ نشر المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر ٠

١٧ـ مقامات جلال الدين السيوطي ـ شرح وتحقيق سمير محمود الدروبي ـ بيروت ـ مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ـ ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م

وفي هذه المقامات جمل كثيرة تكشف عن سيرته الذاتية ، وموقفه من علماء عصره ، واهل الحكم والسلطان ، يحسن تلقفها ، للاحاطة بجوانب هذه الشخصية ٠ كما ترى في مقامة الدوران الفلكي ، ومقامة طرز العمامة ، ومقامة الفارق بين المصنف والسارق ، والمقامة المستنصرية ، والمقامة المزهرية ، والمقامة اللؤلؤية ، ومقامة الاستنصار بالواحد القهار ٠

اتّهام الجلال السُّيوطي

بين التبرئة والإدانة

د. عدنان درويش*

□ **تمهيد : حفول القرن التاسع للهجرة بالعلماء الموسوعيين :**

في سحر ليلة يوم الجمعة التاسع عشر من جمادى الأولى سنة احدى عشرة وتسعمئة للهجرة ، انطفأ وهج السراج ، وفارق القلمَ عشيرُه ، مات الامام العلامة جلال الدين السيوطي، فصوّحت روضة المقياس(١) بغياب من كان يتعهدها بالعلم ، ويعمرها بالاشتغال والاشغال والتصنيف ، وأمضى في ذلك من العمر ستة عقود تزيد سنتين الا قليلا ، كان العقد السادس الأخير منها في ريق المئة العاشرة، والعقود الخمسة قبله هي النصف الثاني من المئة التاسعة ، في هذه العقود الخمسة من حياة الحضارة الاسلامية في هذا القرن كانت نشأة الجلال ،واشتغاله وتكونه العلمي ، ثم اكتماله عالما موسوعياً مبدعاً .

كانت هذه المئة كسابقتها المئة الثامنة من أغنى حقب تاريخ الحضارة الاسلامية حفولا بالأعلام العظماء الذين بنوا وأثروا آثاراً جليلة في شتى ميادين المجتمع الانساني في حركته الحضارية والمعرفية ، برز ذلك في الحكم والادارة ، والعمران ، والعلوم ، والثقافة ، والآداب، والفنون ، والاقتصاد ، وغير ذلك من أفانين النشاط المعرفي الانساني . ونبغ في هذين القرنين ــ الثامن والتاسع ــ علماء أغنوا المكتبة العربية الاسلامية التي بدأ تكوينها منذ ارهاصات حركة التدوين في بدايات القرن الثاني للهجرة،وتسارع مسار هذه الحركة صعداً ونماء

(*) مدير احياء ونشر التراث العربي في وزارة الثقافة السورية .

في النصف الثاني من ذلك القرن وما تلاه من الزمان ، أغناها هؤلاء العلماء بما أنتجته قرائحهم من معارف الانسان من ناحية وبما وظفوه من التراث الفكري المكتوب الذي ورثوه من أسلافهم بالشرح، والاختيار، والاختصار، والجمع، والتحشية، والمضاهاة ، والمحاكاة ، والنقد وما الى ذلك من ناحية أخرى ، فزخرت المكتبة العربية بعشرات الآلاف من كتب تناولت كل شعب المعارف الانسانية في حضارة المسلمين من ناس المئتين الثامنة والتاسعة، اضطلع بذلك مفسرون ، وحفاظ ، ومحدثون ، وقراء ، وفقهاء ، ولغويون ، ونحاة ، ومؤرخون ، وجغرافيون ، ورياضيون ، وعلماء في العلوم التطبيقية من هندسة ، وهيئة ، وطب ، وفلك ، وما الى ذلك من هذه الفنون ٠

وثمة ظاهرة في هذين القرنين وهي تنامي الاتجاهات المعرفية الموسوعية عند كثير ممن نبغ في تلك الحقبة من الزمان ، رأينا كوكبة غفيرة منهم في المئة الثامنة ، كان من أعلامها : النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة : ٧٣٣ هـ[٢] ، العالم البحاثة الغزير العلم، صاحب كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) وهو أشبه بدائرة معارف لما وصل اليه العلم عند العرب في عصره ٠

والسبكي ، تقي الدين علي بن عبد الكافي بن علي الأنصاري ، المتوفى سنة : ٧٥٦ هـ[٣] ، أحد الحفاظ المناظرين ، صاحب التصانيف الكثيرة المتعددة الفنون ٠

والصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله المتوفى سنة: ٧٦٤ هـ[٤]، صاحب المؤلفات الكبيرة الحفيلة المتنوعة الفنون ٠

وبعدهم العلامة ابن خلدون ولي الدين عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي الاشبيلي الذي عاش معظم عمره في المئة الثامنة وتوفي سنة : ٨٠٨ هـ[٥] وترك للمكتبة العربية موسوعته التاريخية بمقدمتها الجليلة ٠

واستمرت ظاهرة الاتجاهات المعرفية الموسوعية تنداح اتساعا في المئة التاسعة، وتنافس من نبغ فيهامن العلماء في الاحاطة بفنون العلوم والمعارف ، ونبه من هؤلاء طبقة عالية ، جلّى فيها القلقشندي شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد المصري المتوفى سنة : ٨٢١هـ(٦) ، وهو الأديب المؤرخ البحاثة صاحب موسوعة (صبح الأعشى في كتابة الانشا) ٠

ثم جاراه في الحلبة بل تقدم عليه المقريزي تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المتوفى سنة: ٨٤٥هـ[٧] ، وهو المؤرخ المتعدد المواهب الموسوعي المعارف

صاحب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) و (السلوك في معرفة دول الملوك) وغيرهما من المصنفات الكثيرة في فنون متنوعة ·

وتلاه الحافظ ابن حجر شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني المتوفى سنة : ٨٥٢ هـ[٨] ، وهو من أئمة العلم والتاريخ والأدب والشعر ، وناهزت مصنفاته التي وضعها في فنون مختلفة (١٣٢) اثنين وثلاثين ومئة كتاب ·

وابن عربشاه شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الدمشقي المتوفى سنة : ٨٥٤ هـ[٩] ، المؤرخ الرحالة الأديب المتقن للغات العربية والفارسية والتركية وصاحب التصانيف الكثيرة ·

وابن تغري بردي جمال الدين يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري المصري المتوفى سنة : ٨٧٤ هـ[١٠] وهو المؤرخ البحاثة الأديب صاحب كتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) و (المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي) وغيرهما من الكتب الحافلة الضخام في فنون شتى ·

والكافيجي ، محيي الدين محمد بن سليمان بن سعد الرومي المصري ، المتوفى سنة : ٨٧٩ هـ[١١] ، شيخ جلال الدين السيوطي ومن كبار العلماء بالمعقولات والنحو ، ومن المؤرخين وصاحب التصانيف المتنوعة الفنون ·

والنكشاري محيي الدين محمد بن إبراهيم بن حسن ، الرومي الحنفي المتوفى سنة : ٩٠١ هـ[١٢] ، الامام العالم بالعلوم الشرعية والعقلية والعربية والماهر في علوم الرياضيات ونحوها من معارف أهل عصره ·

والسخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد المصري المتوفى سنة : ٩٠٢ هـ[١٣] ، رصيف الجلال السيوطي ، الحافظ الحجة ، المؤرخ ، الأديب ، المحدث ، المفسر ، صاحب التصانيف الكثيرة التي من أشهرها كتابه الحفيل (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) وغيره من الكتب المتنوعة الفنون ·

ولطفي التوقاتي لطف الله بن حسن الرومي المتوفى سنة : ٩٠٤ هـ[١٤] ،وهو المؤلف الموسوعي صاحب كتاب (المطالب الالهية) وكتاب (مراتب الموجودات) وغيرهما من المؤلفات الموسوعية ·

وغير من ذكرنا كثيرون يأتون طبقة ثانية في هذا الفن الموسوعي •

أخذ هؤلاء وأولئك في الأخذ واستيعاب العلوم والمعارف والثقافات التي أفرزتها الحضارة الاسلامية الموروثة ، ثم تمثلوا ما أفرزه عصرهم وأطرهم الاجتماعية والحياتية من المعطيات الحضارية في مختلف فروع المعارف الانسانية وشعبها من علوم وثقافات وألوان حياتية وعلاقات انسانية ، وراحوا بعد ذلك يبدعون ويؤلفون من تلك المواريث والشعب المعرفية انتاجاً معرفياً ملوناً بخصوصيات مجتمعاتهم بأطره العلمية والثقافية من ناحية ، وبخصوصيتهم هم باعتبارهم أناسي مبدعين من ناحية أخرى• فأورثونا بذلك المجلدات الضخمة الحفيلة بأفانين المعارف الانسانية التي أفرزتها الحضارة الاسلامية منذ الشروع بحركة التدوين فيها حتى عصرهم •

☐ **السيوطي عالما ومؤلفا موسوعيا :**

في هذا الوسط ذي المعارف المتعددة الألوان ، والشعب التي انتظمت في عصر السيوطي ، نشأ هذا العلامة المبدع جلال الدين ، واستقامت له في فترة تكونه العلمي أسباب التلقي والأخذ من أفانين تلك المعارف المبتدعة منها والموروثة ، حتى اذا ما آنَسَ في نفسه القدرة على العطاء ، وايناع ملكة التأليف واستقامة أسبابها دلف الى حلبة العلماء الموسوعيين يجاريهم بادىء بدء حَبْواً حين كان في السنة السابعة عشرة من عمره ، يقول(١٥):

« وقد الفت في هذه السنة ــ [اي سنة : ٨٦٦ هـ] ــ فكان أول شيء ألفته (شرح الاستعاذة والبسملة) وأوقفت عليه شيخنا شيخ الاسلام علم الدين البلقيني ، فكتب عليه تقريظاً » •

وهكذا راض السيوطي قلمه بعدد من الكتيبات والرسائل ، ثم أجراه فجرى ولم يشمس ، حتى اذا كان عام واحد وتسعين وثمانمئة ، تنكب الحياة العامة واعتزل شؤونها اثر حادثة عزله(١٦) من مشيخة المدرسة البيبرسية(١٧) ، وآثر مسكنه في روضة المقياس حيث انصرف الى اشغال المريدين وتاليف الكتب والرد على المسائل ، فكتب أكثر مؤلفاته التي ناهزت بضع مئات في عقدين من الزمان انتهيا بوفاته عام أحد عشر وتسعمئة •

لم يؤثر السيوطي الانصراف الى الاشغال والتصنيف على المشاركة فيما يهتم به أصناؤه من التداريس والمشيخات والوظائف في قضاء أو نحو ذلك الا بعد أن استقامت له آلة البحث وتوفرت لديه أداة التأليف ، واكتملت له البراعة والحذق في علوم شتى كثيرة صنفها هو نفسه من حيث تبحره فيها واتقانه لها أو معرفته بها فقال[١٨] :

« رزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو والمعاني والبيان والبديع » • وقال :

« والذي أعتقده أن الذي وصلت اليه من هذه العلوم الستة سوى الفقه ، والنقول التي اطلعت عليها وفيها ، لم يصل اليه ولا وقف عليه أحد من أشياخي فضلا عمن دونهم » •

وقال : « ودون هذه السبعة في المعرفة : أصول الفقه ، والجدل ، والصرف •

ودونها : الانشاء ، والترسل ، والفرائض •

ودونها : القراءات ، ولم آخذها من شيخ •

ودونها : الطب •

وأما الحساب : فأعسر شيء علي وأبعده من ذهني » •

وراح يطلق قلمه للتأليف والكتابة في هذه الفنون كلها ، وفي غيرها مما يعرض في خاطره من موضوعات حملتها أسفار المكتبة العربية الاسلامية واطلع عليها أو قرأها ، كما يسجل كل ما يكتبه على المسائل والفتاوى مما يعرض عليه، يتناول ذلك وهو يملك الثقة كلها بغنى ما استقام له من أفانين المعارف في ذلك العصر •

بل أكثر من ذلك فقد وقر في نفسه ورآه ثابتاً في خلده أنه بلغ مرتبة المجتهدين من الأئمة ، كما صرح بذلك ، ووضع نفسه في ثبت المجتهدين في كتابه (حسن المحاضرة) في الفصل الذي أفرده للأئمة المجتهدين في الديار المصرية ، بل تجاوز هذا الى أنه كان يتطلع الى أن يكون هو المبعوث على رأس المئة التاسعة ليجدد للأمة أمر دينها ، يقول :

« ومن اللطائف أن شرط المبعوثين على رؤوس القرون مصريون ، عمر بن عبد العزيز في الأولى ، والشافعي في الثانية ... وابن دقيق العيد[١٩] في السابعة ، والبلقيني[٢٠] في الثامنة ، وعسى أن يكون المبعوث على رأس المئة التاسعة من أهل مصر » .

وبلغ هذا التطلع عنده درجة القناعة بأنه هو المبعوث على رأس المئة التاسعة ، يقول في رسالته (فيمن يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة) :

« إني ترجيت من نعم الله وفضله كما ترجى الغزالي لنفسه أني المبعوث على هذه المئة التاسعة لانفرادي عليها بالتبحر في أنواع العلوم »[٢١] .

ويقول في موضع آخر إنه نظم أرجوزة سماها : (تحفة المهتدين بأسماء المجتهدين) ختمها بهذين البيتين :

« وهذه تاسعة المئين قد أتت ولا يخلف ما الهادي وعد
وقد رجوت أنني المجدد فيها ففضل الله ليس يجحد »

ووضع رسالة : (الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف) قال فيها :

« فان ثم من ينفخ أشداقه ويدعي مناظرتي ، وينكر علي دعوى الاجتهاد والتفرد بالعلم على رأس هذه المئة ، ويزعم أنه يعارضني ويستجيش علي بمن لو اجتمع هو وهم في صعيد واحد ونفخت عليهم نفخة واحدة صاروا هباءً منثورا »[٢٢] .

كان أمر الاجتهاد عند السيوطي وبعثه على رأس المئة التاسعة مجدداً للأمة دينها خاطرة باديء ذي بدء ، ثم أصبح رجاء ، ثم ما عتم أن استحال اعتقاداً ملك عليه جوانب نفسه ، فذهب به مذهب الدعوى العريضة بالاجتهاد والابداع ، والاعتزاز بنفسه ، واعتداده بما يؤلف ويكتب ، وتجرئه على التصنيف في كل فن ، ثم التباهي والتفاخر في مقدمات بعض كتبه بأنه مخترع هذا العلم ، ومبتدع ذاك ، وأنه لم يسبقه أحد الى كذا وكذا . ثم تجاوز ذلك الى التعاظم والتعالي على ذوي الفضل من السلف وأولي العلم والحفظ من الأقران .

☐ اتهامات السخاوي للسيوطي وأسبابها :

وهكذا تجتمع الأسباب لاحفاظ جماعة من معاصريه أولي الفضل والعلم ، وتُشفَع بشيء مما يقع بين الأقران من التحاسد والتنافس • ففارقه نفر منهم ، وانفض من حوله جماعة كانوا من أصدقائه ومحبيه ، وراحوا يسفهون دعواه ، ويتتبعون سقطاته ، ويرصدون أخطاءه وهفواته ، وجاء في مقدمتهم رصيفه الشمس السخاوي ، فاشتد عليه في النكير ، وشن عليه الغارة ، وغلا في حطه عليه ، بدا كل ذلك في ترجمة السيوطي في (الضوء اللامع) حيث بسط فيه لسانه بالقول الجارح ، فقال منكراً عليه دعواه بلوغ مرتبة الاجتهاد وتبجحه وتنقصه ذوي الفضل والعلم :

« وأطلق لسانه وقلمه في شيوخه فمن فوقهم ، بحيث قال عن القاضي العضد[٢٣]:

انه لا يكون طعنة في نعل ابن الصلاح[٢٤]، وعزّرَ على ذلك من بعض نواب الحنابلة بحضرة قاضيهم ، ونقص الشريف الجرجاني ، والرضي في النحو بما لم يُبْدِ مستنداً فيه مقبولا ، بحيث انه أظهر لبعض الغرباء الرجوع عنه[٢٥] » •

وضرب السخاوي لذلك مثلا حواراً جرى بين السيوطي وبين من حاجّه في ذلك ، وكيف أسقط في يده بعد أن أفحمه ذاك بقوة الحجة[٢٦] • وقال السخاوي :

« وقد قام عليه الناس كافة لما ادعى الاجتهاد ، وصنف هو (اللفظ الجوهري في رد خباط الجوجري) و (الكر في خباط عبد البر) ••• » •

ومضى السخاوي في ايراد الأمثلة على ذلك ، ثم على تعاليه وتعاظمه وسوء تصرفه في معاملة أقرانه حتى أصدقائه المقربين من ذوي الفضل ، يقول :

« وكذا راسل الكمال ابن أبي شريف وملا علي الكرماني بما لا يليق ، وأرسل اليه الخطيب بولده للروضة ليعرض عليه ، فرده معللا ذلك بأنه لا يستكمل أباه للوصف بكذا وكذا وكتابة دون هذا لا ترضيه » •

وقال السخاوي في موضع آخر :

« وفارقه المحيوي ابن مغيزل لما رأى منه الجفاء الزائد بعد كونه القائم بالتنويه به ، وذكر عنه من الحقد والأوصاف والتعاظم ما يصدقه فيه الحال •

ومن ذلك أنه توسل عند الامام البرهاني الكركي في تعيينه لحجة كانت تحت نظره، فأجابه وزاده من عنده ضعف الأصل ،وحضر اليه مع العلم سليمان الخليفتي لقبض ذلك، فما قال له : جزيت خيراً ، ولا أبدى كلمة مؤذنة بشكره ·· »

ومضى السخاوي يضرب الأمثال على سلوكه في التعالي والتعاظم ، ودعواه بأنه استقامت له أسباب الاجتهاد وآلاته، وبذلك فهو قادر على كتابة الأجوبة على مسائل العلماء على طريقة الاجتهاد ، وأن لديه القدرة الخارقة على التأليف والكتابة والسرعة فيهما ، وايراد الأدلة من نقل وقياس ومقارنة لآراء المذاهب ونحو ذلك ، قال السخاوي ينقل قول السيوطي :

« وقد كملت عندي آلات الاجتهاد بحمدالله · الى أن قال : ولو شئت أن أكتب في كل مسألة تصنيفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها والمقارنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك · وقال : ان العلماء الموجودين يرتبون له من الأسئلة ألوفاً فيكتب عليها أجوبة على طريقة الاجتهاد ، وأنه يرتب لهم من الأسئلة بعدد العشر فلا ينهضون » ·

ويمضي السخاوي قائلا :

« وبالجملة فهو سريع الكتابة ، لم أزل أعرفه بالهوس ومزيد الترفع ·· قال : انه عمل (النفحة المسكية والتحفة المكية) وهو بمكة على نمط (عنوان الشرف) لابن المقرىء في يوم واحد · وأنه عمل (ألفية في الحديث) فائقة (ألفية العراقي) الى غير ذلك » ·

فسلوك السيوطي في المزيد من الترفع والتعاظم التمس فيه السخاوي مسوغاً للغلو في اتهاماته بل في الحط عليه ، حتى بلغ في ذلك مبلغ اشاعة الارتياب بصدق أقواله عن قراءته ، وأخذه ، وسماعه ،واجازاته من حفاظ العصر وشيوخه ، يقول السخاوي :

« هو كثير المجازفة، جاءني مرة وزعم أنه قرأ (مسند الشافعي) على القمصي في يوم ، فلم يلبث أن جاء القمصي وأخبرني متبرعاً بما تضمن كذبه ·· وقال لي البدر قاضي الحنابلة : لم أره يقرأ على شيخي في (جمع الجوامع) مع شدة حرصي على ملازمته · نعم كان يقرأ عليه فيه خيرالدين الريشي النقيب ، فقلت : فلعله كان يحضر معه ، فقال : لم أر ذلك » ·

ويقول في موضع آخر :

« وأخذ عن كل من السيف ، والشمني ، والكافياجي ، شيئاً من فنون ، وفيما زعم عن الشهاب الشارمساحي بعض شرحه لمجموع الكلائي » .

والسيوطي اذا أخذ ، أو سمع ، أو قرأ فهو قليل الصبر والامعان في ذلك كله، يقول السخاوي :

« ولم يمعن الطلب في كل ما أشرت اليه » .

ويقول السخاوي عن الرحلة المكية للسيوطي :

« ثم الى مكة من البحر في ربيع الآخر سنة تسع وستين ، فأخذ قليلا من المحيوي » .

أما تصدر الجلال للتدريس ، وجلوسه مجالس الشيوخ للاملاء والاسماع فاتهمه السخاوي بأن ذلك لم يتأت عن جدارته وأهليته ، بل كان التماساً ممن يبلغه ذلك من ذوي الفضل والجاه من الشيوخ والأعيان ، وسلوكه طريقاً غير سوية الى ذلك ، يقول السخاوي :

« ودرّس جمعاً من العوام بجامع ابن طولون ، بل صار يملي على بعضهم مما يحسن شيئاً بحيث كان ذلك وسيلة لمساعدة وصية شهاب الدين ابن الطباخ ، حيث رباه عند برسباي أستاذ دار الصحبة ، فلزم اينال الأشقر رأس نوبة النوب حتى قرره في تدريس الحديث بالشيخونية بعد وفاة الفخر عثمان المقسي مع تركه ولداً . وكذا استقر في الاسماع بها ، وليس بموافق شرط الواقف فيهما وفي مشيخة التصوف بتربة برقوق نائب الشام التي بباب القرافة بعناية بلديه أبي الطيب السيوطي » .

وقال أيضاً :

« وساعده العلم البلقيني حتى باشر تصدير الفقه بالجامع الشيخوني » .

وفي موضع آخر يقول السخاوي :

« وقد ساعده الخليفة حتى استقر في مشيخة البيبرسية بعد الجلال البكري ، وخمد من ثم بل جمد » .

ويمضي السخاوي قائلا :

« ثم انجمع وتمشيخ وخاض في فنون خصوصاً هذا الشأن » • « كل هذا مع أنه لم يصل ولا كاد ، ولذا قيل : انه تزبب قبل أن يتحصرم » •

★ ★ ★

وأمر آخر على جانب كبير من الخطر والأهمية رماه به السخاوي ، ذلك هو اختلاسه شيئاً من تصانيفه ، وسطوه على كثير من كتب من تقدمه من العلماء ، ومسخه المختلس أو المسطو عليه وافساده، يقول السخاوي :

« واختلس حين كان يتردد الي مماعملته كثيراً، (كالخصال الموجبة للضلال) و (الأسماء النبوية) و (الصلاة على النبي ﷺ) و (موت الأبناء) ، وما لا أحصره؛ بل أخذ من كتب المحمودية[٢٧] وغيرها كثيراً من التصانيف المتقدمة التي لا عهد لكثير من العصريين بها في فنون ، فغير فيها يسيراً ، وقدّم وأخر ، ونسبها لنفسه ، وهول في مقدماتها بما يتوهم منه الجاهل شيئاً مما لا يوفي ببعضه • وأول ما أبرز جزء له في تحريم المنطق جرده من مصنف لابن تيمية ، واستعان بي في أكثره ، فقام عليه الفضلاء بحيث كفه العلم البلقيني عنه وأخذ ما كان استكتبه به في المسألة ، ولولا تلطفي بالجماعة كالأبناسي وابن الفالاتي وابن قاسم لكان ما لا خير فيه »•

وقال في موضع آخر :

« وذكر أن تصانيفه زادت على ثلاثمئة كتاب،رأيت منها ماهو في ورقة ، وأما ما هو دون كراسة فكثير • وسمى منها (شرح الشاطبية) و (ألفية في القراءات العشر) مع اعترافه بأنه لا شيخ له فيها •

وفيها مما اختلسه من تصانيف شيخنا[٢٨] : (لباب النقول في أسباب النزول) (عين الاصابة في معرفة الصحابة) (النكت البديعات على الموضوعات) (المدرج الى المدرج) (تذكرة المؤتسي بمن حدث ونسي) (تحفة النابه بتلخيص المتشابه) (ما رواه الواعون في أخبار الطاعون) (الأساس في مناقب بني العباس) (جزء في أسماء المدلسين) (كشف النقاب عن الألقاب) (نشر العبير في تخريج أحاديث الشرح الكبير) •

كل هذه تصانيف شيخنا ، وليته اذا اختلس لم يمسخها ، ولو نسخها على وجهها لكان أنفع » .

وقال أيضاً :

« كل ذلك مع كثرة ما يقع له من التحريف والتصحيف ، وما ينشأ عن عدم فهم المراد لكونه لم يزاحم الفضلاء في دروسهم ، ولا جلس بينهم في مسائهم وتعريسهم ، بل استبد بأخذه من بطون الدفاتر والكتب ، واعتمد ما لا يرتضيه من الاتقان صحب » .

هذا الأمر الذي رماه به السخاوي ذو بال وخطر، فهو جدير بالنظر والتأمل .

فقد كان السيوطي غزير التصنيف مكثراً من التأليف ، وأجمع من جاء بعده ممَّن ترجم له على أن تصانيفه كانت كثيرة ، واختلفوا في عدد ما أخرج من الكتب والرسائل ، قال ابن أياس[٢٩] : «وبلغت عدد مصنفاته نحواً من ستمئة تأليف » .

وقال النجم الغزي[٣٠] : « وألف المؤلفات الحافلة ، الكثيرة الكاملة ، الجامعة ، النافعة ، المتقنة ، المحررة ، المعتمدة ، المعتبرة ، نيّفت عدتها على خمسمئة مؤلف » .

وقال الشمس ابن طولون[٣١] : «بلغت عدة مصنفاته نحو ستمئة » .

وقال الشرف موسى ابن أيوب الأنصاري[٣٢] : « وتصانيفه كثيرة ، قال بعضهم : انها بلغت الألف » . وبعد أن ذكر عدداً من أشهرها قال : «وكل مصنفاته مليحة مشهورة بين الناس ، ولا يحتاج الى تعدادها لشهرتها وجودتها . وفضائله كثيرة ، رحمه الله تعالى » .

وجمعها صاحب (هدية العارفين)[٣٣] فبلغت ثمانية وثمانين وخمسمئة كتاب .

وقد ذكر السيوطي نفسه في (حسن المحاضرة) أنه أحصى مؤلفاته فبلغت ثمانية وثمانين ومئتي كتاب[٣٤] .

وقال في كتابه (التحدث بنعمة الله) : إنه صنف أربعين وثلاثمئة مؤلف ، وألحقها باسم ثلاثة وثمانين مؤلفاً قال فيها : « إنه شرع فيها وفتر العزم عنها »[٣٥] .

ولدينا اليوم كتاب وضعه فاضلان من العاملين في حقل المخطوطات العربية هما الأستاذان : أحمد الخازندار، ومحمدابراهيم الشيباني وضعا كتاباً أسمياه : (دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها) وهو كتاب حفيل مفيد جمعا فيه ما وقفا عليه من كتب السيوطي في مظانهافبلغ ما أحصياه (٩٨١) واحداً وثمانين وتسعمئة كتاب مع فوت يسير يبلغ بضعةكتب مذكورة في مظان لم يقفا عليها ·

□ **رسالة (البيان في رياضة الصبيان) برهانا على سطو السيوطي :**

هذه الكثرة من التصانيف التي برّ بها العلامة السيوطي من سبقه ومن عاصره من العلماء والمصنفين ادعى السخاوي أن كثيراً منها كان اختلاساً وسطواً وانتحالاً ، وأورد أمثلة منها ذكرناها · هذه الدعوى التي أضافها الى ما رماه به من تهم ذكرناها آنفاً قد نجد ما يثبتها ، فلئن كانت تلك التهم شيئاً من فرية أو بهت بسبب مما يقع بين الأقران من التحاسد والتنافس على أمور الدنيا فان دعوى السخاوي في بابة انتحال الكتب مما يعسر دحضه ودفعه ، لأن تلك الكتب المختلسة أو المسطو عليها تحمل في صفحاتها ما ينهض بالمضاهاة والمعارضة بما وضعه براهين وحججاً على صحة هذه الدعوى ، وشاهدنا على ذلك ماثل بين أيدينا :

وقعت على رسالة لطيفة مخطوطة للامام السيوطي محفوظة في المكتبة الأحمدية بحلب وراء الرقم (٣٠٥ مجموع حديث)وحُفظت مصورتُها في وزارة الثقافة بدمشق في الرقم (ع : ٢٤١) ، حملت الرسالةُ العنوانَ التالي : (البيان في رياضة الصبيان) وجاءت في خمس ورقات، منها صفحة للعنوان وثماني صفحات أخرى لمتن الرسالة · استهواني العنوان، فقرأت الرسالة باهتمام ، وإذا بها في فن تربية الأطفال ، سُررت بها لظني أنني قد أصبت وجازة توقفني على طرائق أهل القرن التاسع في تربية الأطفال وتنشئتهم ، وزاد احتفالي بالرسالة حين قرأت في خاتمتها اسم ناسخها « جار الله ابن فهد المكي » وابن فهد هذا هو الامام المحدث المؤرخ المتوفى سنة (٩٥٤ هـ)وترجمه السخاوي في (ضوئه) وقال : « جار الله ، ويسمى المحب أبا الفضل محمداً ، ولكنه بجار الله أشهر ، بن عبد العزيز بن عمر بن محمد الهاشمي ، ويعرف كسلفه بابن فهد ·· حضر عليَّ

وهو في الرابعة في مجاورتي الرابعة من لفظي وبقراءة أبيه وغيره أشياء ، ثم سمع عليّ بعد ذلك أشياء ‥ » ٠

وترجمه النجم الغزي في (الكواكب) ، قال : « جار الله بن عبد العزيز بن عمر الشيخ ، الامام ، المحدث ، المخرّج ، المؤرخ ، محب الدين ابن الحافظ عز الدين ابن الحافظ تقي الدين ابن فهد المكي الهاشمي ٠٠٠ جمع تاريخاً وأربعين حديثاً ‥ » ٠

وبعد أن ذكر فضله وعدداً من مصنفاته قال : « وأثنى عليه الوالد كثيراً وترجمه بالامامة والتقدم في علم الحديث، وكانت وفاته سنة أربع وخمسين وتسعمئة بمكة ، رحمه الله تعالى » ٠

النسخة إذاً صريحة النسب، مرفوعة الى ناسخ عالم مؤرخ ، عزمت على تحقيقها على ما في خط ابن فهد من صعوبة وعسر ، وبحثت عن أخت لها فأصبتها في الخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع[٣٨] ، واستحال عليّ اجتلابها ، فاجتزأت بنسختي لأصالتها ونقاء نسبها ورحت أنسخها ، وهذا عنوانها واستهلالها :

« البيان في رياضة الصبيان ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

تأليف : شيخنا الامام الحافظ الهمام، مفتي المسلمين

جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ثم القاهري الشافعي رحمة الله عليه آمين » ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

وقال الشيخ الامام الحافظ الهمام مفتي المسلمين جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي ثم القاهري الشافعي رحمه الله تعالى :

الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وبعد :

فهذا تأليف لطيف في الطريق والبيان لرياضة الصبيان في أول نشوئهم ، ووجه تأديبهم ، وتحسين أخلاقهم سميته : البيان في رياضة الصبيان ، وأسأل من الله تعالى التوفيق والهداية الى سواء الطريق ٠

اعلم أن الصبي أمانة عند أبويه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل نقش ، ومائل الى كل ما يمال به اليه ، فان عوّد الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب ، وان عوّد الشر وأهمل اهمال البهائم شقي وهلك ، وكان الوزر في رقبة القيم به والوالي عليه ... »

وجاء في الفقرة الأخيرة من هذه الرسالة وفي خاتمتها ما مثاله :

« ثم رجعت الى تستر فجعلت قوتي اقتصاراً على أن يشترى لي بدرهم من الشعير الفرق فيطحن لي ويخبز ، فأفطر عليه عند السحر كل ليلة على أوقية ، وآخذه بحتاً بغير ملح ولا ادام ، فكان يكفيني ذلك الدرهم سنة . ثم عزمت على أن أطوي ثلاث ليال ثم أفطر ليلة ، ثم خمساً ، ثم سبعاً ، ثم خمساً وعشرين ليلة . وكنت على ذلك عشرين سنة . ثم خرجت أسيح في الأرض سبع سنين ، ثم رجعت الى تستر فكنت أقوم الليل كله .

وهذا آخر كلامه رضي الله عنه ونفعنا به ، ونختم به ما ذكرناه ، ولينتبه كل انسان لمعناه ، وانها موعظة في هذا الباب ، وتبصرة لأولي الألباب ، والحمد لله أولا وآخراً ، وباطنا وظاهراً ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وكتب في مجلس واحد ضحى يوم الثلاثاء ثالث شهر صفر الخير عام اثنين وأربعين وتسعمئة بمكة المكرمة على يد الفقير الى لطف الله وكرمه محمد المدعو جار الله بن عبدالعزيز ابن فهد الهاشمي المكي الشافعي ، لطف الله به والمسلمين أجمعين ، والحمد لله رب العالمين » .

هذا ما جاء في فاتحة رسالة (البيان في رياضة الصبيان) المخطوطة للجلال السيوطي وخاتمتها .

وذات يوم بعد فراغي من انتساخ الرسالة عرضت لي مسألة مظنتها (كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب ، وهو الكتاب الثاني من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين) لحجة الاسلام أبي حامد الغزالي المتوفى عام خمسة وخمسمئة للهجرة . كشفت في سَرَدِ عنوانات الجزء الثالث من الاحياء أبحث عن عنوان المسألة المطلوبة ، واذا بنظري يقع في السَّرَدِ على هذا العنوان:

« باب بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوئهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم » .

سررت بذ لك ظاناً أنني ظفرت في الاحياء بما يغني عملي في تحقيق رسالة السيوطي ، ويكمل بحثاً في تربية النشء ·

وفي الصفحة /٧٢/ من الجزء الثالث من الاحياء[٣٩] وقفت على الباب ، قرأته فاذا في مطلعه ما مثاله :

« اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها ، والصبيان (كذا) أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهرجوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش ، ومائل الى كل ما يمال به اليه ، فان عوّد الخير وعلّمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرةوشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب ، وان عوّد الشر وأهمل اهمال البهائم شقي وهلك ، وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له ·· »

ومضيت أقرأ الباب حتى بلغت آخره ومثال الفقرة في آخره :

« ثم رجعت الى تستر فجعلت قوتي اقتصاداً (كذا) على أن يشترى لي بدرهم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لي، فأفطر عند السحر كل ليلة بحتاً من غير ملح ولا أدم ، فكان يكفيني ذلك الدرهم سنة · ثم عزمت على أن أطوي ثلاث ليال ، ثم أفطر ليلة ، ثم خمساً ، ثم سبعاً، ثم خمساً وعشرين ليلة · فكنت على ذلك عشرين سنة ثم خرجت أسير (كذا) في الأرض سنين (كذا) ثم رجعت الى تستر ، وكنت أقوم الليل كله ما شاءالله تعالى ، قال أحمد : فما رأيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى » ·

فاذا الرسالة (البيان في رياضة الصبيان) هي هذا الباب نفسه منقولة نقل مسطرة حرفاً حرفاً ، كلمة كلمة ،ليس فيها من زيادة الا التمهيد الذي دبجه السيوطي والا كلمات قليلة زادت في الخاتمة · وكانت غمت علينا أثناء نسخ الرسالة كليمات لرداءة الخط وسوءالتصوير فاستدركناها من الاحياء ·

هذا برهان ماثل على صدق مارمي به السيوطي في هذه البابة ·

ويبقى العجب والغرابة في كيف ندعن جار الله ابن فهد المكي مثل هذا الأمر وهو المؤرخ المحدث العلامة ، هذا ما لم أقف له على تفسير ·

☐ **مترجمو السيوطي والدفاع عنه :**

وتوفي السخاوي عام اثنين وتسعمئة للهجرة قبل الجلال بنحو تسعة أعوام ، وترك لنا في (ضوئه اللامع) ترجمة السيوطي مبسوطة ، ولم يذكر من الوجوه المشرقة في حياة هذا الرجل الا وجهاً عرته قترة وكلفة ، وليته جنح الى النصفة والاقساط فذكر ما للسيوطي وما عليه وكان ترك لنا من أخبار الرجل خيراً كثيراً ·

وجاء بعد السخاوي جماعة من المؤرخين ترجموا للسيوطي ، نذكر ستة منهم وهم أشهرهم ، اثنان منهم معاصران للسيوطي :

أولهما : تلميذه ابن أياس محمد بن أحمد بن أياس الحنفي · ولد سنة ٨٥٢ وتوفي نحو سنة ٩٣٠ للهجرة ، ترجمه في كتابه (بدائع الزهور في وقائع الدهور)(٤٠) ترجمة اتسمت بالايجاز الشديد اذ لم تتجاوز الصفحة من الكتاب.

وثانيهما : ابن طولون شمس الدين محمد بن علي بن طولون الدمشقي ، ولد سنة ٨٨٠ وتوفي سنة ٩٥٣ للهجرة ، تناول في كتابه (مفاكهة الخلان في حوادث الزمان) ترجمة(٤١) السيوطي بايجاز أيضاً فلم يتجاوز في ذلك الصفحة ·

ثم تلا هذين المؤرخين أربعة :

أولهم : شرف الدين موسى بن يوسف بن أيوب الأنصاري، ولد سنة ٩٤٦ وتوفي نحو سنة : ١٠٠٢ للهجرة ، وترجم للسيوطي في كتابه الذي لما يزل مخطوطاً (الروض العاطر فيما تيسر من أخبار القرن السابع الى ختام القرن العاشر) وقد تابع الشرف سابقيه في الايجاز وعدم البسط ·

ثانيهم : نجم الدين الغزي محمد بن محمد بن محمد العامري القرشي الدمشقي ، ولد سنة ٩٧٧ وتوفي عام ١٠٦١ للهجرة ، وأفرد للسيوطي في كتابه (الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة)(٤٢) ترجمة مبسوطة جاءت في نحو خمس صفحات ونصف الصفحة بالحرف الدقيق·

الثالث : ابن العماد عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد الحنبلي ، ولد سنة ١٠٣٢ وتوفي سنة ١٠٨٩ للهجرة، ترجم السيوطي في كتابه (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) ترجمة مبسوطة(٤٣) أيضاً بلغت صفحاتها أربعاً ·

الرابع : الامام الشوكاني، محمد بن علي بن محمد الشوكاني الصنعاني العلامة المجتهد ، ولد سنة ١١٧٣ وتوفي عام ١٢٥٠ للهجرة ، اهتم بالسيوطي فبسط ترجمته في كتابه (البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع) فجاءت في نحو ست صفحات ونصف الصفحة(٤٤) .

هؤلاء المؤرخون الذين ترجموا للجلال سواء منهم من اقتصد في الترجمة أو بسط لم يتعرض أحد منهم الى مثلبة من مثالب السيوطي كما صنع السخاوي ، بل بالغوا كلهم باطرائه والثناء عليه إماماً ، علامة ، مجتهداً ، مصنفاً ، ونحو ذلك ، بل منهم من نسب إليه خوارق الكرامات كما فعل النجم الغزي في (كواكبه) ، وتابعه عليه ابن العماد في (شذراته) ، ولم ينهد أحد منهم أيضا الى الذب عن السيوطي أو الدفاع عنه الا الامام الشوكاني وحده ، فهو الذي وقف بحماس ينصره ويدفع عنه في (بدره الطالع) قال بعد أن ذكر فضله وعلو كعبه في العلم وطول باعه في التأليف :« ولكنه لم يسلم من حاسد لفضله، وجاحد لمناقبه ، فان السخاوي في (الضوء اللامع) وهو من أقرانه ترجمه ترجمة مظلمة غالبها ثلب فظيع وسب شنيع ، وانتقاص وغمط لمناقبه تصريحاً وتلويحاً ، ولا جرم فذلك دأبه في جميع الفضلاء من أقرانه ، وقد تنافس هو وصاحب الترجمة منافسة أوجبت تأليف صاحب الترجمة لرسالة سماها (الكاوي لدماغ السخاوي)(٤٥) ، فليعرف المطلع على ترجمة هذا الفاضل في (الضوء اللامع) أنها صدرت من خصم له غير مقبول عليه » .

ثم مضى الشوكاني في نقل كلام السخاوي فاستوفاه جميعه ، وبعد أن فرغ من ذلك انبرى يدفع عنه ويقول :

« وأقول : لا يخفى على المنصف ما في هذا المنقول من التحامل على هذا الامام » .

وراح يفند أقوال السخاوي ، ويكاد ينحصر دفاعه عنه في الوجوه التالية :

ـ عدم استساغة السيوطي لعلم الحساب واستثقاله على فهمه ليس دليلا على عدم ذكائه وظلام بصره ، يقول الشوكاني :

« ان ما اعترف به من صعوبة علم الحساب عليه لا يدل على ما ذكره من عدم

الذكاء ، فان هذا الفن لا يفتح فيه الاعلى ذكي الا نادراً كما نشاهده الآن في أهل عصرنا » •

ـ إنكار معاصري السيوطي عليه دعواه الاجتهاد ، يرد الشوكاني :

« وكذلك سكوته عند قول القائل له : نجمع لك أهل كل فن من فنون الاجتهاد، فان هذا كلام خارج عن الانصاف ، لأنرب الفنون الكثيرة لا يبلغ تحقيق كل واحد منها ما يبلغه من هو مشتغل به على انفراده ، وهذا معلوم لكل احد » •

ـ سطوه على الكتب ومسخها ، يقول الشوكاني :

« وكذا قوله : انه مسخ كذا ، وأخذ كذا ، ليس بعيب ، فان هذا ما زال دأب المصنفين ، يأتي الآخر فيأخذ من كتب من قبله ، فيختصر، أو يوضح ، أو يعترض ، أو نحو ذلك من الأغراض التي هي الباعثة على التصنيف ،ومن ذاك الذي يعمد الى فن قد صنف فيه من قبله فلا يأخذ من كلامه ••• » •

ـ رده شناعة السخاوي على السيوطي تبجحه بكثرة مصنفاته فيقول :

« وقوله : انه رأى بعضها في ورقة ، لا يخالف ما حكاه صاحب الترجمة من ذكر عدد مصنفاته ، فانه لم يقل : انها زادت على ثلاثمئة مجلد ، بل قال : انها زادت على ثلاثمئة كتاب • وهذا الاسم يصدق على الورقة وما فوقها » •

ـ توجيهه الادعاء بسعة الأخذ والسماع على الشيوخ :

« وقوله : انه كذبه القمصي بتصريحه أنه بقي من (المسند) بقية : ليس بتكذيب ، فربما كانت تلك البقية يسيرة، والحكم للأغلب • لا سيما والسهو والنسيان من العوارض البشرية ، فيمكن أنه حصل أحدهما للشيخ أو تلميذه » •

ـ ابطاله دعوى السخاوي أن السيوطي كثير التصحيف والتحريف :

« وقوله : انه كثير التصحيف والتحريف : مجرد دعوى عاطلة عن البرهان ، فهذه مؤلفاته على ظهر البسيطة محررة أحسن تحرير ومتقنة أبلغ اتقان » •

ثم يتحول الشوكاني من الذب عن السيوطي الى اتهام السخاوي بعدم النصفة والموضوعية ، ويقرر أن كل ما اتهمه به مرفوض ، يقول :

«وعلى كل حال فهو غير مقبول عليه لما عرف من قول أئمة الجرح والتعديل بعدم قبول أقوال الأقران في بعضهم بعضاً مع ظهور أدنى منافسة ، فكيف بمثل المنافسة بين هذين الرجلين التي أفضت الى تأليف بعضهم في بعض ، فان أقل من هذا يوجب عدم القبول • والسخاوي ـ رحمه الله ـ وان كان اماماً غير مدفوع لكنه كثير التحامل على أكابر أقرانه كما يعرف ذلك من طالع كتابه (الضوء اللامع) فانه لا يقيم لهم وزناً ، بل لا يسلم غالبهم من الحط منه عليه ، وانما يعظم شيوخه وتلامذته ومن لم يعرفه ممن مات في أول القرن التاسع قبل موته ، أو من كان من غير مصره ، أو يرجو خيره ، أو يخاف شره» •

ويحرص الشوكاني على ضرب الأمثلة ينهضها أدلة على ما يذهب اليه في دفعه عن السيوطي • ثم يمضي في إطرائه والاشادة بقيمة كتبه ومصنفاته التي طبقت شهرتها الأمصار والآفاق •

ويبدو لكل ذي بصر ومتأمل أن دفاع الشوكاني عن الجلال ، وحماسه في نصرته أقرب الى الاعتذار له والتسويغ لما تصرف فيه من اقامة الحجج والبراهين التي تدمغ دعاوى السخاوي وتدحض أقواله •

☐ رأينا في أسباب كثرة تصانيفه :

وبالجملة فيكاد يتفق من ترجم للسيوطي من المؤرخين أنه يأتي مجلياً في مقدمة الطبقة الأولى من علماء رأس المئة التاسعة .ولكن ـ جل جلال المتفرد بالكمال وسبحانه ـ ،فان شدة ولع السيوطي بالتأليف ، وعرامة شهوته الى الاكثار من اخراج الكتب : مجلداتها ، أجزائها ، رسائلها ، قد أزجياه الى مزالق ما كان أغناه عنها، فمن ذلك ما نحدس بأنه كانت تعرض له الخاطرة يرى أنها تستحق الكتابة فيها ، أو يعن بباله المعنى يجد أنه أهل لأن يؤلف فيه ، فيوكل من ذلك الى أحد من تلامذته أو من يشتغل عليه أمر تتبع بعضه في مظان يهديه اليها ، فيجمع ذاك منها ما شاء الله أن يفعل في تلك الخاطرة أو ذاك المعنى ، وقد يؤلف بين ما جمعه من نقول ، ثم يعرض محصوله على الشيخ، فيسرع النظر فيما صنع ، وقد يضيف أشياء يسيرة من تمهيد أو خاتمة ، ثم يضع اسمه على الكتاب أو الجزء أو الرسالة ، ويخرج ذلك لتتداوله أيدي النساخ والقراء • ولا نستبعد أن تكون رسالته (البيان في رياضة الصبيان) من هذا القبيل •

ولعله ـ من ناحية أخرى ـ حين يستبد به عرام شهوته الى التأليف قد

يكتفي بتعقيبات أو تعليقات أو ما يراه اصلاحاً لكتاب ما يراه محتاجاً الى ذلك ، فيخرج من هذا النحو كتباً، أو أجزاء ، أو رسائل تحمل عناوين جديدة ٠ وبذلك ترك لنا هذا المحصول الوافر من المجلدات والكتب ٠

☐ خاتمة : فضل السيوطي على المكتبة العربية الاسلامية :

ومهما يكن من أمر فان الجلال بما أوعبه من معارف موسوعية متعددة الفنون والألوان ، وبما أوتي من مقدرة فائقة على لملمة ما تشعث من نصوص للمعنى الواحد ، وحصافة أصيلة في التهدي الى موضوعات فيها الجدة والطرافة والابتكار ، وسعة اطلاع على ذخائر ما زخرت به المكتبة العربية الاسلامية من موروث المعارف الى عصره ، كل ذلك ملكه قدرة مطواعة على أن يخرج للناس كتباً فرائد حفيلة في أبوابها ، أمثال :

(الأشباه والنظائر في الفقه الشافعي) و (الأشباه والنظائر في النحو) و (الاتقان) و (التحبير) و (الدر المنثور) و (المزهر) و (لب الألباب) و (بغية الوعاظ في طبقات الحفاظ) و (بغية الوعاة) و (حسن المحاضرة) و (الجامع الصغير) و (همع الهوامع) و (تاريخ الخلفاء) و (الاقتراح) ونحو هذا الكثير الكثير مما يقع بعضه في مجلدات عديدة ، وبعض في مجلد واحد ، وبعض يخرج أجزاء ، أو رسائل تقع في أوراق قليلة ٠ وقد أوفى الحديث عن ذلك مترجموه ، ولعل ما قدمناه من إلماحات إلى ذلك يغني عما لا يتسع لمثله هذا المقام ٠

١٩٩٢/١٢/٢٥

دكتور عدنان درويش

☐ هوامش البحث :

١ ـ روضة المقياس : حي في القاهرة ٠ قال المقريزي في الخطط : ١٧٧/٢ : « الروضة : تطلق في زماننا هذا على الجزيرة التي بين مدينة مصر ومدينة الجيزة ، وعرفت في أول الاسلام بالجزيرة وبجزيرة مصر ، ثم قيل لها : جزيرة الحصن ، وعرفت الى اليوم بالروضة » ٠

وقال في : ج ٢/ص : ١٨٥ : « وبطرف الروضة المقياس الذي يقاس فيه ماء النيل اليوم ، ويقال له : المقياس الهاشمي : وهو آخر مقياس بديار مصر » ٠

وقد توفي المقريزي قبل ولادة السيوطي بأربعة أعوام ، سنة : ٨٤٥ هـ ٠

٢ ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة : ١٩٧/١ ٠
٣ ـ الدرر الكامنة : ٦٣/٣ ٠
٤ ـ الدرر الكامنة : ٨٧/٢ ٠
٥ ـ الضوء اللامع باعيان القرن التاسع : ١٤٥/٤ ٠ ذيل الدرر الكامنة : الترجمة : ٢٥٨ ٠
٦ ـ الضوء اللامع : ٦/٢ ٠
٧ ـ الضوء اللامع : ٢١/٢ ٠
٨ ـ الضوء اللامع : ٣٦/٢ ٠
٩ ـ الضاء اللامع : ١٢٦/٢ ٠
١٠ـ الضوء اللامع : ٣٥٠/١٠ ٠
١١ـ الضوء اللامع : ٢٥٩/٧ ٠
١٢ـ شذرات الذهب في اخبار من ذهب : ٩/٨ ٠
١٣ـ الضوء اللامع : ٢/٨ـ٣٢ ، الكواكب السائرة باعيان المئة العاشرة : ٥٣/١ ٠
١٤ـ الكواكب السائرة : ٣٠١/١ ٠
١٥ـ حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة : ٣٣٧/١ ٠
١٦ـ جلال الدين السيوطي : ١٠٦ـ١٠٧ ٠
١٧ـ هي المدرسة الظاهرية البيبرسية : بخط بين القصرين في القاهرة، بناها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري سنة : ٦٦٢ هـ ، وتوفي الظاهر سنة : ٦٧٦ هـ ٠ (الخطط المقريزية : ٣٧٨/٢) ٠
١٨ـ حسن المحاضرة : ٣٣٨/١ ، التحدث بنعمة الله : ٢٠٣ ٠
١٩ـ هو محمد بن علي بن وهب بن مطيع ، تقي الدين ، ابن دقيق العيد ، القشيري ، المصري ، المالكي ، ثم الشافعي ، الحافظ ، المحدث ، ولد في شعبان سنة : ٦٢٥ هـ ، وتوفي بالقاهرة سنة : ٧٠٢ هـ (الدرر الكامنة : ٩١/٤) ٠
٢٠ـ هو عمر بن رسلان بن نصير بن صالح ، سراج الدين ، البلقيني ، الكناني ، الشافعي ، الحافظ ٠ ولد في شعبان سنة : ٧٢٤ هـ ٠ وتوفي بالقاهرة في ذي القعدة سنة : ٨٠٥ هـ ٠ (ذيل الدرر الكامنة ، الترجمة : ١٨١) ٠
٢١ـ يشير الى الحديث الشريف : « ان الله تعالى يبعث لهذه الامة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها » ٠ انظر : (الجامع الصغير : ١٢٥/١) ومقدمة كتاب نظم العقيان، لفيليب حتي : ش ٠
٢٢ـ مقدمة كتاب نظم العقيان ، لفيليب حتي : ش ٠
٢٣ـ هو القاضي عضدالدين ، عبدالرحمن بن احمد الايجي المتوفى سنة : ٧٥٦ هـ ٠ (الدرر الكامنة : ٣٢٢/٢) ٠
٢٤ـ هو تقي الدين عثمان بن عبدالرحمن بن عثمان ، أبو عمرو ، الشهرزوري ، الشهير بابن الصلاح ، الشافعي ، الحافظ صاحب التصانيف ، توفي بدمشق في ربيع الآخر سنة : ٦٤٣ هـ (وفيات الأعيان : ٣١٢/١) ٠
٢٥ـ الضوء اللامع : ٦٧/٤ ٠
٢٦ـ الضوء اللامع : ٦٧/٤ ٠
٢٧ـ قال المقريزي في الخطط : ٣٩٥/٢ : « هذه المدرسة بخط الموازنيين خارج باب زويلة تجاه دار القردمية ٠٠٠ انشاها الأمير جمال الدين محمود بن علي الأستادار في سنة : ٧٩٧ ورتب بها درساً ، وعمل فيها خزانة كتب لا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها ، وهي باقية الى اليوم لايخرج لأحد منها كتاب الا ان يكون في المدرسة، وبهذه الخزانة كتب الاسلام من كل فن ، وهذه المدرسة من احسن مدارس مصر » ٠ وتوفي بانيها مسجونا سنة: ٧٩٩هـ ودفن بمدرسته٠
٢٨ـ يريد : ابن حجر العسقلاني ٠
٢٩ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور : ٨٣/٤ ٠
٣٠ـ الكواكب السائرة : ٢٢٨/١ ٠
٣١ـ مفاكهة الخلان في حوادث الزمان : ٣٠١/١ ٠
٣٢ـ الروض العاطر فيما تيسر من اخبار القرن السابع الى ختام القرن العاشر : (الورقة : ١٥٧ آ) ٠
٣٣ـ هدية العارفين اسماء المؤلفين : ٥٣٥/١ ٠
٣٤ـ حسن المحاضرة : ٣٣٩/١ ٠

٣٥- التحدث بنعمة الله : ١٠٥ ، ١٣٦ .

٣٦- الضوء اللامع : ٣/٥٢ .

٣٧- الكواكب السائرة : ٢/١٣٠ .

٣٨- دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها : ص : ٢٣٦ الرقم : ٨٩٠ .

٣٩- احياء علوم الدين : ٣/٧٢-٧٤ .

٤٠- بدائع الزهور في وقائع الدهور : ٤/٨٣ .

٤١- مفاكهة الخلان : ١/٣٠١ .

٤٢- الكواكب السائرة : ١/٢٢٦-٢٣١ .

٤٣- شذرات الذهب : ٨/٥١-٥٥ .

٤٤- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع : ١/٣٢٨-٣٣٥ .

٤٥- سماها السخاوي في الضوء : ٤/٧٠ (الكاوي في الرد على السخاوي) وقال : « كتب مؤلفاً سماه الكاوي في الرد على السخاوي ، خالف فيه الثابت في الصحيح مع كوني لم أتكلم في المسألة الا قبل، بل مذهبي فيه ترك التكلم اثباتا ونفياً ، فسبحان قاسم العقول » .

* * *

المصادر والمراجع :

- احياء علوم الدين ، لحجة الاسلام أبي حامد الغزالي : الطبعة المصورة في دار المعارف - بيروت .
- بدائع الزهور في وقائع الدهور : لابن اياس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة : ١٩٨٤ .
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، للامام الشوكاني ، مطبعة السعادة ، القاهرة : ١٣٤٨ .
- التحدث بنعمة الله ، للسيوطي ، تحقيق اليزابيث ماري سارتين - القاهرة : ١٩٧٢ .
- الجامع الصغير من حديث البشير النذير ، للجلال السيوطي- بولاق : ١٢٨٦ هـ .
- جلال الدين السيوطي - مجموعة من الباحثين - القاهرة : ١٩٧٨ .
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة - للسيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - القاهرة : ١٩٦٧ .
- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة - لابن حجر العسقلاني - حيدر آباد : ١٩٤٥ - ١٩٥٠ .
- دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها - أحمد الخازندار ، ومحمد ابراهيم الشيباني - الكويت : ١٩٨٣ .
- ذيل الدرر الكامنة - لابن حجر العسقلاني، تحقيق الدكتور عدنان درويش - معهد المخطوطات العربية - القاهرة: ١٩٩٢ .
- الروض العاطر فيما تيسر من أخبار القرن السابع الى ختام القرن العاشر - لشرف الدين موسى بن يوسف بن أيوب الأنصاري المتوفى نحو سنة ١٠٠٢ هـ ، مخطوط - نسخة برلين بخطه : ٧٧٦ - أور .
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب - لابن العماد الحنبلي - طبعة القدسي ، القاهرة : ١٣٥١ هـ .
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - للشمس السخاوي - طبعة مصر : ١٣٥٣ - ١٣٥٥ هـ .
- الكواكب السائرة باعيان المئة العاشرة - للنجم الغزي - المطبعة الأميركانية - بيروت : ١٩٤٥ .
- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان - للشمس ابن طولون - القاهرة : ١٩٦٢ .
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - للتقي المقريزي - مصر : ١٣٢٧ هـ .
- نظم العقيان في أعيان الأعيان - للسيوطي - مقدمة محققه فيليب حتي : نيويورك : ١٩٢٧ .
- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين - اسماعيل باشا البغدادي - استانبول : ١٩٥١-١٩٥٥ .
- وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمان - لابن خلكان - مصر : ١٣١٠ هـ .

السيوطي

إمام التفسير بالمأثور في القرن العاشر

د. وهبة الزحيلي

إن من أبسط وأولى الواجبات في مجال التثقيف والمعرفة أن نتعرف جهود علمائنا العظام، وفاءً لهم، وتقديراً لعطائهم وانتاجهم الثر وبخاصة في عصرنا، بما خلفوه من آثارهم ومصنفاتهم الكثيرة • ومن هؤلاء الشخصيات العلمية المتميزة، الغزيرة الانتاج والتصنيف، الحافظ المجدد المجتهد عبد الرحمن ابن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الأسيوطي المصري الشافعي الملقب بجلال الدين، والمكنى بأبي الفضل، المولود عام ٨٤٩ هـ، والمتوفى عام ٩١١ هـ، وذلك بمناسبة مرور خمسمائة عام على وفاته •

كان العلامة السيوطي بحراً في سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمعنى والبيان والبديع جمع آفاق هذه العلوم وأتقنها، فصنف فيها وجدد، وأفاد الكثير من علمه وفضله •

ويتجلى جهده العظيم في تفسير القرآن الكريم في كتابه الشهير « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » في ستة مجلدات ــ طبع دار الكتب العلمية في بيروت، وله طبعة أخرى في ثمانية مجلدات • قال الامام السيوطي في كتابه « الاتقان في علوم القرآن » عن أصل هذا الكتاب: « وقد جمعت كتاباً مسنداً فيه تفاسير النبي ﷺ والصحابة، فيه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف • وقد تم والحمد لله في أربع مجلدات ــ أي مخطوطة، وسميته ترجمان القرآن • ورأيت وأنا في أثناء تصنيفه النبي ﷺ في المنام في قصة طويلة تحتوي على بشارة حسنة » •

وقال في مقدمة تفسيره « الدر المنثور »: « فلما ألّفت كتاب ترجمان القرآن، وهو التفسير المسند عن رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وتم بحمد الله في مجلدات،

★ أستاذ في كلية الشريعة بجامعة دمشق •• وضع مجموعات من الموسوعات في علوم الفقه والأصول والتفسير ••

فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرّج منها واردات ، رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله ، ورغبتهم في الاقتصار على متون الأحاديث دون الاسناد وتطويله ، فلخّصت منه هذا المختصر ، مقتصراً فيه على متن الأثر ، مصدّراً بالعزو والتخريج الى كل كتاب معتبر ، وسميته « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » .

☐ منهجه في التفسير :

يذكر الامام السيوطي الآية أو الآيتين في السور المدنية الطوال ، أو مجموعة من الآيات في السور المكية القصار ، ثم يفسر الكلمة اوالجملة بما هو مأثور عن النبي ﷺ ـ وهو قليل ـ من بيان المعنى ، أو بما هو منقول في كتب السنة النبوية عن الصحابة والتابعين ، وهو في ذلك يفيض افاضة شاملة لكل الروايات المحكية ، بتخريج ذلك في الصحاح والمسانيد والمصنفات والسنن والآثار . ففي تفسيره (١/٣٣ ـ ٣٦) لجملة « الحمد لله » في الفاتحة يذكر سبعاً وثلاثين رواية متقاربة المعنى ، فالحمد : الشكر لله ، أو الثناء على الله ، وفيها بيان فضيلة الحمد الخ ... وفي ١/٢٥٧ يفسر كملة « حنيفاً » بثمان روايات ، منها : حنيفاً : حاجاً أو متبعاً أو مستقيماً أو مخلصاً ، وفيها ايراد حديث « بعثت بالحنيفية السمحة » أو « أحب الدين الى الله : الحنيفية السمحة » دون بيان درجة صحة الحديث أو ضعفه . وفي ٤/٦٢٢ ـ ٦٢٣ يفسر جملة « ثاني عطفه » بثمان روايات ، منها أنه المعرض من العظمة ، أو لاوي رأسه ، أو لاوي عنقه ، أو المعرض عن الحق ، أو عن ذكر الله ، مع بيان من نزلت في شأنه (وهو النضر بن الحارث) . وفي ٦/٥٦١ يفسر جملة «والسماء ذات الرَّجْع والأرض ذات الصدع» بثمان روايات ، الرجع : المطر بعد المطر ، والصدع : صدعها عن النبات ، أو صدع الأودية ، أو باذن الله عن الأموال والنبات .. الخ . ولا يرجح رواية على أخرى ، ولا معنى على معنى آخر .

ويذكر في أوائل كل سورة ، أو في أثناء بيان بعض آياتها ، فضلها أو منزلتها وثواب تاليها وقارئها ، كفضائل سورة البقرة وآل عمران ، وسورة الاخلاص والفلق والناس وغير ذلك ، ويبين صفة السورة ومكان نزولها ، فهي مكية أو مدنية أو تشتمل على كلتا الصفتين ، لوجود آيات منها مدنية وأخرى مكية مثل سورة البقرة مدنية الا آية (٢٨١) وهي « واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله .. » فنزلت في حجة الوداع ، وأورد في ١/٦٥٣ أنها آخر آية نزلت في القرآن على النبي ﷺ ، وكان بين نزولها وبين موت النبي ﷺ أحد وثمانون يوماً ، أو تسع ليال .

وأسلوبه : تاريخي محض ، يذكر كل رواية بأسانيدها عن الصحابة أو التابعين ، ويسرد أسماء المخرّجين لها في الكتب الستة (للبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه) أو مسند أحمد أو مسانيد الطبراني أو سنن البيهقي ، أو صحيح الحاكم وابن خزيمة وابن حبان ، أو مصنف ابن أبي شيبة ، أو الكتب المشتملة على الضعفاء أحياناً كتاريخ الخطيب ومسند الديلمي (الفردوس) وابن عساكر في

تاريخه ، والحلية لأبي نعيم ، ويعمتد كثيراً على ما أخرجه الطبري في تفسيره ، وسعيد بن منصور في سننه ، وابن المنذر ٠

ومنهجه : ايراد مختلف الروايات في التفسير بالمأثور للكلمات أو الجمل ، ويقتصر على المأثور دون المعقول أو الرأي ، ولا يبين مدى صحة الرواية أو ضعفها في غالب الأحيان ، ملقياً عبء التبعة في الرواية على صاحبها ، فهو مجرد سرد ، أو حكاية روايات أو وصف المنقولات ، وترك الأمر للقارىء ليأخذ بما شاء ، ويستحسن ما يريد ، ويرجح ما يختار ، فهو بحق أوسع وأشمل تفسير للآيات بالمأثور، كما أن رواية الحديث أو الأثر تعد أشمل وأكثر احاطة بأسماء المخرّجين ، لكن بالرغم من كثرة الروايات لا يجد القارىء ضالته المنشودة بنحو حاسم :

مثلاً يصعب على القارىء اصدار الحكم على السيوطي بأنه سلفي الاعتقاد ، أو أشعري المذهب ، فتراه في بيان المراد من الأحرف الهجائية المقطعة في أوائل السور ، مثل « آلم » (٥٣/١) وما بعدها في أوائل تفسير سورة البقرة لا يذكر ما يقنع أو ما هو راجح عند المفسرين ، وانما ينقل عن ابن جرير وغيره عن ابن عباس : أن هذه الأحرف قسم أقسمه الله ، وهو من أسماء الله ٠

وفي (٧/٢ ــ ١٣) يقول عن الآيات المتشابهات : أخرج ابن المنذر عن سعيد ابن جبير قال : « المتشابهات » : آيات في القرآن يتشابهن على الناس اذا قرؤوهن ٠ ومن أجل ذلك يضل من ضل ، فكل فرقة يقرؤون آية من القرآن يزعمون أنها لهم ، فمنها يتّبع الحرورية (أي الخوارج) من المتشابه قول الله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (المائدة : ٤٤) ثم يقرؤون معها : « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » (الأنعام : ١) فاذا رأوا الامام يحكم بغير الحق قالوا : قد كفر ، فمن كفر عدل بربه ، ومن عدل بربه فقد أشرك بربه ، فهؤلاء الأئمة مشركون ٠

ويقول في تفسير الكرسي في قوله تعالى : « وسع كرسيه السموات والأرض » (البقرة : ٢٥٥) في (٥٧٥/١) : يريد هو أعظم من السموات السبع والأرضين السبع ، وتلك رواية الطبراني عن ابن عباس ٠ وفي تفسير آية « والسموات مطويات بيمينه » (الزمر : ٦٧) يقول في (٦٢٨/٥) ذاكراً حديث أبي هريرة عند البخاري ومسلم وغيرهما : يقبض السموات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ » ٠ وفي (٤٤/٢ و ٤٤٠) لم يفسر المراد بوصف المسيح بأنه كلمة الله في آية آل عمران (٤٥) والنساء (١٧١) واكتفى بايراد حديث مطابق ظاهر القرآن بأن عيسى كلمة الله ألقاها الى مريم ٠

ولا يذكر شيئاً في معنى آية « الرحمن على العرش استوى » (طه : ٥) (٥١٨/٤)، كما لا يذكر شيئاً في تفسير آية « يد الله فوق أيديهم » (الفتح : ١٠) (٦٤/٦) وانما يقول : أخرج عبد بن حميد عن الحكم بن الأعرج رضي الله عنه : « يد الله فوق أيديهم » قال : أن لا يفروا وكذلك في تفسير آية : « وجاء ربك والملك صفاً صفاً » (الفجر: ٢٢) قال في ٥٨٧/٦ أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : « والملَك صفاً صفاً »

قال : جاء أهل السموات، كل سماء صفاً. وفي٦/١٩٦قال في آية:«ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » (الرحمن : ٢٧) : أخرج ابن المنذر والبيهقي عن حميد بن هلال قال : قال رجل : يرحم الله رجلا أتى على هذه الآية :« ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » فسأل الله تعالى بذلك الوجه الكافي الكريم ٠ ولفظ البيهقي : بذلك الوجه الباقي الجميل٠ واكتفى بتعداد روايات أحاديث الكشف عن الساق، منها ما أورده في (٦/٣٩٧) ومابعدها: أخرج ابن منده في الرد على الجهمية (فرقة من المشبهة) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يوم يُكشف عن ساق » (القلم:٤٢) قال : يكشف الله عز وجل عن ساقه ٠

وهكذا لا نجد السيوطي يأتي بما يشفي الغليل في تفسير آيات الصفات ، ولعله يكتفي بما ذكره في كتابه « الاتقان في علوم القرآن »حيث يعقد في (١/٦٤٩) وما بعدها فصلا عن المتشابه من آيات الصفات ، نحـو (الرحمن على العرش استوى » (طه : ٥) « كل شيء هالك الا وجهه » (القصص:٨٨) « ويبقى وجه ربك » الرحمن : ٢٧) « ولتُصنع على عيني » (طه:٣٩) « يد الله فـوق أيديهم »(الفتـح : ١٠) « والسـموات مطـويـات بيمينه » (الزمر : ٧٧) ثم يقول :

وجمهور أهل السنة ـ منهم السلف وأهل الحديث ـ على الايمان بها ، وتفويض معناها المراد منها الى الله تعالى ، ولا نُفسّرها ، مع تنزيهنا له عن حقيقتها ٠

وذهبت طائفة من أهل السنة : على أننا نؤولها على ما يليق بجلاله تعالى،وهذا مذهب الخلف ، وكان امام الحرمين يذهب اليه ، ثم رجع عنه ، فقال في الرسالة النظامية : الذي نرتضيه ديناً ، وندين الله به عقداً ، اتبـاع سلف الأمة ، فانهم د رَجوا على ترك التعرُض لمعانيها ٠

وقال ابن الصلاح : على هذه الطريقـة مضى صَدْر الأمة وساداتها ، واياها اختـار أئمة الفقهاء وقاداتها،واليها دعا أئمة الحديث وأعلامه ، ولا أحد من المتكلمين من أصحابنـا يصدف عنها ويأباها ٠

واختار ابن بَرْهـان مذهب التأويل ،قال : ومنشأ الخلاف بين الفريقين : هل يجوز أن يكون في القرآن شيء لم نعلم معناه ، أولا ، بل يعلمه الراسخون في العلم ؟

وتوسط ابن دقيق العيد فقال : اذا كان التأويل قريباً من لسان العرب لم ينكر ، أو بعيداً عنه توقفنا عنه ، وآمنـا بمعناه على الوجه الذي أريد به مـع التنزيـه ، قـال : وما كان معناه من هذه الألفاظ ظاهراً مفهوماًمن تخاطب العرب ، قلنا به من غير توقيف ، كما في قوله تعالى :«يا حسرتي على ما فرّطت في جَنْب الله » (الزمر : ٥٦) فنحمله على حق الله وما يجب له :

☐ موقع تفسير السيوطي في عالم البيان :

القرآن الكريم كتاب هداية وارشاد ، يهدي الى الحق ، ويبين للناس طريق الهداية والضلالة ، لانقاذ الناس من ظلمات الجهل الى نور المعرفة والعلم ، فتصلح دنياهم واخرتهم ، وتتحقق لهم السعادة الأبدية • لذا وصف الله تعالى القرآن بالبيان ، كما ابان ابو القاسم الراغب الأصفهاني في « مقدمة جامع التفاسير » فقال تعالى : « هذا بيان للناس » (آل عمران:١٣٨) وقال : « يبين الله لكم أن تضلوا » (النساء:١٧٦) وقال : « بلسان عربي مبين » (الشعراء:١٩٥) وقال : ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات » (النور:١٣٤) وبالرغم من وجود بعض الاشكال والمتشابه فيه ونحوه من الرموز ، بالنسبة للناس العاديين غير المتخصصين ، فانه يظل بيانه ناصعاً ، لأن البيان بحسب أحوال المبين لهم، ومنهم أهل العربية وغير العرب ، ومنهم المتضلع الراسخ في العلم ، ومنهم العامة وأوساط المعرفة والثقافة ، فيكون بيان القرآن كافياً لجماعة وهم الراسخون في العلم، ولا يعد بياناً كافياً لغيرهم ، والناس أيضاً يتفاوتون في المعرفة بحسب درجاتهم العلمية وتخصصاتهم واختلاف أحوالهم ، فالبلغاء يدركون فصاحته ، والفقهاء أحكامه ، وعلماء الكلام (أو التوحيد) يدركون براهينه العقلية وأهل الآثار والتاريخ يغترفون الكثير من قصصه التي يجهلها غير المختصين ، والعالم نفسه بقدر ما يتعمق في العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه ، لذا قال النبي ﷺ في مسند أحمد وسنن أبي داود وابن ماجه : « نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي ، فرعاها كما سمعها ، حتى يؤديها الى من لم يسمعها ، فربَّ مُبلَّغ أوعى من سامع » •

والبيان أعم من التفسير ، فالأول شامل كل أنواع الكلام البيِّن الفصيح ، والتفسير يختص بغوامض الكلمات والتراكيب والجمل، والبيان فيه القطعي الذي لا يحتمل معنى آخر سواه ، والظني الذي يحتمل معنى آخر سوى المعنى المتبادر الى الذهن • فمجاله الظنيات وأنواع المجمل والمتشابه ونحوهما •

وتفسير السيوطي أحد أنواع التفاسير المختصة بالمأثور المنقول عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين • وقد ذكر الامام ابن تيمية رحمه الله في « مقدمة في أصول التفسير » أن النبي ﷺ بيَّن لأصحابه معاني القرآن ، كما بيَّن لهم ألفاظه ، فقوله تعالى : « لتبيِّن للناس ما نُزِّل اليهم » (النحل : ٤٤) يتناول هذا وهذا • وكان الصحابة الكرام كعثمان وابن عباس وغيرهما اذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات ، لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً • ولابن عباس تفسير للقرآن ، وكان يلقب بحبر الأمة وترجمان القرآن ، ببركة دعاء النبي ﷺ بقوله : « اللهم فقِّهه في الدين ، وعلمه التأويل » • ونقل الصحابة علوم القرآن لمن بعدهم من التابعين ، ونقل هؤلاء تلك العلوم بدورهم الى من بعدهم • فتكوَّن من حصيلة تلك النقول أصل التفسير أو ما سمي بعدئذ التفسير بالمأثور ، الذي كان امام المفسرين ابن جرير الطبري أول من صنف فيه تفسيره الشهير ب « جامع البيان في تفسير القرآن » •

كتاب السيوطي في مجال التفسير والتأويل:

ان علم التفسير : علم يبحث عن معنى نظم القرآن المؤدي الى معرفة الأحكام الشرعية بحسب الطائفة البشرية ، وعلى وفق ما تقتضيه الأصول الشرعية والقواعد العربية، وهو قسمان : تفسير وتأويل ، وأكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ ، والتأويل في المعاني ، كتأويل الرؤيا ، كما ذكر الراغب الأصفهاني في مقدمة جامع التفاسير(١) ٠

١ ـ التفسير :

هو ما لا يدرك الا بالنقل والرواية ، كأسباب النزول ، وهو مقصود على السماع ، فما بُيِّن في الكتاب والسنة يسمى تفسيراً ،وليس لأحد أن يتعرض له باجتهاد ولا غيره ؛ لأنه من باب الرواية ، فهو قطع وشهادة على أن الله تعالى عنى بهذا اللفظ هذا المعنى ، وأحسن طرق التفسير كما ذكر العلماء كابن تيمية في أصول التفسير ، وغيره : أن يفسر القرآن بالقرآن ، فان لم يوجد فبالسنة النبوية ، فانها شارحة للقرآن وموضحة له ، بل قال الامام الشافعي رحمه الله : كل ما حكم به رسول الله ﷺ ، فهو مما فهمه من القرآن ، قال الله تعالى : « انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق ، لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيماً » (النساء : ١٠٥) وقال تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل اليهم ، ولعلهم يتفكرون » (النحل : ٤٤) ٠ وقال النبي ﷺ فيما أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه : « ألا اني أوتيت القرآن ومثله معه » ٠

واذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة ، رجعنا في ذلك الى أقوال الصحابة ، فانهم أدرى بذلك ، لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح ، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم ، كالخلفاء الراشدين وعبدالله بن مسعود، والحبر البحر عبدالله بن عباس ابن عم النبي ﷺ وترجمان القرآن ، كما تقدم ٠ وأعلم الناس بالتفسير أهل مكة ؛ لأنهم أصحاب ابن عباس ، كمجاهد وعطاء وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم ٠

واذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا عند الصحابة ، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك الى أقوال التابعين كمجاهد بن جبير ، فانه آية في التفسير ، وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب ، وأبي العالية ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، والضحاك بن مزاحم ، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم ٠وقد أبان السيوطي في كتابه « الاتقان في علوم القرآن » (١١٩٧/٢ وما بعدها) طريق التفسير بالمأثور على النحو السابق ٠

٢ ـ التأويل :

بيان المعاني بطريق الاجتهاد والاستنباط بالرأي المقبول شرعاً ، المتفق مع أصول الشريعة ومقاصدها العامة وروح التشريع ٠ويكون بترجيح أحد المحتملات بالدليل بلا

قطع ولا شهادة على أنه مراد الله تعالى ،ويعرّف بأنه ما استنبطه العلماء العاملون بمعاني الخطاب الالهي ، فهو من باب الدرايةلا الرواية ، ولذا اشترط في التأويل أن يكون المفسر : عالما في اللغة والنحو والصرفوالمعاني والبيان والبديع وعلم القراءات وأسباب النزول ، والقصص القرآنية ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ ، وأصول الدين ، وأصول الفقه والسنة النبوية ، ومسائل الاجماعوالقياس وأركانه وشرائطه •

والتفسير بالرواية : هو التفسير بالمأثوروهو ما جاء في القرآن أو السنة أو كلام الصحابة ، بياناً لمراد الله تعالى من كتابه •والتفسير بالدراية : هو التفسير بالرأي • وتفسير السيوطي هذا تفسير بالمأثور كما تبينلدينا ، وقد ألّفت فيه تفاسير كثيرة جمعت من أقوال الصحابة والتابعين ومن أشهرهاوأولها تفسير ابن جرير الطبري ، ومن أحسنها تفسير بقيّ بن مخلّد ، قال ابن حزم:أقطع أنه لم يؤلف في الاسلام مثل تفسيره لا تفسير ابن جرير ولا غيره • وقال السيوطيفي الاتقان (١٢٠٣/٢) : وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة ، وأسلم من البلاغة ،ولو ذكر كلام السلف المأثور عنهم على وجهه : لكان أحسن ، فانه كثيراً ما ينقل من تفسيرابن جرير الطبري •

والتأويل أو التفسير بالرأي نوعان : محمود ومذموم ، والمذموم : هو تفسير القرآن بمجرد الرأي المحض من غير دليل شرعي ، وهوحرام ، لما أخرجه الطبري عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال في القرآن بغيرعلم فليتبوأ مقعده من النار » لكنه ضعيف . وفي حديث ضعيف آخر أخرجه الترمذي : « من قال في القرآن برأيه ، فأصاب ، فقد أخطأ » •

ومن التأويل المستكره : تخصيصلفظ عام ببعض مشتملاته من غير حجة ولا برهان مثل قوله تعالى : « وان تظاهرا عليه ،فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين » (التحريم : ٤) حمله بعض الناس على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقط • ومثل قول من زعم أن الحيوانات كلها مكلّفة ،محتجاً بقوله تعالى : « وان من أمة إلا خلا فيها نذير » (فاطر : ٣٤) وقوله تعالى : « ومامندابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » (الأنعام : ٣٨) فدلّ بقوله : « إلا أممٌ أمثالكم » أنهم مُكلفون كما نحن مكلفون • ونحو تأويل قوله تعالى : « يوميُكشَف عن ساق (القلم : ٤٢) بالاعتماد على حديث مزور أو موضوع ، قائلا : عنيبه الجارحة ، وكالاستعانة باستعارات والاشتقاقات بعيدة ، كما قال بعض الناس فيالبقر : « انه انسان يبقر عن أسرار الهرم » وفي الهدهد : « انه انسان موصوف بجودةالبحث والتنقير » •

أما التأويل العلمي أو التفسير بالرأيالمحمود : فهو توضيح معاني القرآن الكريم بالاعتماد على قوانين اللغة العربية وقواعدالشريعة الاسلامية، كما بينا سابقاً في شروطه، فيصبح مقبولا لاعتماده على أسس صحيحةوقواعد وأصول ثابتة شرعاً • وقد نقل السيوطي عن الزركشي في البرهان خلاصةهذه الضوابط ، وهي أربعة ذكرها في كتابه « الاتقان في علوم القرآن ١٢٤/٢ » :

١ ـ **النقل عن الرسول ﷺ نقلا صحيحاً •**

٢ ـ **الأخذ بقول الصحابي •**

٣ ـ **الأخذ بمطلق اللغة ومراعاة الاصطلاحات الشرعية •**

٤ ـ **الأخذ بمقتضى الكلام المتبادر الذي يدل عليه قانون الشرع ، وهذا النوع هو الذي دعا به النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنه في قوله : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل » •**

والخلاصة : ان التفسير بالرأي المقبول شرعاً إعمال للعقل والفكر الذي أمر به الله تعالى في آيات كثيرة منها : « ولو ردّوه الى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » (النساء : ٨٣) ومنها : « أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها » (محمد : ٢٤) ومنها : « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » (سورة ص : ٢٩) وهو داخل فيما يجوز للنبي ﷺ من الاجتهاد فيما لم يوح اليه فيه • وهو رأي ابن تيمية والشوكاني وغيرهما •

وبالرغم من أن الامام السيوطي أقر التفسير بالرأي المحمود ، فانه التزم في تفسيره منهج التفسير بالمأثور ، فكان بحق مرجعاً غنياً بما جاء فيه روايات كثيرة في مجال تفسير مفردات الألفاظ • أما التأويل الذي يستعمل أكثره في الجمل كما أبان الراغب الأصفهاني فيحتاج الى التفسير بالدراية أو بالرأي العلمي الموضوعي المقبول شرعاً ، وهو ما لا يعرض فيه شيء من التأويلات البشعة السابق ذكرها ، نحو قوله تعالى : «لا تدركه الأبصار» (الأنعام : ١٠٣) هل هو من بصر العين أو من بصر القلب ؟•

والحق أن الاحتياط والورع والالتزام يقتضي الأخذ بالتفسير المأثور الثابت نقله ، وهو قليل • قال ابن تيمية في « مقدمة في أصول التفسير » ص ٥٨ وما بعدها : ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي الملاحم ، ولهذا قال الامام أحمد : «ثلاثة أمور ليس لها إسناد : التفسير ، والملاحم ، والمغازي » ويروي « ليس لها أصل » أي إسناد ؛ لأن الغالب عليها المراسيل (الأخبار التي رواها التابعون من غير سند متصل »مثل ما يذكره عروة بن الزبير ، والشعبي ، والزهري ، وموسى بن مسلم ، والواقدي ، ونحوهم من كتاب المغازي •

والأكثر في التفاسير المتداولة : هو التفسير بالرأي المقبول شرعاً القائم على الاجتهاد بضوابطه وشروطه المعتبرة •

☐ موازنة بين امامين في التفسير بالمأثور : الطبري والسيوطي :

جاء بعد التابعين شيخ المفسرين وإمامهم المجتهد المطلق أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ) صاحب التاريخ المعروف وصنف تفسيره المشهور « جامع البيان في تفسير القرآن » جامعاً بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي المقبول ، جمع وجوه البيان،

وأقوال العلماء ، وآراء المجتهدين ، واجتهادالصحابة والتابعين ، في المأثور والمعقول ، والرأي المتزن والمعقول السليم ، ووازن بين الآراء المختلفة ، ورجح أقربها الى الحق أو الى مفهوم اللغة التي نزل بها القرآن وكلام العرب • ورأى االطبري أن التفسير مقدمة للتأويل ، وهذا كلام سديد ومنطق صحيح ،وقال في مقدمة كتابه المذكور : (ص ٣) : « اللهم فوفقنا لاصابة صواب القول في محكم القرآن ومتشابهه ، وحلاله وحرامه ، وعامه وخاصه ، ومجمله ومفسره ،وناسخه ومنسوخه،وظاهره وباطنه ، **وتأويل** آيه ، وتفسير مشكله » • وبعد أن أورد الطبري في (٢٧/١) بعض الأخبار التي وردت بالنهي عن القول في تأويل القرآن بالرأي ، قال : وهذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلنا من أن ما كان من تأويل آي القرآن الذي لا يدرك علمه الا بنص بيان رسول الله ﷺ ، أو بنصبه الدلالة عليه ، فغير جائز لأحد القَيْل فيه برأيه • بل القائل في ذلك برأيه ، وان أصاب الحق فيه ، فمخطىء فيما كان من فعله بقَيْله فيه برأيه ؛ لأن اصابته ليست اصابة موقن أو محق ، وانما هو اصابة خارص وظان ، والقائل في دين الله بالظن قائل على الله ما لم يعلم •

ثم أورد الطبري الأخبار التي تحض على العلم بتفسير القرآن ، ثم قال في المواعظ والتبيان بقوله جل ذكره : « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مَثَل لعلهم يتذكرون • قرآناً عربياً غير ذي عِوَج ، لعلهم يتقون (الزمر : ٢٧ ـ ٢٨) **وما أشبه ذلك من آي القرآن التي أمر الله عباده** ، وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن،**والاتعاظ بمواعظه ، ما يدل على أن عليهم معرفة تأويل** ما لم يحجب عنهم تأويله من آيه ؛ **لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال ولا يعقل تأويله**:اعتبر بما لا فهم لك به ، **ولا معرفة من القَيْل والبيان ، الا معنى الأمر** بأن يفهمه ويفقهه ، ثم يتدبره ويعتبر به ، **فأما قبل ذلك،فمستحيل** أمره بتدبره ، وهو بمعناه جاهل •

وسار المفسرون من بعد الطبري على الجمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالمعقول ، واستقر ذلك منهجاً عاماً في التفاسير القديمة والمعاصرة ، وامتلأت كلها بتأويلات سائغة شرعاً ، غير مذمومة عقلا وفهماً • وأيد النيسابوري في كتابه « تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان » منهج الطبري، وهو مطبوع بهامش تفسير الطبري ويتضح ذلك فيما ذكره في ٤٩/١ في مبحث « بيان النهي عن تفسير القرآن الا بما سمعه ، فان الصحابة رضي الله عنهم قد فسروا القرآن ، واختلفوا في تفسيره على وجوه ، وليس كل ما قالوه سمعوه • كيف وقد دعا النبي ﷺ لابن عباس : « اللهم فقّهه في الدين وعلمه التأويل » فان كان التأويل مسموعاً كالتنزيل، فما فائدة تخصصه بذلك ؟ وانما النهي يحمل على وجهين :

أحدهما ـ أن يكون له في الشيء رأي ،واليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأول القرآن على وفق هواه ، ليحتج على تصحيح غرضه ••• الخ •

الثاني ـ أن يتسارع الى تفسير القرآن بظاهر العربية ، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغريب القرآن ، وما فيه من الألفاظ المبهمة والاختصار والحذف

والاضمار ، والتقديم والتأخير ، فالنقل والسماع لا بد منهما في ظاهر التفسير أولاً ليتقي بهما مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتسع للتفهم والاستنباط ٠

وطبّق الطبري منهجه في الجمع بين المأثور والمعقول في تصديه لتفسير معاني الآيات القرآنية ، فمثلاً جاء في ٤٨/١ :القول في تأويل قول تعالى « العالمين » في سورة الفاتحة ، قال أبو جعفر : والعالمون جمع عالم، والعالم جمع لا واحد له من لفظه ، كالأنام والرهط والجيش ٠٠ والعالم : اسم لأصناف الأمم ، وكل صنف منهم عالم .. فالانس عالم، وكل أهل زمان منهم عالم ذلك الزمان ، والجن عالم ، وكذلك سائر أجناس الخلق ، كل جنس منها عالم زمانه ٠٠ وهذا القول الذي قلناه قول ابن عباس وسعيد بن جبير ، وهو معنى قول عامة المفسرين ٠ ثم ذكر أقوالهم ٠

أما السيوطي فاقتصر على ايراد الآثار المختلفة ، دون تعرض لشيء من التأويل ، فكان في ذلك أقل مستوى تفسير الطبري ومنهجه الذي سار عليه جميع المفسرين ، ففي تفسيره « العالمين » في المثال السابق أورد عشر روايات عن ابن عباس وسعيد بن جبير وجابر بن عبد الله ومجاهد وغيرهم ، مفسرين العالمين بقولهم : « الجن والانس » ٠

ويظهر من ذلك أن هناك اتفاقاً بين الطبري والسيوطي في التفسير بالمأثور ويزيد الطبري عن السيوطي أنه ضم الى ذلك التفسير بالمعقول ٠ ويتضح الفرق بينهما في مثال آخر في تفسير قوله تعالى : « من يَهْدِ الله فهو المهتد ، ومن يُضلل فلن تجد له ولياً مرشداً » (الكهف : ١٧) وهو مما قد يوهم أن الانسان مسير لا مخير ، فلا نجد السيوطي في موقع تفسير هذه الآية (٣٩١/٤) يأتي بشيء فيها ، لعدم وجود الآثار في ذلك ، بينما الطبري في (١٤١/١٥) يقول في تفسيرها :

يقول الله عز وجل : من يوفقه الله للاهتداء بآياته وحججه الى الحق التي جعلها أدلة عليه، فهو المهتدي ، يقول : فهو الذي قد أصاب سبيل الحق ، ومن يضلل يقول : ومن أضله الله عن آياته وأدلته ، فلم يوفقه للاستدلال بها على سبيل الرشاد ، فلن تجد له ولياً مرشداً ، يقول : فلن تجد له يا محمد خليلاً وحليفاً يرشده لاصابتها ؛ لأن التوفيق والخذلان بيد الله ، يوفق من يشاء من عباده ، ويخذل من يريد ، يقول : فلا يحزنك إدبار من أدبر عنك من قومك وتكذيبهم اياك ، فاني لو شئت هديتُهم ، وبيدي الهداية والضلال ٠

مما سبق يتبين أن الله قادر على خلق الهداية والضلال في كل انسان ، لكنه سبحانه ترك الخيار للناس في اختيار الايمان أو الكفر، بمقتضى عقولهم ، واسترشادهم بهدي الله في كتبه السماوية وعلى أيدي أنبيائه ، فمن قصّر وأهمل البحث لمعرفة طريق الحق والايمان ، فهو المؤاخذ على ضلاله ، ويتركه الله في غيه وانحرافه ٠ ومن بحث وتوصل الى طريق الايمان والحق ، زاده الله هدى بتوفيقه في الكشف عن منارات أخرى للهداية أتم وأشمل ، وأدق وأحكم ، للاستمرار أو للثبات على منهج الحق، فاستحق هذا التأييد والعون، بعد اختياره أصل الهداية ، وأما الأول فلم يستحق التوفيق (أي الهداية) في الآية

المذكورة ، فكان عاصياً كافراً ؛ لأنه لم يختر بنفسه أصل الهداية أو الدلالة على وجود الله ووحدانيته والايمان بما أنزل الله في كتبه • ومن المعلوم أن الهداية في القرآن نوعان : هداية عامة وهداية خاصة ، والأولى هي الدلالة ، وتشمل هداية الحواس والعقل والدين • والثانية هي الاعانة والتوفيق للسير في طريق الخير والنجاة مع الدلالة •

والخلاصة : ان السيوطي يعد بحق امام المائة العاشرة ، بل والتاسعة وما بعد ذلك في التفسير بالمأثور ، فقد وفّى الموضوع حقه، وكان تفسيره شاملاً محيطاً بجميع الروايات الواردة • كما أن تفسيره يعد مجالاً رحباً لتخريج شامل وافٍ للأحاديث النبوية والآثار المنقولة عن الصحابة والتابعين في قضايا دينية كثيرة •

ولكن ينقص كل ذلك التصحيح والتضعيف فيما لم نجد فيه رواية في الكتب الصحيحة ، كما أن العزو الى كتب السنة وتخريج ما جاء فيها يحتاج أيضاً لتوثيق وتدقيق • ولا يطمئن الباحث أحياناً الى هذا الحشد من تعداد أسماء المخرّجين الا بعد الرجوع للمصادر الأصلية التي ورد فيها الحديث والأثر ، وهذا يساعدنا على تنقية مصادرنا من الروايات الموضوعة أو الضعيفة أو الاسرائيليات والأخبار غير الموثوقة أو غير المعتمدة على نقل ثابت صحيح •

★ ★ ★

إسهام السيوطي بالإفتاء

د. محمد الزحيلي

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله ، المبعوث رحمة للعالمين ، ورضي الله عن الصحابة والتابعين ، وعن العلماء العاملين ، والدعاة المخلصين ، وعنا معهم ، الى يوم الدين ٠

□ مقدمة :

يعتبر السيوطي رحمه الله تعالى من العلماء الأعلام الذين انتشر ذكرهم في الآفاق ، وتعطر أسماؤهم المجالس ، وخلف جلال الدين السيوطي ثروة علمية كبيرة ، وذكرى خالدة على مر الأجيال ٠

وهو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، الأسيوطي ، الخُضَيْري ، الملقب جلال الدين، الشهير بالسيوطي العلامة ، الفقيه الشافعي ،الحافظ ، المؤرخ ، الأصولي ، الأديب ، النحوي ، المفسر ، المفتي ، صاحب المؤلفات النافعة ٠

ولد بالقاهرة سنة ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ م ،ومات بها سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م ٠

وكان السيوطي موسوعة في ثقافته وعلمه، ونابغة في تصانيفه ومؤلفاته ، ولامعاً في حياته وشهرته ، فكان مالىء الدنيا وشاغل الناس في عصره ، وانتشرت كتبه ومصنفاته في جميع مناهل العلم ، وفي مختلف العلوم العربية والاسلامية والتاريخ والتراجم ، ولا يزال اسمه يتردد في درهات العلم والعلماء، وفي جميع البلاد ، وله شخصيته الفذة في مختلف المجالات ٠

★ استاذ في كلية الشريعة والحقوق بجامعة دمشق ٠٠ له مؤلفات في الفقه والأصول وتراجم الرجال ٠ قام بتحقيق مؤلفات تراثية منها : [أخبار القضاة لابن أبي الدم ـ شرح الكوكب المنير لمحمد الفتوحي] ٠

ونحصر حديثنا عنه في أحد جوانب حياته ، مما لم يلق الإهتمام الكثير في الدراسة عنه ، وكان أقل شأناً من غيره في حياته ، ولكنه ذو أثر باهر ، ومكانة رفيعة ، ومجال رحب في عصرنا الحاضر ، وهو اشتغال السيوطي بالافتاء ، وممارسته للفتوى ، ومساهمته في تصنيف الفتاوى التي صدرت عنه .

خطة البحث :

وقسمت الدراسة في هذا الخصوص الى ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : لمحة موجزة عن الفتوى والافتاء .

المبحث الثاني : أهلية السيوطي للفتوى .

المبحث الثالث : فتاوى السيوطي الفقهية .

خاتمة عن النتائج وخلاصة البحث ، وأهم مصادره .

ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد ، وعليه الاعتماد والتكلان .

المبحث الأول : لمحة موجزة عن الفتوى والافتاء

تعريف الفتوى والافتاء والمفتي :

الفتوى لغة من أفتى إفتاءً في المسألة ، أي أبان الحكم فيها ، والاسم الفُتْيا بالياء وضم الفاء ، والفتوى بالواو وفتح الفاء وضمها ، من أفتى العالم أي بيَّن الحكم ، والجمع الفتاوى والفتاوي ، واستفتاه : سأله أن يُفتي ، وفي الحديث الشريف : « الاثم ما حاك في صدرك ، وان أفتاك الناس وأفْتَوك »(١) ، أي وان جعلوا لك فيه رخصة ، وجوازاً .

والافتاء مصدر ، وهو بيان حكم المسألة، **والمفتي :** من يتصدى للفتوى بين الناس ،وهو الفقيه الذي يعطي الفتوى ، ويجيب عما ألقي عليه من المسائل المتعلقة بالشريعة ، والمفتي عند علماء الأصول هو المجتهد ، والمفتي في الشرع : هو المجيب في الأمور الشرعية والنوازل الفرعية .

والفتوى عند الحنفية بيان حكم المسألة، وعند المالكية : الاخبار بالحكم الشرعي على غير وجه الالزام ، والقاضي يخبر بالحكم الشرعي على وجه الالزام(٢) .

وعلم الفتوى أحد فروع علم الفقه الذي يعرفه العلماء بأنه : « العلم بالأحكام الشرعية العملية ، المكتسب من أدلتها التفصيلية » ، وجمع العلماء الفتاوى التي أصدروها في كتب

خاصة ، تسمى كتب الفتاوى ، وصار لهذه الكتب مرتبة عند الحنفية باسم الفتاوى والواقعات ، وهي مسائل استنبطها المجتهدون وأتباعهم مما سئلوا عنها ، ولم يجدوا رواية عند أهل المذهب المتقدمين ، وهم أصحاب أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد ، وأصحاب أصحابهما(٣) .

وعرف طاش كبرى زاده **علم الفتاوى** فقال : « وهو علم تروى فيه الأحكام الصادرة عن الفقهاء في الوقائع الجزئية ، ليسهل الأمر على القاصرين من بعدهم ، والكتب المؤلفة في هذا العلم أكثر من أن تحصى »(٤) .

□ أهمية الفتوى :

وتظهر أهمية الفتوى من **وظيفة المفتي**، بأنه المخبر عن حكم الله تعالى لمعرفته بدليله ، وقيل : هو المخبر عن الله بحكمه ، وقيل : هو المتمكن من معرفة أحكام الوقائع شرعاً بالدليل مع حفظه لأكثر الفقه ، لذلك كان أمر الفتوى عظيماً ، وخطرها جسيماً ، ويتوقف عندها العلماء والأتقياء والورعون خوفاً من اثمها وخطرها(٥) .

قال النووي رحمه الله : « اعلم أن الافتاء عظيم الخطر ، كبير الموقف ، كثير الفضل ؛ لأن المفتي وارث الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وقائم بفرض الكفاية ، لكنه معرض للخطأ ، ولهذا قالوا : « **المفتي موقع عن الله تعالى** »(٦) .

وأكد ابن قيم الجوزية هذا المعنى عند النووي ، مبيناً صفات المبلّغين عن الله ، وعن رسول الله ، فقال : « ولما كان التبليغ عن الله سبحانه يعتمد العلم بما يبلغ ، والصدق فيه ، لم تصلح مرتبة التبليغ بالرواية والفتيا الا لمن اتصف بالعلم والصدق ، فيكون عالماً بما يُبلغ ، صادقاً فيه ، ويكون مع ذلك حسن الطريقة ، مَرْضي السيرة ، عدلاً في أقواله وأفعاله ... ، واذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحل الذي لا ينكر فضله ، و لا يُجهل قدره ، وهو من أعلى المراتب السَّنيّات ، **فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسموات** ، فحقيق بمن أقيم في هذا المنصب أن يُعدّ له عُدّته ، وأن يتأهب له أُهبته ، وأن يعلم قَدْر المقام الذي أقيم فيه ... وكيف وهو المنصب الذي **تولاه** بنفسه رب الأرباب ، فقال تعالى « ويستفتونك في النساء ، قل : الله يفتيكم فيهن ، وما يتلى عليكم في الكتاب » النساء / ١٢٧ ، وكفى بما تولاه الله بنفسه شرفاً وجلالة ، اذ يقول في كتابه : « يستفتونك ، قل : الله يفتكم في الكلالة » النساء / ١٧٦ ، وليعلم **المفتي عمن ينوب في فتواه** ، وليوقن أنه مسؤول غداً ، وموقوف بين يدي الله »(٧) .

ويؤكد ابن القيم رحمه الله تعالى أن رسول الله ﷺ هو أول من قام بالتبليغ والافتاء، فيقول : « وأول من قام بهذا المنصب الشريف سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وخاتم النبيين، عبد الله ورسوله ، وأمينه على وحيه ، وسفيره بينه وبين عباده ، فكان يفتي عن الله بوحيه المبين ... فكانت فتاويه ﷺ جوامع الأحكام، ومشتملة على فصل الخطاب ، وهي في وجوب اتباعها وتحكيمها والتحاكم اليها ثانية الكتاب، وليس لأحد من المسلمين العدول عنها ما وجد

اليها سبيلاً »(٨) . ثم بيّن أن الصحابة قاموا بالفتوى بعده ، فقال : « ثم قام بالفتوى بعده برك الاسلام ، وعصابة الايمان ، وعسكر القرآن ، وجند الرحمن ، أولئك أصحابه ﷺ الين قلوب الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلّها تكلفاً ، وأحسنها بياناً ، وأصدقها إيماناً ، وأعمقها نصيحة ، وأقربها الى الله وسيلة ، وكانوا بين مكثرٍ منها ، ومقل ، ومتوسط»(٩) .

حكم الفتوى :

الفتيا فرض عين اذا كان في البلد مفت واحد ، وتصبح فرض كفاية اذا كان في البلد مفتيان فأكثر(١٠) ، وذلك أنه يجب على العالم أن يبين للناس حكم الله تعالى ، ولا يجوز له كتمان العلم ، أو اغفال حكم الله تعالى ، لأن الله تعالى أمر نبيه أمراً جازماً بالتبليغ ، فقال تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، ان الله لا يهدي القوم الكافرين » المائدة / ٦٧ ، وقال رسول الله ﷺ بالأمر ، فبلّغ الرسالة ، وأدى الأمانة، ثم حمّل أصحابه ، والأمة جمعاء ، التبليغ والقيام بهذا الواجب المقدس ، فقال عليه الصلاة والسلام : «بلغوا عني،ولو آية »(١١)، ورغّب رسول الله ﷺ بتبليغ أحكام الله تعالى،فقال عليه الصلاة والسلام « نضّر الله عبداً ، سمع مقالتي فوعاها وحفظها ، ثم أداها الى من لم يسمعها ، فربّ حامل فقه غير فقيه ، وربّ حامل فقه الى من هو أفقه منه »(١٢) ،لذلك يجب على المسلمين عامة ، والعلماء والفقهاء خاصة ، أن يبينوا ذلك عند السؤال والاستفتاء ، اقتداء برسول الله ﷺ ، وتحصيلا للثواب والنفع والخير في قوله ﷺ : « ما تصدق الناس بصدقة مثل علم يُنشر »(١٣) ، وقوله: « نعمَ العطية كلمة حق تسمعها ، ثم تحملها الى أخ لك مسلم فتعلّمها إياه »(١٤) ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « اذا مات ابن آدم انقطع الا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »(١٥) .

كما يجب على العلماء والفقهاء بيان الأحكام الشرعية ليسلموا من الوعيد الشديد ، والترهيب الصريح لمن كتم العلم ، فقال رسول الله ﷺ : « من سُئِل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »(١٦) .

لذلك قام العلماء والفقهاء من الصحابة فمن بعدهم بواجب الفتوى ، وبيان الأحكام الشرعية ، بعد تحصيل العلم ، ومعرفة الأدلة،وكان الأستاذ أو الشيخ يجيز الطالب بالافتاء والفتوى ، متى أنس منه الحد الكافي واللازم في حفظ الأحكام الشرعية ، وتنزيلها على الأسئلة والتطبيق العملي .

والأصل أن الافتاء واجب ديني، ولم يصبح وظيفة مرسومة ، ومنصباً رسمياً في الدولة الاسلامية الا في الخلافة العثمانية ، وكان العلماء والفقهاء يقومون بهذا المنصب الجليل من تلقاء أنفسهم ، امتثالا لأمر الله تعالى ،والتزاماً بوصية رسول الله ﷺ ، وأداء للواجب المقدس الملقى على عاتقهم بتبليغ الشرع وبيان الأحكام ، وطمعاً بالثواب الدائم والأجر العميم .

شروط المفتي :

ونظراً لأهمية الفتوى وخطورتها في أنها اظهار لحكم الله تعالى في المسألة ، وتبليغ عن رسول الله في دين الله ، وتوقيع عن رب العالمين في بيان شرعه فقد بين العلماء صفات المفتي ، وذكروا الشروط التي يجب أن تتوافر فيه ليقوم بهذا العمل الجلل((١٧) .

فقالوا ينبغي أن يكون المفتي ظاهر الورع ، مشهوراً بالديانة الظاهرة ، والصيانة الباهرة ، ويشترط فيه أن يكون مسلماً ،مكلفاً ، عدلا ، ثقة ، مأموناً ، متنزهاً عن أسباب الفسق وخوارم المروءة ، فقيه النفس،سليم الذهن ، رصين الفكر ، صحيح التصرف والاستنباط ، متيقظاً ، وينبغي أن يكون كالراوي والقاضي . لا يؤثر فيه قرابة وعداوة ، وجرّ منفعة ودفع ضرر ، لأن المفتي في حكم المخبر عن الشرع بما لا اختصاص له بشخص، فكان كالراوي ، ولكن فتواه لا يرتبط بها الزام بخلاف حكم القاضي ، وتقبل الفتوى من الحر والعبد ، والمرأة والرجل ، والأعمى والأخرس اذا كتب أو فُهمت اشارته .

واذا كان المفتي مجتهداً مستقلا ـ وهو قليل ـ فيشترط فيه أن يكون قيماً بمعرفة أدلة الأحكام الشرعية ، ومتوفراً فيه شروط الاجتهاد المعروفة في علم أصول الفقه .

أما ان كان المفتي مجتهداً مستقلا ـ وهو قليل ـ فيشترط فيه أن يكون قيماً بمعرفة أدلة الأحكام الشرعية ، ومتوفراً فيه شروط الاجتهاد المعروفة في علم أصول الفقه .

أما ان كان المفتي غير مستقل بالاجتهاد، وهو الأعم الأغلب فيشترط أن يكون فقيه النفس ، حافظاً مذهب امامه ، عارفاً بأدلته ، قائماً بتقريرها ، وأن يحسن نقل الأحكام في الأمور الواضحة ، والمسائل المشكلة ، وأن يعتمد على نصوص المذهب ، والكتب المعتمدة فيه ، والآراء الراجحة ، والأقوال الصحيحة(١٨) ، فان لم يجد حكم المسألة منصوصاً في الكتب استطاع أن يدرك أوجه الشبه والاختلاف ، ويميز بين الأشياء ، ويلحق الأشباه بالأشباه ، والأمثال بالأمثال ، فان أعجزه كل ذلك يجب أن يمسك عن الفتوى تجنباً للافتراء على الله تعالى ، وتحرزاً من الكذب ، وورعاً من القول بما لا يعلم ، وقد برهن العلماء الثقات ، والفقهاء الأعلام ، والمفتون الورعون على صدق ذلك ، والتزامه ، وتواتر عنهم كراهية الفتيا ، والتهيب منها ، والتثبت في الأحكام ، والتصريح بعدم العلم في كثير من المسائل ، والاحالة على من هو أعلم منهم ، وأنهم يضعون حديث رسول الله ﷺ أمام أعينهم ، ونصب وجوههم ، قال : « أجرؤكم على الفتيا ، أجرأ على النار »(١٩) ، ولذلك تحرم الفتوى على الجاهل باتفاق العلماء ،ولهم أقوال مأثورة في الفتوى(٢٠) .

آداب الفتوى :

ان للفتوى أحكاماً كثيرة ، وآداباً جمة ، تضمن سلامتها وصحتها ، وتعمل على تحقيق الهدف منها في معرفة حكم الله تعالى بشكل صحيح وسليم ، وهذا ما خصه العلماء بكتب وأبواب وفصول ، نشير الى بعضها .

يحرم التساهل في الفتوى ، وأن تكون حسب الأغراض الفاسدة ، والمطامع الشخصية، وأن تدور الفتوى على تتبع الحيل المحرمة ،أو المكروهة، والتمسك بالشبه طلباً للترخيص لمن يريده ، أو التغليظ لمن يكرهه ، ولذلك يجب على المفتي أن يتثبت في الواقعة والسؤال ، ولا يسرع بالفتوى قبل النظر الكافي ، والتفكير الشافي الا اذا كان المسؤول عنه مما تقدمت معرفته ، ونقل السيوطي عن سفيان بن عيينة قال : «ان العالم لا يماري ولا يداري ، ينشر حكمة الله ، فان قبلت حمد الله، وان ردت حمد الله »(٢١) ٠

وينبغي أن يكون المفتي في حالة اعتدال، ولا يفتي في حال تغير خُلُقه ، وشغل قلبه ، واضطراب نفسه، والمختار أن يتبرع بالعمل ، ولا يأخذ عليه أجراً ، الا اذا تعين رسمياً لذلك فيجب على الدولة أن تفرض له رزقاً يغنيه عن الاحتراف والحاجة والطلب ٠

ويلزم المفتي أن يبين الجواب بياناً يزيل الاشكال، وله أن يستفصل السائل، ويستفسر عن الواقعة ، ويسأل عن أطراف الحادثة ،وصيغة اليمين أو الطلاق أو الاقرار ، أو الابراء ، فان لم يجد المفتي من يسأله فصل الأقسام واجتهد في بيانها واستيفائها ، كقوله: اذا كان الأمر كذلك ٠٠٠ فكذا ، وان كان غيره ٠٠٠ فالحكم كذا ، ولذلك يجب على المفتي أن يكون حليماً رقيقاً يترفق بالناس على اختلاف مستوياتهم ، ويصبر على تفهم السؤال ، وتفهيم الجواب ، ليقع الحكم والهدف موقعه ، وان كان السؤال مكتوباً يجب أن يقرأه كاملاً ، ويتأمله ، ويتفحص القيود والشروط الواردة فيه ، ثم يكتب الجواب بخط واضح ، وعبارة دقيقة وصحيحة تفهمها العامة ، ولا يزدريها الخاصة ٠

ويستحب أن يشاور المفتي في المسألة ،وأن يباحث غيره فيها ، ولو كانوا دونه من تلاميذ وطلاب للاقتداء بالسلف في ذلك ، وأن يستعين الله تعالى في ذلك ، ويدعوه للتوفيق والسداد والرشد ، ويستعيذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم ، وأن يحمد الله تعالى ، ويصلي على النبي ﷺ ، ويقول : « رب اشرح لي صدري » ونحو ذلك ، ويختم جوابه بقوله : « وبالله التوفيق » أو « والله أعلم » أو « والله الموفق » ، ثم يكتب اسمه الكامل المعروف به ، ولا يشترط ذكر الدليل والحجة في الفتوى الا اذا كانت موجهة الى فقيه أو عالم ، ويمتنع عن الفتوى في المسائل الافتراضية التي لم تقع ، ويحاول أن يمنع السائل والمستفتي عن اثارة الفتن ، والخوض في المسائل الكلامية والغيبية ٠

ويجب على كل مسلم أن يسأل عن أحكام دينه ، ويعرف ما يخصه ، وما يعتريه ، وأن يبحث عن المفتي الذي يتمتع بأهلية الافتاء ،ويجوز له استفتاء مَنْ كونه أهلاً للفتوى ، وعليه أن يلتزم الأدب في السؤال ،والصراحة الى غير ذلك من آداب الاستفتاء الكثيرة والمكتوبة شرعاً وعقلاً وأدباً وتربية(٢٢) ٠

ويصف ابن القيم الموقعين عن الله تعالى بالأحكام بأنهم « فقهاء الاسلام ، ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام ، الذين خصّوا باستنباط الأحكام ، وعنوا بضبط قواعد الحلال والحرام ، فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء ، بهم يهتدي الحيران في الظلماء ، وحاجة الناس اليهم أعظم من حاجتهم الى الطعام والشراب ، وطاعتهم أفرض عليهم من

طاعة الأمهات والآباء ، بنص الكتاب ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولي الأمر منكم ، فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » النساء/٥٩ ، وأولوا الأمر هم العلماء »(٢٣) ٠

وقام العلماء والفقهاء بهذا العمل المقدس طوال التاريخ الاسلامي ، في كل زمان ومكان ، ولا شك أنهم على درجات ، بحسب درجاتهم في العلم والفقه والتحصيل ، والذكاء والورع والتقول ، والمكانة الاجتماعية والظروف المحيطة ٠

ومتى كان العالم متضلعاً بعلم الفقه ، وقادراً على ادراك الأحكام ، وفطناً وذكياً لاستنباط أحكام الشرع للمسائل الجديدة ، استطاع أن يبزّ غيره في الفتوى ، وأن يشتهر في البلاد والآفاق ، ويقصده الناس بالفتوى والاستفتاء ، وخاصة في بيان الأحكام التي تخص الأمة ومصيرها ومصالحها العليا وشؤونها العامة في وقت الأزمات والنكبات ، وقد تتعلق الفتوى بالحكام بما يخالف ميولهم وتوجيهاتهم ، ومن هنا تنبع خطورة منصب الافتاء وأهميته ومسؤوليته ، لينطلق العالم والمفتي بحكم الله تعالى الذي يحقق العدل ، ويقيم الحق ، ويمنع الظلم ، ويكبح جماح المعتدين والمنحرفين ٠

وظهر في التاريخ الاسلامي عدد لا يحصى من العلماء الأعلام ، والمفتون البارزون ، منهم كبار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، ومن التابعين سعيد بن جبير ، ثم الأئمة الأربعة : أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ، ثم أصحابهم كأبي يوسف ومحمد والمزني واسحاق الحربي وابن القاسم ، ثم ابن سريج وأبو حامد الاسفراييني ، ثم النووي والعز بن عبد السلام ، وابن تيمية ، والسبكي والسيوطي ، وحتى عصرنا الحاضر ٠

المبحث الثاني : أهلية السيوطي للفتوى

عرفنا سابقاً أن الفتوى فرع من علم الفقه ، وأنها تقوم على بيان الأحكام الشرعية ، وأن دراسة علم الفقه هو نقطة البداية في علم الفتوى ، وأن اتقان علم الفقه ، والتعمق في تحصيله ، والتوسع في معرفته ، هو الركن الرئيس للفتوى ، والأساس القويم لحسن القيام بها ، والنبوغ فيها ، ومتى أصبح الانسان فقيهاً ، وبلغ شأوه ، اشتهر في الآفاق ، والتف حوله الطلاب ، وقصده الناس بالسؤال ، وعظمت سمعته بين العلماء ، ليكون مفتياً باستحقاق وجدارة ، ويثبت كفاءته الغالية ٠

لذلك نبين صلة السيوطي بالفقه ، ودراسته له ، ومصنفاته فيه ، وبلوغه المرتبة العليا في تحصيله بالاجتهاد ، وتوفر أهلية الفتوى وشروطها فيه ٠

☐ السيوطي يدرس الفقه :

نشأن السيوطي في جو علمي يفوح الفقه منه من كل قطر وجانب ، ابتداء من البيت والأسرة ، الى رحاب مجالس الفقه في القاهرة ، وهي موئل العلم ، ومجمع الفقهاء ، ثم في بقية المدن العربية كما سيأتي ·

اتجه السيوطي رحمه الله تعالى بهمة ونشاط الى علم الفقه ، معترفاً بفضله ومكانته وأهميته ، فدرسه على كبار علماء عصره ، وأخذه عن جماعة من الشيوخ ، ولازم شيخ الاسلام علم الدين البلقيني في الفقه حتى مات (سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٤م)(٢٤)، فلازم ولده ، وقرأ عليه عدة كتب في الفقه الى أن أجازه بالتدريس والافتاء سنة ست وسبعين وثمانمائة ، وبعد وفاته لزم شيخ الاسلام شرف الدين المناوي ، وأخذ الفرائض ، وهو أحد فروع الفقه ، وأهم مباحثه ، وأكثر مسائله صلة بالفتوى والاستفتاء ، عن فرضي زمانه العلامة الشيخ شهاب الدين الشارمساحي ، وحفظ السيوطي كتاب « العمدة » في الفقه ، ثم حفظ «المنهاج» للنووي في الفقه ، و « المنهاج » في أصول الفقه للبيضاوي(٢٥) ·

وكان السيوطي يحب الفقه ، ويطمع أن يبلغ فيه أقصاه ، فيقول عن نفسه : « فأخذت الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ ··· » ثم يقول : « وسافرت بحمد الله تعالى الى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور ، ولما حججت شربت من ماء زمزم لأمور ، منها أن أصل في الفقه الى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني ، وفي الحديث الى رتبة الحافظ ابن حجر (العسقلاني) ، وأفتيت من مستهل سنة احدى وسبعين »(٢٦) ·

ويقول السيوطي عن نفسه : « ورزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع ، على طريقة العرب والبلغاء ، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة »(٢٧) ·

ويعترف السيوطي أنه حلّق في معظم هذه العلوم ، وفاق فيها الأقران والأشياخ ، ولكنه لم يبلغ نفس المرتبة في الفقه والفرائض ، فيقول : « والذي أعتقده أن الذي وصلت اليه من هذه العلوم السبعة ، سوى الفقه ، والنقول التي اطلعت عليها فيها ، لم يصل اليها ، ولا وقف عليه ، أحد من أشياخي ، فضلا عمن دونهم ، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه بل شيخي أوسع نظراً ، وأطول باعاً » ثم يقول : « ودون هذه السبعة في المعرفة أصول الفقه والجدل ··· ، ودونها الفرائض »(٢٨) ·

☐ السيوطي يصنف في الفقه :

ومما يدل على المكانة الفقهية التي يتمتع بها السيوطي ، والساحة الواسعة التي جال فيها ، أنه اشتغل في الفقه مدة طويلة ، وعاش في أجوائه ، ومارس العمل فيه ، وصار

له باع كبير فيه تدريساً وافتاءً ، واختصار الأشهر كتب الفقه وأهمها ، وأوسعها ، مذهب الشافعي ، ثم صنف فيه استقلالاً وتقييداً ،ولذلك نذكر أهم آثاره الفقهية ، وهي :

١ ــ مختصر « الحاوي الكبير للماوردي » وتوجد منه نسخة مخطوطة ، كاملة في المغرب .

٢ ــ مختصر « الروضة للنووي » ويسمى «القنية » .

٣ ــ مختصر « التنبيه للشيرازي » ويسمى « الوافي » .

٤ ــ مختصر « الأحكام السلطانية للماوردي »وهو في نظام الحكم ، وأجهزة الدولة ، والسياسة الشرعية .

٥ ــ الحاوي للفتاوي ، وسوف نقدم له دراسة وتحليل ان شاء الله تعالى .

٦ ــ الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية(٢٩) ، وقدمت له دراسة مستقلة في بحث خاص .

واذا أردنا التأكد من معرفة الجهد الفقهي الذي بذله السيوطي،والممارسة العملية الطويلة له في الفقه ، فاننا نشير باختصار الى هذه الكتب المصنفة، فالحاوي الكبير للماوردي من اهم كتب الفقه ، في المذهب الشافعي واوسعها مع المقارنة ببقية المذاهب ، ولايزال مخطوطاً حتى الآن ، لعجز المهتمين بالتراث عن تحقيقه وطباعته ونشره ، ويقع في ٢٤ مجلداً كبيراً مخطوطاً ، وحقق بعض طلاب الدراسات العليا باباً من أبوابه للحصول على الدرجات العلمية في الماجستير والدكتوراه ، و « روضة الطالبين » للنووي من أهم الكتب المعتمدة في المذهب الشافعي وخاصاً فيه دون مقارنة ،وطبع في ١٢ مجلداً كبيراً . و « التنبيه للشيرازي » أشهر مختصر في الفقه الشافعي ،وكان الكتاب الأساسي الذي يعول عليه الطلاب والعلماء حتى القرن السابع الهجري عند ظهور المنهاج للنووي ، وكان الفقهاء والطلاب والعلماء يتنافسون في حفظ « التنبيه » وله شروح وتعليقات كثيرة . و « الأحكام السلطانية » للماوردي أشهر كتاب في الأنظمة الاسلامية ، وخاصة في نظام الحكم ، والخلافة، والقضاء ، والحسبة ، والمظالم ، والسياسة الشرعية ، ومعظم المؤلفين عالة عليه في موضوعه . و « والأشباه والنظائر » للسيوطي أشهر كتبه الفقهية على الاطلاق ، وقد بلغ فيه القمة ، وتوج الكتب النظيرة له عند علماء الشافعية قبل السيوطي ، ثم صار مثلا للاحتذاء به والاقتداء فيه ، والسير على منواله ، كما صرح ابن نجيم الحنفي ،وسوف نخص كتاب الفتاوى الفقهية بدراسة خاصة .

☐ السيوطي يبلغ درجة الاجتهاد :

ومما يعزز مكانة السيوطي الفقهية ، وامتلاكه ناصية الفقه انه لم يقف في طلبه بدراسته والتدريس فيه ، والافتاء،والتصنيف عند حد معين ، بل قصد فيه الذروة ، وسعى الى القمة ، وحرص على الوصول الى ينابيع الفقه ومعينه ، وليبلغ درجة الاجتهاد التي وصلها الأئمة الفقهاء ، ولا يدركها الا القليل النادر ، وخاصة في القرون الأخيرة .

والاجتهاد أعظم درجات الفقه في الدين ، والتفقه في الشرع ، والاحاطة بفهم النصوص، والقدرة على الاستنباط منها ، وبذل الجهدفي معرفة الاحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية(٣٠) ، وله شروط معينة ، وصفات محددة ، ويعتمد على اتقان عدة علوم وفنون متنوعة .

والسيوطي رحمه الله تعالى توفرت فيه شروط الاجتهاد ، وكملت فيه صفاته ، وحصل العلوم المطلوبة فيه ، وخاصة العلوم الشرعية، والعلوم العربية ، وعلوم الالة ، حتى أدرك مناط البحث والاستنباط ، وعرف بنفسه ذلك ، فلم يتوار عن الانظار ، ولم يبخس نفسه حقها ، ولم يتواضع تقيّة ، فأعلن الاجتهاد ، وادعى وصوله اليه ، وانه بلغ رتبة الاجتهاد المطلق ، وكسر القيد الوهمي الذي شاع في غلق باب الاجتهاد ، وطلب السيوطي فتحه لمن توفرت فيه شروطه ، واثبت أن الاجتهاد باق في الشرع ، وأنه موجود في كل زمان ومكان ، وأقام الحجة الشرعية على ذلك، وقدم الأدلة التاريخية ، والأمثلة العملية من كبار العلماء والفقهاء في مختلف المذاهب على توالي الأزمان ، وصنف كتاباً في الاجتهاد وشروطه ، والدعوة اليه ، ووجوب إحيائه وممارسته ، وشن الهجوم على دعوى اغلاق باب الاجتهاد ، ونعى على الداعين لتركه أو التخلي عنه ، أو التواضع في اخفائه ، وأشار الى ذلك في عنوان كتابه :

« **الرد على من أخْلَدَ الى الأرض ، وجَهِل أن الاجتهاد في كل عصر فرض** »(٣١) .

ويصف السيوطي نفسه هذا الكتاب بقوله : « وهو كتاب جليل حافل ، فيه نفائس متعلقة بالاجتهاد »(٣٢) ، وعرض في الباب الأول نصوص العلماء على أن الاجتهاد في كل عصر فرض من فروض الكفايات ، وانه لا يجوز شرعاً اخلاء العصر منه(٣٣) ، وصرح في سيرته الشخصية ، فقال : « وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى ، أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى ، لا فخراً ، وأي شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها بالفخر، وقد أزف الرحيل ، وبدا الشيب ، وذهب أطيب العمر ، ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها ، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيه لقدرت على ذلك من فضل الله »(٣٤) .

ويقول السيوطي أيضاً : « **فقد بلغت ـ والحمد لله والمنّة ـ** رتبة الاجتهاد المطلق في الأحكام الشرعية ، وفي الحديث النبوي ، وفي العربية »(٣٥) ، ويقول في دعوى الاجتهاد: « فاني لم أقله في الابتداء صريحاً بلساني ، وانما ذكرت ذلك في بعض الكتب ... فنقله من قصد التشنيع ، لا الشهرة ، فلما رجعت فيه صرت أقرر لمن راجعني فيه أمره ... مع أني عددت تصدي هذا العدو لاشهاره فضلا من الله اجراء على يديه فلا أستطيع القيام بشكر عشر معشاره »(٣٦) .

ولكن العلماء لم يسلموا له هذه الدعوى، لأنه لم يبتكر أصولا للاجتهاد ، وقواعد للاستنباط مستقلة عن غيره ، ليعتمد عليها في اجتهاده ، دون أن يقلد غيره ، كما هو شأن المجتهد المطلق كامام لمذهب ، وانه اعترف أنه لم يصل في الفقه والفرائض درجة بقية

العلوم التي تبحر بها ، وأنه دون ذلك في أصول الفقه(٣٧) ، وهذا يحتاج لبحث مستقل عن « اجتهاد السيوطي » .

توفر شروط الفتوى عند السيوطي :

ان المفتي يخبر عن حكم الشرع ، ويبين حكم الله تعالى الذي عرفه ووصله اليه اما باجتهاده ، كالأئمة ، والمجتهد المطلق ، واما بما وصل اليه امام مذهبه الذي يتفق معه فيه ، أو يقلده به .

والكلام السابق يدل على أن السيوطي بلغ رتبة الاجتهاد عند تقدم السن ، ولذلك لم يمارسه بتوسع كبقية الأئمة ، ونازعه فيه غيره في هذه الدعوى ، ولكن ظهر أثر اجتهاده في عدة جوانب وكتب ، وهي :

١ ــ كتاب الاجتهاد « الرد على من أخلد الى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض» .

٢ ــ تقعيد القواعد الفقهية في كتابه : « الأشباه والنظائر » .

٣ ــ تفرد السيوطي بخمسة وثلاثين رأياً ،صنف فيها كتاباً سماه « التحدث بنعمة الله »، وختمه بهذه المسائل والآراء التي أثبت فيها اختياراته .

ويظهر من ذلك أن السيوطي مجتهد مطلق ، « وهو الذي لم يقلد امامه، ولكن سلك طريقه في الاجتهاد » ، بخلاف المجتهد المستقل « الذي استقل بقواعده لنفسه ، يبني عليها الفقه خارجاً عن قواعد المذاهب المقررة»(٣٨) .

فالسيوطي بلغ رتبة الاجتهاد المطلق ،ولكنه تابع للامام الشافعي ، وهذا ما يصرح به فيقول : « والذي ادعيناه هو الاجتهاد المطلق ، لا الاستقلال ، بل نحن تابعون للامام الشافعي رضي الله عنه ، وسالكون طريقه في الاجتهاد ، امتثالا لأمره ، ومعدودون من أصحابه »(٣٩) .

ويضاف الى ذلك خبرة السيوطي الواسعة في الفقه عامة ، وفي فقه المذهب الشافعي خاصة ، واختصاره أمهات كتب الشافعية السابقة ، كل ذلك يؤهله لمنصب الافتاء والفتوى ، وتكشف قدرته الكاملة على بيان الأحكام الشرعية ، مع التذكير والتركيز على كتابه العظيم « الأشباه والنظائر » الذي يتضمن القواعد الفقهية في فقه الشافعية ، والتي تعتبر أحد وسائل الفتوى ،والاشتهار فيها .

يقول ابن النجار الفتوحي عن القواعد الفقهية ، وأنها أحد أبواب الاستدلال للأحكام الشرعية ، « قواعد الفقه تشبه الأدلة ، وليست بأدلة ، ولكن ثبت مضمونها بالدليل ، وصارت يقضى بها في جزئياتها ، كأنها دليل على ذلك الجزئي ، فلما كانت كذلك ناسب ذكرها في باب الاستدلال »(٤٠) .

وهذا يقودنا الى بيان ممارسة السيوطي للفتوى والافتاء ، ودراسة فتاويه التي دونها بنفسه .

المبحث الثالث : في فتـاوى السيـوطي

☐ ممارسة السيوطي للفتوى :

بلغ السيوطي الأوج في علم الفقه ، وذاع صيته بين العلماء ، وانتشر اسمه في الآفاق ، واتسعت شهرته في البلاد ، والتف حوله الطلاب ليأخذوا عنه ، فدرسهم الفقه ، وحلق في أجوائه وكتبه ، ثم مارس الافتاء ، وقصده الناس بالفتوى من القاهرة ومدن مصر وغيرها ، لبيان الأحكام الشرعية في المسائل والأسئلة المعروضة عليه .

وذكر السيوطي ذلك عن نفسه ، فقال : « وأفتيت من مستهل سنة احدى وسبعين »(٤١) أي وثمانمائة للهجرة ، أي كان عمره احدى وعشرين سنة ، وقال أيضاً ، انه لازم ولد علم الدين البُلقيني ، وقرأ عليه عدة كتب في الفقه ، وأجازه التدريس والافتاء من سنة ست وسبعين وثمانمائة(٤٢) ، أي جاوز عمره ستاً وعشرين سنة .

واستمر السيوطي على ممارسة الفتوى والافتاء طوال حياته ، وصدرت عنه فتاوى كثيرة جداً في مختلف العلوم والفنون التي اتقنها واشتهر بها وجمع السيوطي نفسه أهم هذه الفتاوى في كتابه المشهور « الحاوي للفتاوي »(٤٣) ، في الفقه وعلوم التفسير والحديث وأصول الفقه وأصول الدين ، والنحو والاعراب ، وسائر الفنون ، وقال في مقدمته : « فقد استخرت الله تعالى في جمع نبذ من مهمات الفتاوى ، التي أفتيت بها على كثرتها جداً ، مقتصراً على المهم والعويص ، وما في تدوينه نفع وأجر ، وتركت غالب الواضحات ، وما لا يخفى على ذوي الأذهان القادحات ، وبدأ بالفقهيات ، مرتبة على الأبواب ، ثم بالتفسير ، ثم بالحديث ، ثم بالأصول ، ثم بالنحو والاعراب ، ثم بسائر الفنون ، افادة للطلاب ، وسميت هذا المجموع « الحاوي للفتاوي »(٤٤) .

ويظهر من هذه المقدمة أن المجموع يشتمل على الفتاوى في مختلف العلوم ، ولكن اذا أطلقت كلمة الفتوى ، أو الافتاء ، أو الفتاوى ، فانها تنصرف الى الفتاوى الفقهية لبيان الأحكام الشرعية ، وهي محل البحث ، ولذلك نقتصر على دراسة الفتاوى الفقهيات من هذا الكتاب دون غيرها ، وتقع في مائتين وتسعين صفحة من الحجم الكبير (٥ ـ ٢٩٤) ، من المجلد الأول .

☐ أهمية كتب الفتاوى :

ونحب هنا أن نشير الى أن كتب الفتاوى تعتبر من الكتب الفقهية (وتصنف مع كتب الفقه) ، ولكنها تمتاز عن بقية كتب الفقه بميزة خاصة تنفرد بها ، وقد يشاركها بها كتب أدب القضاء ، أو أدب القاضي ، أو كتب الفقه القضائية ، وتبرز هذه الميزة أهمية كتب الفتاوى والقضاء ، وتتجلى في أمرين أساسيين :

١ ـ انها أحكام واقعية ، تتصل بالواقع ومجريات الحياة ، وما يعترض طريق الناس عملياً ، وخاصة عند تطبيق أحكام الشرع والفقه في الحياة والواقع ، وما ينتج عنها

من مشكلات ، واختلافات في وجهات النظر ،فتأتي الفتوى لتزيل الاشكال ، وتكشف الطريق السوي لتطبيق الحكم عملياً ، ولا تقتصر على مجرد ذكر الأحكام وأدلتها ، وهذا ما نلاحظ بكثرة في فتاوى السيوطي الفقهية ٠

٢ ـ ان الفتاوى الفقهية ، وأحكام القضاء تعالج المسائل المستجدة التي لم يسبق عرضها في كتب الفقه ، ولم تقع في الماضي ،وكثيراً ما تكون غير مطروقة لدى الأئمة الأوائل ، والمشتغلين في الفقه ، والتأليف ،والتصنيف ، والتفريع في كتب المذاهب ٠

□ الفتاوى الفقهية للسيوطي :

ذكر السيوطي أهم فتاويه في كتابه « الحاوي للفتاوي » وقسمها الى الفقهيات ، والفتاوى المتعلقة بالتفسير، والفتاوى المتعلقة بالحديث ، والفتاوى المتعلقة بأصول الفقه ، والفتاوى المتعلقة بأصول الدين والعقيدة والتوحيد ، والفتاوى النحوية ، وفي الاعراب، والتصوف ٠

وان هذه الفتاوى وان كانت مقسمة الى هذه العلوم والفنون ، ولكن يوجد كثير من الفتاوى الفقهية في العلوم الأخرى ، ولكننا نقصر الدراسة والتحليل للفتاوى الفقهية دون غيرها مع الاشارة الى بقية الفتاوى في العلوم الأخرى مما له صلة بالفقه والأحكام الشرعية ٠

□ منهج السيوطي في الفتاوى الفقهية :

ان القارىء لهذه الفتاوى الفقهية ،والمطلع عليها ، يستطيع أن يستخرج منهج السيوطي فيها ، ويمكننا تلخيص ذلك بما يلي :

١ ـ الاعتماد على المذهب الشافعي :

اعتمد السيوطي في بيان الأجوبة ، واصدار الفتاوى ، على المذهب الشافعي ، الذي درسه وحفظه ، واتقنه ، ودرّسه ،وصنف فيه ، وصرح بالالتزام به في الغالب ، الا في حالات نادرة وصلها باجتهاده الخاص ،كما أن السيوطي في الحالتين لم يخرج على أصول المذهب الشافعي ، فقال : « ولما بلغت درجة الاجتهاد المطلق لم أخرج في الافتاء عن مذهب الشافعي رضي الله عنه ، كما كان القفّال ، وقد بلغ رتبة الاجتهاد ، يفتي بمذهب الشافعي لا باختياره »(٤٥) ٠ وقال أيضاً : « والذي ادعيناه هو الاجتهاد المطلق لا الاستقلال ، بل نحن تابعون للامام الشافعي رضي الله عنه ، وسالكون طريقه في الاجتهاد ، امتثالا لأمره ، ومعدودون من أصحابه »(٤٦) ٠

ويبين العلامة النووي أقسام المفتين ،ووصف الحالة الثانية التي تنطبق على السيوطي ، فقال : « والمفتون في الشرع قسمان ، مستقل ، وهو المجتهد المستقل في

أصوله واجتهاده كائمة المذاهب ، والمفتي غير المستقل ، وهو المنتسب الى أئمة المذاهب المتبوعة ، وهذا القسم الثاني على أربعة أحوال ، أحدها المفتي غير المقلد لامامه ، لا في المذهب ، ولا في دليله ، لاتصافه بصفة المستقل ، وان لم يستقل عملياً ، وهو يتبع مذهب امامه لا تقليداً ، بل لما وجد أن اجتهاده وقياسه أحد الطرق ، والحالة الثانية أن يكون المجتهد مقيداً في مذهب امامه مستقلا بتقرير أصوله بالدليل ، غير أنه لا يتجاوز في أدلته أصول امامه وقواعده ، وشرطه كأن يكون عالماً بالفقه وأصوله وأدلة الأحكام تفصيلا ، بصيراً بمسالك الأقيسة والمعاني ، تام الارتياض في التخريج والاستنباط ، قيماً بالحاق ما ليس منصوصاً عليه لامامه بأصوله ، ولا يعرى عن شوب تقليد له ... ثم يتخذ نصوص امامه أصولا يستنبط منها كفعل المستقل بنصوص الشرع ، وربما اكتفى في الحكم بدليل امامه ، ولا يبحث عن معارض ٠٠٠ وهذه صفة أصحابنا أصحاب الوجوه ، وعليها كان أئمة أصحابنا أو أكثرهم ، والعامل بفتوى هذا مقلد لامامه لا له »(٤٧) ٠

هذه الصورة والأوصاف تنطبق على السيوطي ، وعلى فتاويه الفقهية ، فانه ملتزم بمذهب الشافعي ، ولا مانع أن نقول كما قال النووي انه « مقلد لامامه » ، فيأخذ الأحكام من كتب الشافعية ونصوصهم ــ كما سنرى ــ ويخرج المسائل الجديدة على أصولهم وقواعدهم ، وكانت ترد عليه الأسئلة مع طلب الاجتهاد فيها ، فمن ذلك قوله : « ويرد سؤال صورته ما قول مولانا شيخ الاسلام ، حافظ العصر ، مجتهد الوقت ، عالم أهل الأرض المبعوث في المائة التاسعة ٠ ولسنا نسألكم عن مشهور مذهب الشافعي ٠٠٠ بل نسألكم عما يقتضيه الدليل والنظر من حيث الاجتهاد ، والمسؤول أن يكون الجواب على طريقة الاجتهاد »(٤٨) ٠

٢ ــ نقل النصوص من كتب الشافعية :

وهذا فرع عن منهجه السابق ، فالسيوطي يعتمد على المذهب الشافعي ، وعلى أقوال الامام الشافعي وعلى كتب الأصحاب في المذهب الشافعي ، ولكن نقله للنصوص ليس دائماً ، فان كانت الفتوى قصيرة ، وعبارة عن جواب لحكم فقهي جزئي أجاب عن السؤال ، وذكر الحكم فقط دون ايراد نص ، أما ان كانت المسألة كبيرة ، والجواب طويلا ، ويشكل بحثاً أو موضوعاً فانه يلجأ الى ايراد النصوص ٠

فمن أمثلة ذلك بحثه عن « الجهر بمنع البروز على شاطىء النهر » ص ١٣٣ ، فبين انه لا يحل التعرض في البيوت القديمة الباقية على أصولها ، وأما البروز الحادث ، وما يراد احداثه فلا يحل ذلك باتفاق المذاهب ، وأن بعض الناس يظن في المذهب الشافعي جواز البروز مطلقاً ، وليس كذلك بل شرطه أن لا يكون في شارع ، ولا في حريم نهر ، ولا نحو ذلك مما هو مبين في كتب الفقه ، ثم يقول « ذكر نقول مذهبنا : قال الرافعي في « الشرح » ، والنووي في « الروضة » ٠٠٠ ص ١٣٤ ، وقال الشيخ تقي الدين السبكي في « شرح

المنهاج » وقال ابن الرفعة في « الكفاية » ٠٠٠ص ١٣٦ ، وفي « فتاوى ابن الصلاح » ٠٠٠ ص ١٣٧ ، وقال الزركشي في « شرح المنهاج» ٠٠٠ص ١٣٥ ٠

ويقول في موضوع « كشف الضبابة في مسألة الاستنابة في الوظائف » وقد أفتيت بجوازها بما نقله الدميري في « شرح المنهاج »عن السبكي وغيره ، ثم قال : « ونبدأ بنقل كلام السبكي وغيره في ذلك ، قال السبكي في« شرح المنهاج » ص ١٥٨ ٠٠٠ ونقله الشيخ كمال الدين الدميري في « شرح المنهاج وآثره» ص ١٥٨ ٠

ويقول في مسألة الوقت : « ولنسق عبارة السبكي » ص ١٦٩ ٠٠٠ وسئل الشيخ ولي الدين العراقي فأجاب ٠٠٠ » ص ١٧٣ ٠

ولا بد من التنبيه هنا أن السيوطي ينقل نصوص الشافعية من الكتب المعتمدة في المذهب ، وعن أشهر علماء المذهب وأصحابه الذين تقبل آراؤهم وتعد وجوهاً في المذهب ٠

٣ ـ بيـان أسماء الكتب التي ينقل بها :

ويظهر منهج السيوطـي في الفتـاوى الفقهية بالأمانة العلمية ، والحرص على نقل النصوص أولا ، وتحديد اسم الكتب والمراجع والمصادر التي يعتمد عليهـا ، سـواء كانت كتباً فقهية أم غير فقهية ، وهذه أمثلة لذلك اضافة لما ورد من أسماء الكتب في النصوص السابقة :

ـ قال العما الكاتب في كتـاب « فتح بيت المقدس والبلاد الشامية ، واستخلاصهـا من يد الفرنج على يد السلطان صلاح الدين أيوب » ص ١٧١ ٠

ـ قال القاضي عياض في خطبة كتابه « الشفا » ص ٢٧١ ٠

ـ قال عبد المؤمن الأصفهاني صاحب « أطباق الذهب » في الوعظ ص ٢٧١ ٠

ـ ذكر ما استعمله الشيـخ تـاج الدين السبكي في خطبة كتاب ، « الأشباه والنظائر » من تضمين الآيات والأحاديث ص٢٦٨ ٠

ـ ذكر ما استعمله الشيخ بهـاء الدين السبكي في خطبة كتـاب « عروس الأفـراح في شرح تلخيص المفتاح » ص ٢٦٩ ٠

ـ قال الغزالي في أول كتابـه « الانتصار لما في الأجناس من الأسرار »(٤٩) ص ٢٦٦ ٠

ـ رأيت في « تاريخ من دخل مصر » للحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري ص ٢٦٦ ٠

ـ قال ابن السبكي في كتابه « الترشيح » ص ٢٣٨ ٠

ـ قال ابن الأثير في « النهاية » ص ٢٣٦ ٠

ـ وقد صرح النووي في « الروضة » ص٢٢٧ ٠

ــ وعبارة ابن أبي عصرون في « المرشد »ص ٢٢٨ ٠

ــ وعبارة صاحب « البيان » ص ٢٢٨ ٠

ــ وعبارة الشاش في « العمدة » ص ٢٢٩،قال ابن الأثير في « المثل السائر » ص ٢٦٧ ٠ « المثل السائر » ص ٢٦٧ ٠

ــ قال الجوهري في « الصحاح » ٠٠٠ ص ١٠٤ ، قال العسكري في « الأوائل » ٠٠٠ ص ٥ ، ١٠ ، قال النووي في « شرح المهذب »٠٠٠ ص ١٠٣ ٠

ونستدل من ذلك أن السيوطي رحمه الله تعالى المعتمد على مصادر كثيرة ، ومراجع عديدة ، يكوّن قائمة كبيرة ، ويجب استخراجها في « فهرس خاص للمصادر والمراجع والكتب التي وردت في الفتاوى »

٤ ــ الاشارة الى كتب السيوطي :

كان السيوطي أيضاً يشير الى كتبه ورسائله الأخرى ، ويحيل القارىء اليها اذا أراد التوسع ، أو كانت خارجة عن محل السؤال ،فمن ذلك قوله : « وسالت أن أبين لك أمر هيئة السموات والأرض بدلائل القرآن والحديث ، والجواب أن لي في ذلك تألفياً كاملا يسمى « الهيئة السنية في الهيئة السنية »وسأرسل لكم منه نسخة لي » ص ٢٦٣، وقال: وسألت عن « الرسالة التي لي في حروف التهجي » وسأرسل لكم منها نسخة» ص ٢٦٣ ٠

٥ ــ عرض آراء المذاهب :

كان السيوطي رحمه الله تعالى يذكر في المسائل الكبيرة،والفتاوى المهمة، آراء المذاهب الأخرى ، كالحنفية والمالكية والحنابلة ، وفي بعض الأحيان ينقل نصوصاً حرفية من كتبهم٠

فقال في « مسألة الجهر بمنع البروز على شاطىء النهر » : ولا يحل ذلك **باتفاق المذاهب الأربعة** ٠٠٠ وهذا هو منقول المذهب نص عليه امامنا الامام الشافعي رضي الله عنه ، وسائر أصحابه ، ولا نعلم في ذلك خلافاً في المذهب **ولا في بقية المذاهب الأربعة وأتباعهم،** متفقون على هذا الحكم ٠٠٠ » وذكر السيوطي نقول علماء المذهب الشافعي ص ١٣٤ ، ثم ذكر نقول المالكية ، فقال : « قال ابن الحاج :في « المدخل » ص ١٣٧ ، ثم ذكر نقول الحنفية، فقال : « قال : في « الهداية » ص ١٣٨ ٠٠٠وقال القدوري ٠٠٠ ص ٢٧٩ وقال صاحب « النافع » وهو الامام أبو المفاخر السويدي الزوزني ٠٠٠ ، وفي «فتاوى قاضي خان»٠٠ ص ١٤٠ ، وفي « فتاوى البزازي » ٠٠٠ وقال صاحب « الكافي » ٠٠٠ ص ١٤١ ، وفي « خلاصة الفتاوى » ٠٠٠ ص ١٤٢ ، ثم ذكر نقول الحنابلة ، قال في « المغني » وهو أجلّ كتب الحنابلة ٠٠٠ ص ١٤٣ ٠

وقال السيوطي في مسألة الاستنابة في الوظائف : : « فأفتى جماعة بجواز ذلك ، واستنيب منهم ··· كلهم من الشافعية ، ومن الحنفية، والمالكية، والحنابلة آخرون» ص١٥٨ .

وقال السيوطي في مسألة الارث : « وبأن الصواب من أفتى بعدم ارثه ··· وأنه لا خلاف فيه في مذهب الشافعي ، ومالك ، وأبي حنيفة ، وهو أصح الروايتين في مذهب أحمد بن حنبل » ص ١٧٧ ، وذكر السيوطي الدليل ونصوص الأصحاب في المذهب ، ثم نقل نصوص بقية المذاهب ، فقال : « قال صاحب « المحيط » من الحنفية ما نصه ··· ص ١٧٩ ، قال صاحب « المغني » من الحنابلة ··· وحكى الحنابلة ··· ص ١٨٠ ، وبعد ذلك قال : « عود على بدء في نقول أخرى مصرحة من كتب سائر المذاهب : قال الحري من أصحابنا في كتاب « التلخيص في الفرائض» ··· وفي الأصل لمحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ما نصه ··· ، وفي « المدونة » ··· وفي كتاب « الرابض في خلاصة الفرائض » تأليف أبي محمد عبد الله بن أبي بكر بن يحيى بن عبد السلام المالكي ما نصه ··· ص ١٨٤، وفي « المغني » لابن قدامة الحنبلي ما نصه ··· ص ١٨٥ ·

٦ ـ الاستطراد :

كان السيوطي رحمه الله تعالى يسطرد أثناء ذكر الفتاوى والأحكام الشرعية لبيان فوائد عارضة ، أو ترجمة لبعض الأعلام ·

ففي صفحة ١٠٠ يختم فتاوى كتاب البيع بعنوان « فوائد نختم بها الكتاب » ، ويذكر اثنتي عشرة فائدة في أحكام البيع ·

وفي صفحة ١٤٣ يضع عنواناً خاصاً «فائدة لطيفة » أثناء بيانه حكم البناء على حافة النهر ، ويقول : « قال ابن الحاج في «المدخل » ليس للانسان في المسجد الا موضع قيامه وسجوده وجلوسه ، وما زاد على ذلك فلسائر المسلمين ··· » ·

وفي صفحة ١٩٠ يتحدث عن حمل المولد، ويستطرد الى ترجمة أحد الأشخاص ، فيقول: « وقال ابن خلكان في ترجمة الحافظ أبي الخطاب بن دحية » ···

وفي صفحة ٢٠٥ بحث حكم الطلاق ··· ثم قال عدة مرات : تنبيه ص ٢٠٧ ، تنبيه ص ٢٠٨ ، تنبيه أربع مرات ص ٢٠٩ ، وهي تنبيهات عظيمة تتعلق بالطلاق ، وفي ص ٢١٦ ذكر فروعاً مهمة تتعلق بالطلاق ·

وفي صفحة ١٤٥ ذكر خاتمة للفتوى بمنع البروز على حافة النهر ، وأنه أرسل ذلك الى قاضي القضاة الشافعي ، فأذعن للحق ومنع نوابه من الحكم بذلك ، ثم أرشده أن يصدر حكماً عاماً بالمنع من غير تعيين خصم ودعوى ·

٧ ـ الاحتجاج بالأحاديث النبوية :

كان السيوطي رحمه الله تعالى يعتمد كثيراً على الاحتجاج بالسنة النبوية ، ويرجع الى كتب الحديث الشريف ،وينقل نصوصها ورواياتها ، وهذا أمر بدهي بالنسبة له ،وهو

المحلق في علم الحديث ، والجامع لاشتقاقه ،والمصنف فيه عدة كتب ، وقد بلغ الغاية القصوى فيه ، وكان من درجة الحفاظ ، ونكتفي ببعض الأمثلة :

في صفحة ١٤٤ ذكر الأحاديث الواردة في إثم من ظلم شيئاً من الأرض وطريق المسلمين، ونقل الأحاديث عن صحيح البخاري » ، وعن« الأدب المفرد » للبخاري ، و « المستدرك » للحاكم ، و « ذم الملاهي » لابن أبي الدنيا ،و « شعب الايمان » للبيهقي ، و « السنن الكبرى » للبيهقي ، و « مسند البزار » وعن أحمد وابن حبان والطبراني رحمهم الله تعالى .

وفي مسألة عصبة المعتق في الارث ص ١٧٧ ذكر الحاكم ، ثم قال : « وها أنا أسوق ما أورده البيهقي ثم أرتقى الى جميع ما ورد في ذلك عن الصحابة فمن بعدهم ، مسنداً مخرجاً ليستفاد » ص ١٨١ .

وفي مسألة براءة براءة الذمة ص ١٠٩ ذكر الحاكم ، ثم قال : « وها أنا أسوق ما أورده البيهقي ثم ارتقى الى جميع ما ورد في ذلك عن الصحابة فمن بعدهم ، مسنداً » مخرجاً ليستفاد » ص ١٨١ .

وفي مسألة براءة الذمة ص ١٠٩ يستطرد الى حديث كفارة الاغتياب بالاستغفار فيبين أنه لا يحتج به ، وقواعد الفقه تأباه ، ثم يذكر الآثار في ذلك عن أبي الدنيا في كتاب « الصمت » ، والطبراني في « الأوسط »والأصبهاني في « الترغيب » ... ، ويذكر عدة أحاديث ، ويبين وجه الاحتجاج بها ، وفيه مسألة قراءة القرآن بالألحان يبين الحكم ثم يستدل على كل شطر فيه بالأحاديث الشريفة ص ٢٥١ .

وفي صفحة ١١ يذكر الحديث المسلسل بالتشبيك (أي تشبيك الأصابع) .

٨ ـ تقسيم الفتاوى على أبواب الفقه :

رتب السيوطي فتاويه الفقهية على أبواب الفقه ، وصرح ذلك في المقدمة ، ويضع عناوين كتب الفقه الرئيسة ، ويذكر بعدها عدداً من الأبواب ، وجاءت كما يلي مع الاختصار :

كتاب الطهارة ص ٥ وفيه أبواب الآنية،أسباب الحدث ، الوضوء ، مسح الخف ، الغسل ، النجاسة ، التيمم ، الحيض ص ٢٥ .

كتاب الصلاة ص ٢٧ ، وتحته أبواب ومسائل ، كتاب الجنائز ص ٨٣ ، كتاب الزكاة ص ٨٧ ، كتاب الصوم ص ٩١ ، كتاب الحج ص ٩١ .

كتاب البيع ص ٩١ وتحته سائر أبواب المعاملات .

باب احياء الموات ص ١٢٧ ،باب الوقف ص ١٩٤ ، الفرائض ص ١٧٦ ، الوصايا ص ١٨٥ .

كتاب النكاح ص ١٨٧ ، كتاب الصداق ص ١٨٨ ، باب الخلع ص ١٩٧ ، باب الطلاق ص ١٩٨ ، باب اللعان ص ٢٢٢ .

كتاب النفقات ص ٢٢٣ ، باب الجهاد ٢٤٣ ، كتاب الصيد والذبائح ص ٢٤٦ ، باب الأطعمة ص ٢٤٧ ، كتاب الأعيان ص ٢٤٧ ، كتاب الأضحية ص ٢٤٨ ، باب الدعوى والبينات ص ٢٤٩ ، باب الشهادات ص ٢٥١، قراءة القرئن بالألحان ص ٢٥١ ، باب جامع ص ٢٥٣ عن الاشتغال بالمنطق وضرب المثل من القرآن .

وختم السيوطي الفتاوى الفقهية بأسئلة واردة من التكرور ، وأجاب عنها ووضع لها عنواناً مستقلا ص ٢٨٤ ــ ٢٩٤ ، وهذا ينقلنا الى المسائل الخاصة .

٩ ــ المسائل الخاصة والتآليف المفردة :

أفرد السيوطي بعض المسائل بالبحث والدراسة ، والتمحيص والاستدلال ، ووشحها بالنصوص الفقهية ، والأحاديث النبوية ،ووضع لها عنواناً مستقلا ، لكنه وضعها ضمن أبوابها الفقهية .

وهذه المسائل الخاصة مهمة ، لذلك افردها بالتأليف ، ولذلك يحسن أن نعددها وقد جاوزت الأربعين مسألة ، وهي :

١٤ـ بذل الهمة في طلب براءة الذمة ص ١٠٩ ·

١٥ـ هدم الجاني على الباني (لخربة بجوار المسجد) ص ١١٣ ·

١٦ـ البارع في اقطاع الشارع ص ١٢٧ ·

١٧ـ الجبر بمنع البروز على شاطىء النهر ص ١٣٣ ·

١٨ـ الانصاف في تميز الأوقاف ص ١٥٥ ·

١٩ـ كشف الضبابة في مسالة الاستنابة ص ١٥٨ ·

٢٠ـ المباحث الزكية في المسألة الدروكية (الوقف) ص ١٦٣ ·

٢١ـ القول المشيّد في الوقف المؤبد ص ١٦٦ ·

٢٢ـ البدر الذي انجلى في مسألة الولا ص ١٧٧ ·

٢٣ـ حسن المقصد في عمل المولد ص ١٨٩ ·

٢٤ـ القول المغني في الحنث في المعني ص ٢٠٨ ·

٢٥ـ فتح المغالق من أنت تالق ص ٢١٦ ·

٢٦ـ المنجلي في تطور الولي ص ٢١٧ ·

٢٧ـ النقول المشرقة في مسألة النفقة ص ٢٢٥ ·

٢٨ـ تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء ص ٢٣٢ ·

٢٩ـ حسن التصريف في عدم التحليف ص ٢٤٩ ·

٣٠ـ القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق ص ٢٥٥ ·

٣١ـ رفع الهاس وكشف الالتباس في ضرب المثل من القرآن والاقتباس ص ٢٥٦ ·

٣٢ـ فتح المطلب المبرور وبرد الكبد المحرور في الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور ص ٢٩١ ·

هذه هي المسائل والرسائل التي وردت في قسم الفتاوى الفقهية ، وورد عدد آخر في الفتاوى القرآنية والأصولية والحديثية ، نشير الى بعضها ، اثنتان في تتمة الجزء الأول، والباقي في الجزء الثاني ·

١ ـ القذاذة في تحقيق محل الاستعاذة ص ٢٩٧ ·

٢ ـ القول الفصيح في تعيين الذبيح ص ٣١٨ ·

٣ ـ المنحة في السبحة ص ٢ ·

٤ ـ حسن التسليك في حكم التشبيك ص ٩ ٠

٥ ـ شد الأثواب في سد الأبواب (على المسجد) ص ١٢ ٠

٦ ـ رفع الخدر عن قطع السِّدْر ص ٢٤ ٠

٧ ـ العرف الوردي في أخبار المهدي ص ٥٧ ٠

٨ ـ كشف الريب عن الجيب ص ٩٣ ،الى غير ذلك من الرسائل ٠

ونلاحظ أهمية هذه الرسائل والمسائل من عناوينها ، وأن السيوطي استعمل فيها السجع في العنوان ، وهي عادة المؤلفين والأدباء والكتاب في تلك النصوص ، مع قدرة السيوطي اللغوية ٠

١٠ ـ الاطالة والاختصار في الأجوبة :

نلاحظ أن السيوطي رحمه الله تعالى يذكر في هذه الرسائل ـ بعد السؤال والحمدلة ـ يذكر الحكم الفقهي ، والجواب الصريح والمختصر للمسألة ، ثم يتوسع بذكر الأدلة من القرآن الكريم ، والسنة الشريفة ، وآثار الصحابة ، وأقوال العلماء ، ونصوص الفقهاء ، مع المناقشة والتعليل ، والترجيح ، وتوجيه الأقوال والعبارات ، ثم يختم المسألة غالباً بالتذكير بالحكم الراجح الذي بدأ به كلامه ٠

أما أكثر الفتاوى الأخرى فكانت مختصرة وموجزة ، وجاء بعضها بكلمة كالجواب عن مسألة في باب الفرائض عن ارث البنت مع ابن ابن ، فهل يكون ارثها بالفرض أو بالتعصيب ، فقال السيوطي : « بالفرض » ص ١٧٦ ،وجاء بعض الفتاوى بسطر وسطرين ، وجاء كثير منها في بضعة أسطر ، وقد يسهب في بعضها بمقدار صفحة وأكثر ، وفي هذه الحالة الأخيرة يلتزم منهجه في الرسائل بذكر الحكم موجزاً مختصراً ، ثم يفصل ويوسع ويستدل ، ويذكر النصوص والآراء والأدلة ٠

١١ ـ التاريخ والدعاء :

كان السيوطي يؤرخ بعض الأسئلة ،ويذكر تاريخ الفتوى ، فمن ذلك قوله :

« وكانت هذه الفتوى والتأليف في صفر سنة ست وسبعين وثمانمائة » ص ٥٩ ، ومنها تاريخه للأسئلة الواردة من بلاد التكرور بأفريقيا في شوال سنة ثمان وتسعين وثمانمائة .» ص ٢٨٤ ، وجاءت هذه الأسئلة بكتاب اسمه« مطلب الجواب بفصل الخطاب » وفي آخرها اسم السائل محمد بن محمد بن علي اللمتوني، مع ابداء محبته للسيوطي وشوقه للقائه ، وطلب الدعاء منه ص ٢٩١ ٠

وكان السيوطي في الغالب يدعو لنفسه وللسائل في نهاية الفتوى ، فقال في ختم فتاويه عن الأسئلة التكرورية دعاء ، ونصه :« واني أحبك في الله ، كما أحببتني ، ونرجو

من فضل الله أن يجمعنا في الجنة من غير عذاب سبق ، ولا تنسني من دعائك ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » ص ٢٩٤ ، وهذا يدل على أنه يمارس الافتاء وهو في أوج مكانته العلمية ، وشيوع شهرته في الآفاق .

وقال في فتوى منظومة في الفرائض :

« وناظمه ابن السيوطي يرجو   من الرحمن عفواً في المآب »

وقال في فتوى في الرهن ص ١٠٦ :

« قد خط معتمداً أحكام مذهبه   هذا جواب ابن السيوطي مستطراً »

وهذا ينقلنا للنقطة الأخيرة في منهجه .

١٢ ـ النظم والأشعار :

كانت بعض الأسئلة ترد على السيوطي نظماً ، فكان يجيب عليها بالنظم (ص ١٧٦)، ص ١٠٦ ، ص ٢٥ ، ص ١٠٨ ، ولم تـزد على بعض الحالات الأخرى ، وفي مسألة حكم البناء على حافة النهر أجاب عنها مطولا ، ثم ختم الحكم بقصيدة ص ١٤٥ وقال : « وقد ختمت هذا المؤلف بقصيدة نظمت فيها المسألة لأن النظم أيسر للحفظ ، وأيسر على الألسنة، وسميتها « النهر ان برز على شاطىء النهر »، وجاءت في ٦٧ بيتاً ، وتكرر مثل ذلك في الفتاوى القرآنية ص ٣١٦ ، ٣١٧ ، والفتاوى الحديثة ص ٣٧٣ .

كما كان السيوطي ، وهو اللغوي البارع ، والأديب اللامع ، يستشهد في بعض الفتاوى بأبيات من الشعر ، وينسبها الى أصحابها الشعراء (ص ٢٣٣ ، ٢٣٤) ولكنه أكثر من ذلك في مسألة « رفع الباس وكشف الالتباس في ضرب المثل من القرآن والاقتباس» ص ٢٥٩ ، ونقل الشواهد الشعرية الكثيرة عن العلماء بجواز ذلك .

□ الخاتمة :

ونلخص من هذا البحث الى بيان النتائج التالية :

١ ـ **الفتوى والافتاء علم شرعي** ، وهو فرع من علم الفقه لبيان حكم الله تعالى ، وأن المفتي هو العالم بالشرع وأحكام الدين ليبينها للناس ، ولها أحكام خاصة ، وآداب رفيعة ، وقواعد محددة ، وهي في الأصل ليست منصباً رسمياً ، بل هي وظيفة كل عالم وفقيه في الشرع ، وبرز في التاريخ الاسلامي أعلام في الفتوى ، كما ظهر فيها كتب عديدة ، أصبحت أحد المصادر الفقهية ، ومن أهم المراجع للعلماء طوال التاريخ الاسلامي وحتى يومنا الحاضر .

٢ ـ كان **السيوطي من كبار الفقهاء في المذهب الشافعي** ، فدرسه مبكراً على عدد من العلماء ، ثم قام بتدريسه ، ثم **مارس الفتوى والافتاء طوال أربعين سنة** من عمره ، وأنه

كان يتلقى الفتاوى من مختلف البلاد ، وقد صنفت الكتب العديدة في الفقه على المذهب الشافعي ، وعايش أمهات كتب الشافعية ، واختصر أهمها ، واعتمد على باقيها في تصانيفه وفتاويه .

٣ ـ ان فتاوى السيوطي عامة ، **والفتاوى الفقهية له خاصة ذات أهمية كبيرة** من الناحية الموضوعية والعلمية والفقهية ، وهي مرجع فقهي ممتاز ، ومصدر أصيل ، كما تحتل نفس الأهمية في عرض المسائل الواقعية في الحياة ، وما يتكرر وقوعه من الناس ، وما يشيع في التعامل ، مما تساعد الطالب والفقيه والعالم والمفتي في عصرنا الحاضر من الاعتماد عليها ، والرجوع اليها ، والاستفادة منها ، لغة وأدباً ، وفقهاً وحديثاً ، وحكمة وفوائد متنوعة ، وجاءت بأسلوب مشرق ، وعبارة رصينة ، وأدب رفيع ، وتنوع في الصياغة والأسلوب والعرض بما يشوق القارىء اليها ، ويأنس لقراءتها ، ويستمتع بمعرفة ما جاء فيها ، ويحرص على الاستمرار والدوام في مطالعتها .

٤ ـ وأخيراً نقدم توصية بأن **تطبع فتاوى السيوطي مجدداً** ، وتخدم بالفهارس ، ليتم الانتفاع بها ، والاستفادة منها .

رحم الله السيوطي رحمة واسعة ، وجزاه الله خير الجزاء ، ونفعنا الله بعلمه الذي يزيد في حسناته ، ويستمر في صحائفه ، وأكثر الله من أمثاله .

وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين .

□ الحواشي :

١ ـ هذا جزء من حديث رواه الامام احمد والدارمي عن وابصة ، مسند احمد ٢٤٦/٢ ، سنن الدارمي ٢٤٦/٢ .

٢ ـ انظر : القاموس المحيط ٣٧٣/٤ ، مختار الصحاح ص٤٩١ ، المصباح المنير ٦٣١/٢ ، القاموس الفقهي ص ٢٨١ ، دستور العلماء ١٤/٣ .

٣ ـ القاموس الفقهي ص ٢٨١ ، دستور العلماء ١٤/٣ ، كشف الظنون ١٦٤/٢ ، عرنوس ص ١٥٧ .

٤ ـ مفتاح السعادة ٦٠١/٢ .

٥ ـ انظر : صفة الفتوى والمفتي والمستفتي ، لابن حمدان ص ٤ ، عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام ، للمرادي ص ٤ وما بعدها ، سنن الدارمي ٤٦/١ ، ٥٠ وما بعدها .

٦ ـ المجموع ٦٧/١ .

٧ ـ اعلام الموقعين ١١/١ ، وانظر صفات المفتي في المجموع ٦٩/١ ، عَرف الشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام ص ٧ .

٨ ـ اعلام الموقعين ١١/١ وما بعدها .

٩ ـ اعلام الموقعين ١٢/١ .

١٠ ـ المجموع ٧٥/١ ، صفة الفتوى ص ٦ .

١١ ـ هذا حديث صحيح رواه البخاري والامام احمد والترمذي عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما (صحيح البخاري ١٢٧٥/٣ ، الفتح الكبير ٩/٢) .

١٢ ـ رواه الامام احمد والترمذي وابن حبان عن ابن مسعود ، واحمد وابن ماجه عن انس ، واحمد وابن ماجه والحاكم عن جبير بن مطعم ، وابو داود وابن ماجه عن زيد بن ثابت ، بالفاظ متقاربة (الفتح الكبير ٢٦٢/٣ ، ٢٦٣) .

١٣- رواه الطبراني عن سمرة بن جندب (الترغيب والترهيب١/١١٩) .
١٤- رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً (الترغيب والترهيب ١/١١٩) .
١٥- رواه مسلم عن أبي هريرة (صحيح مسلم بشرح النووي ١١/٨٥) .
١٦- رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة (مسند احمد ٢/٢٦٢ ، سنن أبي داود ٢/٢٨٨ ، جامع الترمذي ٧/٤٠٧ ، سنن ابن ماجه ق/٩٧ ، المستدرك ١/١٠١) .
١٧- انظر : المجموع ١/٦٩ - ٧٥ ، صفة الفتوى ص ١٣ ، شرح الكوكب المنير ٤/٥٥٧ ، عَرف البشام ص ٧ .
١٨- انظر : المجموع ١/٧٨ .
١٩- هذا الحديث رواه الدارمي (سنن الدارمي ١/٥٧) .
٢٠- أنظر : المجموع ٦٧ ، صفة الفتوى ٦ وما بعدها ، اعلام الموقعين ، ١/٣٤ وما بعدها ، الموافقات للشاطبي ٤/١٦٤ وما بعدها .
٢١- الحاوي للفتاوي ١/١١٤ .
٢٢- انظر : المجموع ١/٧٥ وما بعدها ، شرح الكوكب المنير ٢/٥١١ وما بعدها ، صفة الفتوى ص ٢٩ وما بعدها .
٢٣- اعلام الموقعين ١/١٠ .
٢٤- هو شيخ الاسلام صالح بن عمر بن رسلان البكتيني ، القاضي ، من علماء الحديث والفقه الشافعي ، وهو ابن شيخ الاسلام سراج الدين البكتيني المشهور (ت٨٠٥هـ) ، وجمع فتاوى والده ، وتصدر للافتاء والتدريس ، وولي قضاء الديار المصرية ، وتوفي وهو على القضاء ، ودرس عليه السيوطي الفقه ، وأجازه بالتدريس ، ثم درس على ولده (الاعلام ١/١٧١ ، حسن المحاضرة ١/٤٤٤ ، ٤٤٥) .
٢٥- انظر حسن المحاضرة للسيوطي ١/٢٣٦ ، ٣٣٧ ، ويكثر اسم كتابه (عمدة الأحكام ، في الفروع الفقهية ، وهو للشيخ أبي محمد عبدالله بن أحمد ، موفق الدين بن قدامة الحنبلي المقدسي المتوفى سنة ٦١٠ هـ ، وهو مختصر في العبادات الخمس وسائر ابواب الفقه (كشف الظنون ١/١٣١) وللشيخ عبدالقاهر الجرجاني «العمدة» في التصريف ، وللفقيه أبي بكر الشاشي الشافعي « والعمدة » في الفقه ، وهذا هو المراد في كلام السيوطي ، لانه صرح بالنقل عنه في فتاويه (انظر : الحاوي للفتاوى ص ٢٢٩) .
٢٦- حسن المحاضرة ١/٣٣٦ ، ٣٣٨ .
٢٧- حسن المحاضرة ١/٣٣٨ .
٢٨- المرجع السابق .
٢٩- كشف الظنون ١/١٠٦ .
٣٠- هذا ما يبينه العلماء في كتب علم أصول الفقه الاسلامي ، انظر على سبيل المثال : نهاية السول في شرح منهاج الأصول للبيضاوي ، والشرح للاسنوي ٤/٥٢٤ .
٣١- طبع الكتاب عدة مرات ، منها طبعة دار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٤٠٣ هـ/١٦٨٣ م بتقديم وتحقيق الشيخ خليل الميس ، ومنها طبعة مؤسسة شباب الجامعة بالاسكندرية سنة ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م بتحقيق الدكتور فؤاد عبدالمنعم .
٣٢- الرد على من أخلد الى الأرض ، مقدمة المحقق فؤاد عبدالمنعم ص ١١ .
٣٣- المرجع السابق ص ٢١ .
٣٤- حسن المحاضرة ١/٣٣٩ .
٣٥- الرد على من اخلد الى الأرض ، مقدمة المحقق خليل الميس ص ١٥ .
٣٦- المرجع السابق ص ١٣ .
٣٧- حسن المحاضرة ١/٣٣٨ ، الرد على من أخلد الى الأرض، مقدمة خليل الميس ص ١٣ .
٣٨- الرد على من أخلد الى الأرض ص ١١٢/١١٥ ، تحقيق الميس .
٣٩- الرد على من أخلد الى الأرض ص ١١٦ ت. الميس ، ص ٩٨ ت. عبدالمنعم .
٤٠- شرح الكوكب المنير ٤/٤٣٩ .
٤١- حسن المحاضرة ١/٣٣٨ .

٤٢ـ انظر : حسن المحاضرة ١/٣٣٧ .
٤٣ـ طبع كتاب « الحاوي للفتاوي » عدة مرات ، احسنها واجودها الطبعة المنيرية بالقاهرة سنة ١٣٥٢ هـ ، ويقع الكتاب في مجلدين كبيرين ، جاء الأول في ٤٠٠ صفحة ، والثاني في ٣٥٤ صفحة مع الفهارس .
٤٤ـ الحاوي للفتاوى ص ٥ .
٤٥ـ الرد على من اخلد الى الارض ص ١٤ تحقيق خليل الميس .
٤٦ـ المرجع السابق ص ١١٦ .
٤٧ـ المجموع ١/٧٠ـ٧٢ باختصار وتصرف ، ونقل هذا النص السيوطي عن النووي في اقسام المجتهد المطلق في كتابه « الرد على من أخلد الى الأرض » ص ١١٢ ـ ١١٤ .
٤٨ـ الحاوي للفتاوي ١/١١ـ١٢ .
٤٩ـ ورد اسم الكتاب خطأ في « الفتاوى ، لاختصار لما في الاحياء من الأسرار » والصواب من كشف الظنون ١/١٥٣ .

☐ أهم مصادر البحث :

١ ـ الإعلام ، خيرالدين الزركلي ـ الطبعة الثالثة ، بيروت .
٢ ـ اعلام الموقعين ، ابن قيم الجوزية ٧٥١ هـ ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ـ ١٣٨٩ هـ/١٩٦٩ م .
٣ ـ الترغيب والترهيب ، الحافظ المنذري ٦٥٦ هـ ـ مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م .
٤ ـ الحاوي للفتاوى ، جلال الدين السيوطي ٩١١ ـ ادارة الطباعة المنيرية ـ القاهرة ـ ١٣٥٢ هـ .
٥ ـ حسن المحاضرة ، جلال الدين السيوطي ٩١١ هـ ـ دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م .
٦ ـ دستور العلماء = جامع العلوم ، عبدالنبي عبدالرسول الأحمد نكري ـ الطبعة الأولى ـ الهند .
٧ ـ الرد على من أخلد الى الأرض /جلال الدين السيوطي ٩١١ هـ ـ ت. خليل الميس ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م + ت. الدكتور فؤاد عبدالمنعم احمد ، نشر مؤسسة شباب الجامعة ـ الاسكندرية ـ ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
٨ ـ شرح الكوكب المنير ، لابن النجار الفتوحي الحنبلي ٩٧٢ هـ ـ نشر جامعة أم القرى بمكة المكرمة ـ ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م .
٩ ـ صحيح البخاري ، محمد بن اسماعيل البخاري ٢٥٦ هـ ـ دار القلم ـ دمشق ـ ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م .
١٠ـ صحيح مسلم بشرح النووي ، مسلم بن الحجاج القشيري ٢٦١ هـ ـ المطبعة المصرية ـ القاهرة .
١١ـ صفة الفتوى والمفتي والمستفتي ، ابن حمدان الحراني الحنبلي ٦٩٥ هـ ـ المكتب الاسلامي ـ بيروت ١٣٩٤ هـ .
١٢ـ عَرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام ـ المرادي ١٢٠٦ هـ ـ مطبوعات مجمع اللغة العربية ـ دمشق ـ مطبعة زيد بن ثابت ـ ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م .
١٣ـ الفتح الكبير في ضم الزيادات الى الجامع الصغير للسيوطي ، ترتيب النبهاني ١٢٥٠ هـ ـ عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٥٠ هـ .
١٤ـ القاموس الفقهي ـ المستشار سعدي أبو جيب ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م .
١٥ـ كشف الظنون ، كاتب جلبي حاجي خليفة ١٠٦٧ هـ ـ طبعة استنبول ـ ١٣٥١ هـ .
١٦ـ المجموع شرح المهذب ، للنووي ٦٧٦ هـ ـ مطبعة العاصمة ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .
١٧ـ المستدرك على الصحيحين ، أبو عبدالله الحاكم ٤٠٥ هـ ـ طبع حيدر آباد ـ الهند ـ ١٣٣٥ هـ .
١٨ـ مسند أحمد ، الامام أحمد بن حنبل ٢٤٢ هـ ـ تصوير المكتب الاسلامي ـ بيروت ـ ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م .
١٩ـ الموافقات في أصول الأحكام ، الشاطبي ٧٩٠ هـ ـ مطبعة المدني ، نشر مكتبة صبيح ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ م .
٢٠ـ نهاية السول شرح منهاج الأصول للبيضاوي ٦٨٥ هـ ، جمال الدين الاسنوي ٧٧٢ هـ ـ تصوير عالم الكتب ـ بيروت ١٩٨٢ م عن المطبعة السلفية ـ القاهرة ـ ١٣٤٥ هـ .

الألفاظ المعرّبة في القرآن الكريم وموقف السّيوطي منهُ

محمد يوسف الشربجي

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وبعد :

مقدمة :

فان الكلام عن المعرب في القرآن الكريم من المواضيع المهمة لما له من تاثير على الدراسات العربية ، الدينية واللغوية ٠وقد تباينت وجهة نظر العلماء في وقوع المعرب في القرآن الكريم قديما ، وتضاربت حوله الآراء قديما وحديثا ٠

والسيوطي ، ذاك الامام الموسوعي ، لم يترك فناً من الفنون الا اخذ منه بقبس وتناوله بطرف ، وقد ألّف في هذا الموضوع أكثر من كتاب منها : المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب ، والمتوكلي فيما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية والنبطية والقبطية والسريانية والعبرانية والرومية والبربرية ، بالاضافة الى ما ذكره في كتابه الاتقان في علوم القرآن ، في النوع الثامن والثلاثين ، فيما وقع فيه بغير لغة العرب ، والذي لخصه من كتاب المهذب ٠وقد بيّن رأيه في ذلك بصراحة ووضوح ٠

وساتناول في بحثي هذا آراء العلماء من المعرب ، وموقف السيوطي منه ٠ من خلال مؤلفاته السابقة وبيان منهجه فيها ٠

تعريف المعرّب : هو ما استعمله العرب من الألفاظ الموضوعة لمعان في غير لغتها(١) ٠

قال الجوهري : تعريف الاسم الأعجمي : أن تتفوه به العرب على منهاجها تقول : عربته العرب وأعربته أيضا(٢) ٠

والتعريب : هو نقل اللفظ من العجمية الى العربية(٣) ٠

★ محقق وباحث في التراث العربي ٠٠ حقق تفسير ابي العباس المهدوي٠٠ كما حقق /الوصية الموجزة لابن قدامة/ ٠

آراء العلماء ، وموقفهم من المعرَّب في القرآن الكريم :

تباينت آراء العلماء في هذه المسألة ، ما بين مانع من ذلك ، وقائل بالوقوع ، ومتوسط بينهما.

١ ـ القائلين بالمنع وأدلتهم :

ذهب الامام الشافعي وابن جرير الطبري وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر وابن فارس الى عدم وقوع المعرَّب في القرآن الكريم ، مستندين في ذلك الى قوله تعالى « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (يوسف : ٢) ، وقوله تعالى :« ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصِّلت آياته ، أأعجمي وعربي ، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ... » (فصِّلت : ٤٤) .

وقد فصَّل الامام الشافعي القول في المسألة ورداً على المخالفين فقال :

« ومن جماع علم كتاب الله : العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب ... وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الامساك أولى به وأقرب من السلامة له إن شاء الله ، فقال قائل منهم : إن في القرآن عربياً وأعجمياً والقرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب .

... ولعل من قال : ان في القرآن غير لسان العرب وقُبل ذلك منه : ذهب الى أن من القرآن خاصاً يجهل بعضه بعض العرب ، ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها الفاظاً ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي ، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها ، حتى لا يكون موجوداً فيها من يعرفه(٤) .

ويحمل الامام الشافعي (رضي الله عنه) ما نطقت به العجم من لسان العرب على التعلم فيقول « فان قال قائل : فقد نجد من العجم من ينطق بالشيء من لسان العرب ؛ فذلك يحتمل ما وصفت من تعلمه منهم ، فان لم يكن من تعلمه منهم فلا يوجد ينطق الا بالقليل منه ، ومن نطق بقليل منه فهو تبع للعرب فيه »(٥) . ومهما كان الأمر فهو يحمل على التوافق أو التوارد وهذا ما أكده الامام الشافعي في رسالته حيث يقول « ولا ننكر اذ كان اللفظ قيل تعلماً أو نطق به موضوعاً **أن يوافق لسان العجم** أو بعضها قليلاً من لسان العرب كما يا تفق(٦) القليل من ألسنة العجم المتباينة في أكثر كلامها مع تنائي ديارها ، واختلاف لسانهما ، وبعد الأواصر بينها وبين من وافقت بعض لسانه منها »(٧) .

وبعد أن فصَّل الامام الشافعي المسألة أتى بالدليل والحجة على رأيه فقال « فان قال قائل : ما الحجة في أن كتاب الله محض بلسان العرب ،لا يخلطه فيه غيره ؟ فالحجة فيه كتاب الله قال الله (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) (ابراهيم:٤) .

فان قال قائل : فان الرسل قبل محمد (ص) كانوا يرسلون الى قومهم خاصة ، وإن محمداً بعث الى الناس كافة فقد يحتمل أن يكون بعث بلسان قومه خاصة ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه وما أطاقوا منه ، ويحتمل أن يكون بعث بألسنتهم : فهل من دليل على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم ؟ فاذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض فلا بد أن

يكون بعضهم تبعاً لبعض ، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع ، وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي ، ولا يجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد ، بل كل لسان تبع للسانه ، وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه ، وقد بيَّن الله ذلك في غير آية من كتابه :

قال الله تعالى « وإنه لتنزيل ربّ العالمين ، نَزَلَ به الرُّوحُ الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين » (الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥) . وقال « وكذلك أنزلناه حُكماً عربياً » (الرعد : ٣٧) .

وقال « وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً لتنذر أمّ القرى ومن حولها » (الشورى : ٧) .

وقال « حم . والكتاب المبين . إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (الزخرف : ١ـ٣) .

وقال « قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون » (الزمر : ٢٨) .

قال الامام الشافعي بعد ذلك(٨) : فأقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها ، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه ـ جلّ ثناؤه ـ كل لسان غير لسان العرب ، في آيتين من كتابه :

فقال الله تبارك وتعالى « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يُعلّمه بشر" ، لسان الذي يُلحدون اليه أعجمي" ، وهذا لسان عربي" مبين » (النحل: ١٠٣) .

وقال « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصِّلت آياته ، أأعجمي وعربي » (فصّلت:٤٤).

قال الامام الشافعي : وعرّفنا نعمة بما خصّنا به من مكانة فقال : « لقد جاءكم رسول" من أنفسكم ، عزيز" عليه ما عنتّم ، حريص" عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » (التوبة : ١٢٨) .

الى آخر ما ذكره الامام الشافعي من أدلة وحجج من عربية القرآ الكريم وخلوه عن أي لفظ أعجمي. واذا وقع فيه أي لفظ أعجمي فيكون على سبيل التوافق أو التوارد كما فصّل القول فيما سبق .

وعلى نفس هذا الطريق سار ابن جرير الطبري ، وتعرض للرد على المخالفين وإبطال دعواهم بأن في القرآن ألفاظاً من أصل غير عربي ،مع توجيه لما روي عن الصحابة والتابعين من نسبة ألفاظ من القرآن الى لغات أعجمية بما يخرج به عن صحة الاستدلال، وهذا ما عقد له فصلاً خاصاً في مقدمة تفسيره، بعد أن استدل على عربية ألفاظ القرآن الكريم ، بما لا يخرج عن استدلال الامام الشافعي (رضي الله عنه) . وأن ما ذكر أنه بلسان غير العرب فيحمله على التوافق ، ويعقد لذلك فصلاً بعنوان « القول في البيان عن الأحرف التي اتفقت فيها ألفاظ العرب وألفاظ غيرها من بعض أجناس الأمم » . فيقول « ولم نستنكر أن يكون من الكلام ما يتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحد .. كما قد وجدنا اتفاق كثير منه فيما قد علمناه من الألسن المختلفة كالدرهم والدينار والدواة والقلم والقرطاس وغير ذلك ، مما يُتعب احصاؤه ، ويُمل تعداده »(٩) .

ويقول في آخر الفصل: « قد دللنا على صحة القول بما فيه الكفاية ... أن الله جلّ ثناؤه أنزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيرها من السن سائر أجناس الأمم وعلى فساد قول من زعم أن منه ما ليس بلسان العرب ولغاتها »(١٠) .

وقد شدد أبو عبيدة النكير على من ادعى أن في القرآن من غير العربية فقال : « إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول، ومن زعم أن كذا بالنبطية فقد أكبر القول »(١١) .

وهو يحمل ما ورد في القرآن من الفاظ أعجمية على التوافق فيقول: « وقد يوافق اللفظ اللفظ ويقاربه ومعناهما واحد ، وأحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها »(١٢) .

وقال ابن فارس : « ليس في كتاب الله ـ جلَّ ثناؤه ـ شيء بغير لغة العرب والقول ما قاله أبو عبيدة ، وذلك أن القرآن لو كان فيه من غير لغة العرب شيء لتوهم متوهم أن العرب إنما عجزت عن الاتيان بمثله لأنه أتى بلغات لا يعرفونها وفي ذلك ما فيه »(١٣) .

وفعلاً فان ما توقعه ابن فارس ـ رحمه الله ـ قد وقع فيه المستشرقون واتخذوا من ذلك سلَّماً يرتقون فيه الى الطعن في اعجاز القرآن الكريم . وقد انضم الى هذا الفريق من العلماء في عصرنا الحاضر الشيخ أحمد شاكر ، محقق كتاب (المعرَّب من الكلام الأعجمي) للجواليقي ، مخالفاً ما ذهب اليه صاحب الكتاب من ترجيح وقوع المعرب في القرآن بعد جريانه على لسان العرب ، فيقول : « وهو قول ينبو عنه التحقيق ، وانما ذهب اليه من ذهب إعظاماً لما روي عن بعض الأقدمين في ألفاظ قرآنية انها معربة ، وعجزاً عن تحقيق صحة الرواية عنهم ، وعن تحقيق صحة هذه الحروف في كلام العرب ، ثم تقليداً لأولئك القائلين وجمعاً بين القولين زعموا »(١٤) .

وقد حاول الشيخ شاكر أن يكشف الشبهة عن تلك الألفاظ التي يظن أن أصلها غير عربي لعدم معرفة مصدر اشتقاقها لأن شبهة كونها من أصل أعجمي أقوى من غيرها من الألفاظ ذات الاشتقاق ، التي قيل انها من غير لغة العرب فيقول: « والعرب أمة من أقدم الأمم ولغتها من أقدم اللغات وجوداً ، كانت قبل ابراهيم واسماعيل وقبل الكلدانية والعبرية والسريانية بله الفارسية وقد ذهب منها الشيء الكثير بذهاب مدنيتهم الأولى قبل التاريخ فلعل الألفاظ القرآنية التي يظن أن أصلها ليس من لسان العرب ولا يعرف مصدر اشتقاقها لعلها من بعض ما فقد أصله وبقي الحرف وحده »(١٥) .

وقد ذهب الى هذا القول أيضاً الدكتور حسن ضياء الدين عتر في بحثه (نقاء القرآن من الكلام الأعجمي)(١٦) .

وفي تعليقه على كتاب (فنون الأفنان) لابن الجوزي ، فقد ذكر أقوال العلماء في المسألة وأدلتهم ورجح قول الامام الشافعي وجمهور المحققين من عدم وقوع أي لفظ أعجمي في القرآ الكريم فقال : « ونحن نقطع ـ استناداً الى الأدلة الآنف ذكرها ـ بأنه لا يوجد في القرآن أي لفظ أعجمي دخيل على العربية ناب عن خصائصها وأوزانها »(١٧) .

هذا ما ذهب اليه الفريق الأول من القول بعدم وقوع المعرب في القرآن الكريم .

وذهب الفريق الثاني الى جواز وقوع المعرب في القرآن الكريم، ومنهم أبو عبيد القاسم بن سلام والخويِّي وابن النقيب والشوكاني وغيرهم ودليلهم ما يأتي :

١ ـ ما روي عن ابن عباس(١٨) ومجاهد وابن جبير وعكرمة وعطاء وغيرهم من أهل العلم أنهم قالوا في أحرف كثيرة أنها بلغات العجم ، منها قوله تعالى : « طه واليم والطور والربانيون ، فيقال انها بالسريانية ٠

والصراط والقسطاس والفردوس انها بالرومية ٠

ومشكاة وكفلين ، يقال انها بالحبشية ٠٠٠ وهذا قول أبي عبيد الذي نسبه الى أهل العلم من الفقهاء(١٩) ٠

٢ ـ ما اتفق عليه النحاة على منع صرف كثير من الأسماء الموجودة في القرآن الكريم، للعلمية والعُجمة كابراهيم مثلاً ، واذا اتفق على وقوع الأعلام فلا مانع من وقوع الأجناس (٢٠) ٠

٣ ـ ما ذكروه من حكمة وقوع المعرَّب أن القرآن الكريم قد حوى علوم الأولين والآخرين ، ونبأ كل شيء ، فلا بد أن تقع فيه الاشارة الى أنواع اللغات والألسن ، ليتم احاطته بكل شيء ، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالاً للعرب(٢١) ٠

٤ ـ وهذا ما صرَّح به ابن النقيب فقال : « من خصائص القرآن على سائر كتب الله المنزلة أنها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم ، ولم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم ٠ والقرآن احتوى على جميع لغات العرب وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير »(٢٢) ٠

وقد انضم الى هذا الفريق من المعاصرين الدكتور رمضان عبدالتواب فقال في كتابه (فصول في فقه العربية) بعد أن انتقد الشيخ أحمد شاكر فيما ذهب اليه من عدم جواز وقوع المعرَّب في القرآن الكريم : « وهكذا نرى أنه من العبث إنكار وقوع المعرَّب في العربية الفصحى والقرآن الكريم »(٢٣) ٠

ومال الى هذا الرأي أيضاً محمد السيد علي البلاسي في تعليقه على كتاب المهذب(٢٤) ٠

فقال بعد أن استعرض أقوال العلماء في المسألة : « ونحن نقول : ان علماءنا الأفاضل يكادون يتفقون على وقوع الكلمات الأعجمية ـ التي عرَّبها العرب ـ في القرآن الكريم فيما عدا الفريق الذي منع هذا ، وعلى أية حال فلا خلاف بين العلماء على جواز استعمال المعرَّب ، واذا كان الأمر كذلك ، فلا ضير من وقوع المعرَّب في القرآن الكريم »(٢٥) ٠

الفريق الثالث : وهو رأي أبي عبيد القاسم بن سلام ، الذي يقول : « والصواب عندي مذهب فيه القولان جميعاً وذلك لأن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء ، ولكنها وقعت للعرب فعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم الى ألفاظها ، فصارت عربية ثم نزل القرآن ، وقد وختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال انها عربية فهو صادق ، ومن قال انها أعجمية فصادق ٠

قال : وانما فسرنا هذا لئلا يقدم أحد على الفقهاء فينسبهم الى الجهل ، ويتوهم عليهم أنهم أقدموا على كتاب الله ـ جلَّ ثناؤه ـ بغير ما أراده الله جلَّ وعزّ ، كانوا أعلم بالتأويل ، وأشد تعظيماً للقرآن(٢٦) ٠

وقد انضم الى هذا الفريق الثالث من المعاصرين الدكتور طاهر حمودة فقال بعـد أن عرض أقوال العلماء في ذلك « وثمـة رأي حاول صاحبه التوسط بـين المنكرين والمثبتين **وهو في الحقيقـة أصوب هذه الآراء** وأكثرها ادراكاً للواقع اللغوي وما ينتج عـن اختلاط اللغات بعضها ببعض مـن وقوع التأثير والتأثر في الألفاظ واستعمال كل لغة بعض ألفاظ الأخرى بعد تهذيبها وصقلها وصوغها بصيغها المألوفة وهو ما يعرف في العربية بالتعريب »(٢٧) ٠

بعد أن استعرضنا أقوال العلماء في القضية نصل الى رأي السيوطي في التعريب وموقفه منه :

□ اختيـار السيوطي :

ذهب السيوطي الى القـول بوجود ألفاظ أعجمية في القرآن الكريم، وقد دل على رأيه بصراحة ووضوح فقال في كتابه (المهـذب) :

« وأقوى ما رأيته ـ **وهو اختياري** ـ ما أخرجه ابن جرير ٠ قال « أنبأنا ابن حميد ، أنبأنا يعقوب القمي عن جعفر عن ابن المغيرة عن سعيد بن جبير قال : « قالت قريش لولا أنزل هذا القرآن أعجمياً وعربيـاً ؟ فأنزل الله « وقالوا لولا فصّلت آياته أأعجمي وعربي » (فصّلت : ٤٤) الآية ٠

وأنزل الله بعد هذه الآية القرآن بكل لسان، فيه « حجارة من سجيل »(٢٨) (هود : ٨٢) ٠ فارسيـة ٠

وقال : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عبدالرحمن بن مهدي ، أنبأنا اسرائيل عن أبي اسحاق عن أبي ميسرة ، قال : « في القرآن من كل لسان » ٠

اقال ابن أبي شيبة في مصنفه : « حدثنا عبيدالله عن اسرائيل عن أبي اسحاق عن أبي ميسرة ، قال : « أنزل القرآن بكل لسان » ٠

وقال: حدثنا الفضل بن دكين ، حدثنا سلمة بن سبط عن الضحاك قال: « نزل القرآن بكل لسان» ٠

ونقل الثعالبي عن بعضهم قال : « ليس لغة في الدنيا الا وهي في القرآن »(٢٩) ٠

ثم ذكر رأي ابن النقيب الآنف الذكر وأشار الى حكمة وقوع المعرب في القرآن الكريم وذلـك لتتم احاطته بكل شيء ٠

قال : وأيضاً فالنبي (ﷺ) مرسل الى كل أمة ٠ وقد قال تعالى: « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » (ابراهيم : ٤) ٠ فلا بد وأن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم ٠ وان كان أصله بلغة قومه هو »(٣٠) ٠

ثم نقل عن الخُويّي فائدة لوجود المعرب فقال : « وقـد رأيت الخُويّي ذكر لوقوع المعرب في القرآن فائدة أخرى ، فقال : « ان قيل ان « استبرق »(٣١) ليس بعربي ، وغير العربي مـن الألفاظ دون العربي في الفصاحة والبلاغة ، فنقول : « لو اجتمع فصحاء العـالم وأرادوا أن يتركوا هـذه اللفظة ويأتوا بلفظ يقـوم مقامها في الفصاحـة لعجزوا عن ذلك ٠

ولا يجد العربي لفظاً واحداً يدل عليه ، لان الثياب من الحرير عرفها العرب من الفرس ، ولم يكن لهم بهـا عهـد ، ولا وضع في اللغـة العربية للديباج الثخين اسم · وانما عرَّبوا ما سمعوا من العجم واستغنوا به عن الوضع لقلة وجوده عندهم وندرة تلفظهم به »(٣٢) ·

وقد أكد السيوطي موقفه هذا بتاليفه في هذا الموضوع أكثر من كتاب كما مرَّ معنا في بدايـة البحث(٣٣) ·

☐ **مناقشة هـذه الآراء :**

لم يسلم الفريق الثاني للفريق الأول فيما ذهب اليـه ، وأجابوا عـن قوله تعـالى : « قرآناً عربيـاً » (يوسف : ٢) بأن الكلمات اليسيرة بغير العربيـة لا تخرجه عـن كونه عربيـاً فالقصيدة الفارسية لا تخرج عنها بلفظة فيها عربية ·

وأجابوا عن قوله تعالى : « أأعجمي وعربي » (فصِّلت : ٤٤) · بأن المعنى مـن السياق أكلام أعجمي ، ومخاطب عربي ! (٣٤) ·

ولكن هذا الرد لا يصمد طويلاً أمام صراحة القرآن الكريم بعربية كل ما جـاء فيـه وما نقله أبو عبيد من أهل العربية أن القرآن ليس فيه مـن كلام العجمة شيء وانه كله بلسان عربي يتناولون قوله جلَّ ثناؤه : « إنا جعلناه قرآناً عربياً » (الزخرف : ٤٣) وقوله : « بلسان عربي مبيـن » (الشعراء : ١٩٥) ·

وقـد أجاب الفريق الأول والثاني القائلين بوقوع المعرَّب في القرآن الكريم والتي رويت عـن ابن عباس وغيره بأنهـا مـن باب توافق اللغات في بعض مفرداتها باللفظ والمعنى · والفريق الأول القائل بخلو القرآن مـن اللفظ الأعجمي لا يقبل رأي الفريق الثالث المتوسط بين المنع والاباحة ، فقد أنكر ابن فارس كما رأينا على أبي عبيد رأيه فيقول « فان قال قائل ، فما تأويل قول أبي عبيد فقد أعظم وأكبر ؟ قيـل له : تأويله أنه أتى بأمر عظيم ، وذلك أن القرآن لو كان فيه مـن غير لغـة العرب شيء لتوهم متوهم أن العرب انما عجـزت عن الاتيان بمثله لأنه أتى بلغات لا يعرفونها وفي ذلك ما فيه »(٣٥) ·

والناظر في أدلة الفريق الثاني لا يجدها قوية ، فقولهم : ان القرآن الكريم قـد احتوى على الفاظ من جميع اللغات ، لأن الرسول (ﷺ) مرسل الى كل أمة واستندوا في ذلك الى قوله تعالى « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » قالوا : فلا بد أن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم وان كان أصله بلغة قومه هو ، هذه حجة واهية ، فالقرآن الكريم لا يخاطب كـل انسان بلغته هو ، بل على جميع المؤمنين به أن يتعلموا لغتـه ، وقد نزل القرآن بلسان عربي مبين ·

وأما أنصار الفريق الثالث القائلـين بالتوسط ، فهم أقرب ما يكـون الى الواقعية اذ مـن المعروف أن الاختلاط بين العرب وغيرهم من الأمم كان موجوداً في مكة المكرمة عـن طريق التجـارة وغيرها ، ممـا ادى الى التأثر والتأثير في اللغـة ، فدخلت الى العربية بعض ألفاظهم مـع شيء مـن التحوير في الصيغة والصوت · ونجد ذلك في أشعار الجاهليين ولا سيما من أكثر من دخول بلاد فارس والروم من الشعراء ·

وهذا ما نبه اليه ابن عطية في تفسيره، وتبعه القرطبي ، وذكره السيوطي فقال : « كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلغتهم بعض مخالطة لسائر الألسنة في أسفارهم ، فعلقت من لغاتهم ألفاظاً غيِّرت بعضها بالنقص من حروفها واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها ، حتى جرت مجرى العربي الفصيح ، ووقع بها البيان وعلى هذا الحد نزل بها القرآن »(٣٦) .

وقد خلص ابن عطية الى هذه النتيجة بعد أن ذكر خلاف العلماء وقال : « ان القاعدة والعقيدة هي أن القرآن بلسان عربي مبين ، فليس فيه لفظة تخرج عن كلام العرب ، فلا تفهمها الا من لسان آخر ، فأما هذه الألفاظ وما جرى مجراها فانه قد كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات وبرحلتي قريش ، وكَسفر مسافر بن أبي عمرو الى الشام ، وسفر عمر بن الخطاب ، وكسفر عمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد الى أرض الحبشة ، وكسفر الأعشى الى الحيرة ، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة في اللغة ، فعلقت العرب بهذا كله الفاظاً أعجمية غيِّرت بعضها بالنقص من حروفها، وجرت الى تخفيف ثقل العجمة ، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها ، حتى جرت مجرى العربي الصريح ، ووقع بها البيان ، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن، فان جهلها عربي ما ، فكجهله الصريح مما في لغة غيره كما لم يعرف ابن عباس معنى « فاطر » الى غير ذلك .

فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية ، لكن استعملتها العرب وعربتها فهي عربية بهذا الوجه .

وابن عطية يرد على الطبري وعلى غيره من القائلين بتوافق اللغات فيقول : « وما ذهب اليه الطبري من أن **اللغتين اتفقتا** في لفظة ، فذلك بعيد بل احداهما أصل والأخرى فرع في الأكثر ، لأنها لا تدفع أيضاً جواز الاتفاق قليلاً شاذاً »(٣٧) .

وما ذكره ابن عطية ونقله القرطبي وأكده، كلام عملي واقعي استندوا فيه الى الواقع المشاهد فان الاختلاط الحاصل بين الأمم والشعوب مما لاشك فيه أن يتسرب بعض كلمات وألفاظ الى لغة أخرى ثم تستعملها تلك الأمة بشيء من التحوير والتغيير فتصبح لغة لها وهذا هو التعريب .

وهذا ما ذكره أبو عبيد القاسم بن سلام في توفيق بين القولين عندما قال : « هذه الحروف أصولها أعجمية ولكنها وقعت للعرب فعرَّبتها بألسنتها وحولتها من الفاظ العجم الى الفاظها فصارت عربية . ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب .. »(٣٨) .

ثم ان ما ذكره الفريق الثاني من قول ابن عباس (رضي الله عنه) في أحرف كثيرة في القرآن انها من غير لسان العرب وهذا القول روي عن أبي عبيد يعارضه ما روي عن ابن عباس نفسه في قوله عزَّ وجلَّ « بلسان عربي مبين » (الشعراء : ١٩٥) قال : بلسان قريش ، ولو كان غير عربي ما فهموه ، وما أنزل الله كتاباً من السماء الا بالعربية ، وكان جبريل (عليه السلام) يترجم لكل

نبي بلسان قومه . وذلك أن الله عزّ وجلّ قال :« وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبيّن لهم » (ابراهيم : ٤) . وليس في ألسنة الأمم أوسع من لسان العرب . والقرآن ليس فيه لغة الا لغة العرب ، وربما وافقت اللغة اللغات ، وأما الأصل والجنس فعربي لا يخالطه شيء »(٣٩) .

فابن عباس (رضي الله عنه) يذهب هنا الى القول بتوافق اللغات ، وهذا ما صرح به محقق كتاب (اللغات في القرآن) اذ يقول « وكتابنا يقول قولاً جديداً فهو لم يشر الى ان الالفاظ كانت أعجمية فعربت بل التمس سبيلاً جديداً فقال : وافقت لغة العرب في هذه اللفظة لغة النبط أو السريان أو القبط ، ويستدل من هذا أن اللفظ وجد في اللغة العربية ووجد في لغة أعجمية ثانية وأن لغة العرب وافقت اللغة الأعجمية في هذا اللفظ . فكأن اللغة العربية وتلك اللغات تنحدر من أصل واحد . وهذا المذهب هو تأييد لمن قال : ان القرآن ليس فيه شيء من غير لسان العرب »(٤٠) .

وهذا ما ذهب اليه الامام الطبري في تأويل قول ابن عباس وان قوله بوقوع المعرّب لا يصلح دليلاً لأن قولهم حدث كذا بلسان الحبشة معناه كذا ، وحدث كذا بلسان العجم معناه كذا ، ليس نصاً صريحاً بأن هذا اللفظ أصله حبشي أو أعجمي بل فيه احتمال كبير بأنهم أرادوا أينما ذكروه أنه من قبيل توافق اللغات ويشهد لهذا دخول الكثير من أصحاب اللغات المختلفة في الدين ، فلا مانع أن يكون من الصحابة والتابعين من عرف منهم هذه الألفاظ المتفقة في اللغات وزيادة منهم في توضيح الألفاظ القرآنية نصوا على معانيها فيما وردت فيه من اللغات الغير عربية » .

وأما ما ذكره السيوطي للتدليل على رأيه واختياره من آثار أن في القرآن من كل لسان فقد أشار قديماً الى هذا الامام الطبري الذي نقل عنه السيوطي الأثر وتوجيهه عند الطبري أن فيه من كل لسان اتفق فيه لفظ العرب ولفظ غيرها من الأمم التي تنطق به »(٤١) .

ثم انها على فرض صحة سند هذه الآثار فلا تعدو أن تكون آراء شخصية، ليس لها سند يعتمد عليه من كتاب أو سنة ، فلا تصلح لأن تكون دليلاً مسلماً به .

وما ذكروه من اتفاق النحاة على منع صرف الأسماء الأعجمية ، وهذا أمر مسلّم به لأن أسماء الأعلام لا تتغير بنقلها الى لغة أخرى ، بل تبقى كما هي في اللغة المنقولة . ومع هذا فلا يستلزم ولا يترتب عليه وقوع غيرها من الألفاظ .

وبعد استعراض أقوال العلماء ومناقشتها أخلص الى ما يلي :

ان الخلاف بين العلماء حول هذه القضية ينحصر في أمرين اثنين :

الأول : أن القرآن العربي نزل بلسان عربي مبين لا دخيل فيه ولا غريب ، من لغة أخرى ، وأن ما ذكر عن بعض الألفاظ أنها أعجمية فهي على سبيل التوافق أو التوارد ، بين اللغات ، وهذا أمر معروف في اللغات وهو قليل شاذ .

الثاني : أن القرآن الكريم عربي المبنى ، فصيح المعنى وهذا أمر متفق عليه عند الجميع ولكن الخلاف حول هذه الكلمات التي نقل أنها أعجمية فذهب بعض العلماء الى القول بأن أصولها أعجمية ولكن باستعمال العرب لها وتغيير بعض حروفها أصبحت عربية فصيحة ٠

وكوننا نجهل تاريخية اللغات بشكل دقيق فلا يمكننا القول ان هذه الكلمة مشتقة من تلك اللغة أو غيرها ٠

☐ المهذب فيما وقع في القرآن من المعرَّب :

رأينا فيما سبق موقف السيوطي من المعرَّب واختياره وقوع الفاظ أعجمية في القرآن الكريم ٠ وقد دلَّ على رأيه هذا وضعه أكثر من مؤلف في هذا الباب ٠ منها هذا الكتاب الذي سنتناوله الآن بالدراسة ، وكتاب (المتوكلي) الذي أشرنا اليه سابقاً ٠ وسنقارن بينه وبين المهذب ، بالاضافة الى ما لخصه من المهذب في كتابه الاتقان ٠

طبع كتاب المهذب في مجلة المورد العراقية في العدد الأول والثاني سنة ١٩٧١، ثم صنفه التهامي الرابعي الهاشمي وطبع في المغرب تحت اشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الاسلامي بين المغرب والامارات ، وأخيراً حققه سمير حسن حلبي، وطبع في دار الكتب العلمية في بيروت سنة ١٩٨٨ م ٠ ويتناول هذا الكتاب الألفاظ المعرَّبة التي وقعت في القرآن الكريم ٠ بعد أن تتبعها السيوطي في مصادرها ومظانها ، فيقول في آخر كتابه « فهذا ما وقفت عليه من الألفاظ المعرَّبة في القرآن الكريم بعد الفحص الشديد سنين ، وسعة النظر والمطالعة »(٤٢) ٠

والسيوطي شديد الاعتداد بنفسه ومؤلفاته ، ونلمس هذا في معظم كتبه ، فمثلاً في كتابه هذا يقول ، بعد ذكر الكلمات المعرَّبة في القرآن الكريم « ولم يجتمع قبل في كتاب قبل هذا »(٤٣) ٠

استهل السيوطي كتاب المهذب بمقدمة طويلة استعرض فيها موقف الأئمة من وقوع المعرَّب في القرآن الكريم ، ثم ذكر رأيه المختار مستنداً في دعم رأيه الى ما ورد من آثار في هذا الموضوع ، متمشياً مع عقليته النقلية ومنهجه الحديثي في التأليف(٤٤)٠

وقد أبان عن منهجه هذا بقوله « هذا الكتاب تتبعت فيه الألفاظ المعربة التي وقعت في القرآن ، مستوعباً ما وقفت عليه من ذلك ، مقروناً بالعزو والبيان »(٤٥) ٠

ثم بدأ بسرد الألفاظ الواردة في القرآن مرتبة على حروف المعجم ، وجملة ما أورده في كتابه من الألفاظ المعربة (١٢٥) لفظة ، بدأ بحرف الهمزة وانتهى بحرف الياء ، دون أن يذكر في حرف [الثاء والخاء والذال والضاد والظاء] ٠

والسيوطي لم يرتب الكلمات المعرَّبة **حسب المواد** بل على أوائل حروفها كما وردت بحكم **عجميتها** ولعل في ذلك تيسيراً على الباحثين ٠

وسأقوم بترتيب هذه الألفاظ ضمن جدول، أذكر فيه الألفاظ والسورة التي وردت فيها تلك الألفاظ ورقم الآية ثم اللغة التي اشتقت منها مع بيان معناها، كما ذكره السيوطي في المهذب والاتقان، موضحاً ذلك بما ورد في المعاجم اللغوية(٤٦) :

الألفـــاظ	السورة ورقم الآية	اللغـــة والمعنـــى
١ ـ أباريق	الواقعـة : ١٨	فارسية ومعناها طريق المـاء ، أو صب المـاء على هيئـة •
٢ ـ أبـا	عبس : ٣١	الأب ، الحشيش بلغة أهل المغرب •
٣ ـ ابلعي	هـود : ٤٤	بالحبشية (ازدرديه)(٤٧) وقيـل : اشربي بلغة الهنـد •
٤ ـ أخلد	الأعراف : ١٧٦	بالعبريـة : ركـن(٤٨) •
٥ ـ الأرائك	الكهف : ٣١	السرر بالحبشية •
٦ ـ آزر	الأنعـام : ٧٤	يعد في المعرَّب على قول من قال: انه ليس اسماً لأبيـه ابراهيم ، فقيل : معناه أعوج ، وقيل : معناه بلغتهم يا مخطىء ، وقيـل : معناه شيخ بالفارسية(٤٩) •
٧ ـ الأسباط	البقرة : ١٣٦	الأسباط بلغتهم كالقبائل بلغة العرب •
٨ ـ استبرق	الكهف : ٣١	الديباج : الغليظ بلغة العجم(٥٠) •
٩ ـ أسفارا	الجمـعة : ٥	هي الكتب بالسريانية ، وقيل : بالنبطية •
١٠ـ إصـري	آل عمران : ٨١	عهدي ، بالنبطية •
١١ـ أكـواب	الزخرف : ٧١	حكى ابن الجوزي أنها الأكواز بالنبطية(٥١) ، وعن الضحاك أنها بالنبطية جرار ليستلها عرى•
١٢ـ إل (إلاّ)	التوبـة : ٨ ـ ١٠	قـال ابن جني : ذكروا أنـه اسم الله تعـالى بالنبطيـة(٥٢) •
١٣ـ اليـم	البقـرة : ١٠	قال ابن الجوزي : انه المرجع بالزنجية(٥٣) ، وقيل : بالعبرانية •
١٤ـ إنـاه	الأحزاب : ٥٣	نضجه بلسان أهل المغرب ، وقيل: بلغة البربر•
١٥ـ حميـم آن	الرحمن : ٤٤	هو الذي انتهى حره بلغة البربر •
١٦ـ من عين آنيـة	الغاشية : ٥	أي حارة ، بلغة البربر •
١٧ـ أواه	التوبـة : ١١٤	الأواه : الموقن بلسان الحبشة ، وقيل : الرحيم وقيل : الدعاء بالعبرية •

الألفـــاظ	السورة ورقم الآية	اللغـــة والمعنـــى
١٨ـ أواب	ص : ١٧	الأواب : المسبح بلسان الحبشة ومثله (أوبي)٠
١٩ـ الملة الآخرة	ص : ٧	الجاهلية الأولى بالقبطية ، والقبط يسمون الآخرة الأولى(٥٤) ٠
٢٠ـ بطائنها	الرحمن : ٥٤	أي ظواهرها بالقبطية ، وحكاه الزركشي(٥٥)٠
٢١ـ بعير	يوسف : ٦٥	بمعنى حمار، والبعير كل ما يحمل عليه بالعبرية٠
٢٢ـ بيع	الحج : ٤٠	البيعة والكنيسة فارسية(٥٦) ٠
٢٣ـ تنور	هود : ٤٠	ذكر الثعالبي أنه فارسي(٥٧) معرَّب ٠
٢٤ـ تتبيرا	الاسراء : ٧	بالنبطية(٥٨) ٠
٢٥ـ من تحتها	مريم : ٢٤	أي بطنها بالنبطية ٠
٢٦ـ الجبت	النساء : ٥١	اسم الشيطان بالحبشية ، وقيل : الساحر بلسان الحبشة ٠
٢٧ـ جهنم	البقرة : ٢٠٦	مثل أعجمية ، وقيل فارسية وعبرانية أصلها كهنام(٦٠) ٠
٢٨ـ حرام(٦١)	الأنبياء : ٩٥	وجب بالحبشية ٠
٢٩ـ حصب	الأنبياء : ٩٨	حطب بالزنجية ٠
٣٠ـ حطة	البقرة : ٥٨	أي قولوا صواباً ، قال السيوطي وينبغي أن يكون معرَّباً ثم رأيته مصرحاً به « هذه اللفظة من ألفاظ أهل الكتاب لا يعرف معناها في اللغة العربية(٦٢) ٠
٣١ـ حواريون	آل عمران : ٥٢	الغسالون بالنبطية وأصله حواري ٠
٣٢ـ حوبا	النساء : ٢	اثما بغة الحبشة ٠
٣٣ـ درست	الأنعام : ١٠٥	في الاتقان « دارست » معناه قارأت بلغة اليهود٠
٣٤ـ دريّ	النور : ٣٥	المضيء بالحبشية ٠
٣٥ـ دينار	آل عمران : ٧٥	فارسي (٦٣) ٠
٣٦ـ راعنا	البقرة : ١٠٤	سب بلسان اليهود(٦٤) ٠

الألفـــاظ	السورة ورقم الآية	اللغـــة والمعنـــى
٣٧ـ ربانيـون	المائدة : ٤٤ ، ٦٣	عبرانيـة أو سريانيـة .
٣٨ـ ربيّـون	آل عمران : ١٤٦	سريانية وهي بمعنى ربانيون(٦٥) .
٣٩ـ الرحمـن	الفاتحة ومواضع كثيرة	عبراني وأصله بالخاء المعجمة(٦٦) .
٤٠ـ الرسّ	الفرقان : ٣٨	اسم أعجمي ومعناه البئر .
٤١ـ الرقيـم	الكهف : ٩	اللوح بالرومية وقيل الكتاب .
٤٢ـ رمـزاً	آل عمران : ٤١	هو تحريك الشفتين بالعبرية .
٤٣ـ رهـواً	الدخـان : ٢٤	أي سهلاً دمثـاً بلغة النبط وقال الواسطي أي ساكناً بالسريانيـة .
٤٤ـ الروم	الروم : ٢	أعجمي : اسم لهذا الجيل من الناس .
٤٥ـ زنجبيـل	الانسان : ١٧	فارسي(٦٧) .
٤٦ـ السّـجل	الأنبياء : ١٠٤	بلغة الحبشة : الرجل . وقيل : الكتاب ، فارسي معرّب(٦٨) .
٤٧ـ سجّيل	هـود : ٨٢	بالفارسية ، أولها حجارة وآخرها طين .
٤٨ـ سـجّين	المطففين : ٧	غـير عربي(٦٩) .
٤٩ـ سـرادق	الكهف : ٢٩	فارسي معرّب وأصله بالفارسية « سـرادار » وهو الدهليز .
٥٠ـ سـري	مريـم : ٢٤	نهر بالسريانية وقيل بالنبطية وحكي باليونانية .
٥١ـ سـفرة	عبس : ١٥	بالنبطية : القـراء .
٥٢ـ سـقر	القمر : ٤٨	ذكر الجواليقي أنها أعجمية(٧٠) .
٥٣ـ سـجداً	الأعراف : ١٦١	مقنعي الرؤوس ، بالسريانيـة .
٥٤ـ سـكرا	النحـل : ٦٧	السّكر بلسان الحبشة : الخـل .
٥٥ـ سلسبيلا	الانسان : ١٨	قيل : هو اسم أعجمي(٧١) .
٥٦ـ سـنا	النـور : ٤٣	قال السيوطي : عده الحافظ ابن حجر في نظمه . ولم أقف عليه لغيره(٧٢) .

الألفـــاظ	السورة ورقم الآية	اللغـــة والمعنـــى
٥٧ـ سندس	الكهف : ٣١	ذكر الثعالبي في فقه اللغة أنه فارسي(٧٣) وقال الجواليقي : هو رقيق الديباج بالفارسية وقيل هو بالهندية .
٥٨ـ سيدها	يوسف : ٢٥	أي زوجها بلسان القبط .
٥٩ـ سينين	التين : ٢	الحسن : بلسان الحبشة .
٦٠ـ سيناء	المؤمنون : ٢٠	بالنبطية : الحسن .
٦١ـ شطر	البقرة : ١٤٤	تلقاء : بلسان الحبش .
٦٢ـ شهر	البقرة : ١٨٥	سريانيـة(٧٤) .
٦٣ـ الصراط	الفاتحة : ٦	الطريـق : بلغـة الروم .
٦٤ـ فصرهن	البقرة : ٢٦٠	نبطية : بمعنى شققهن ، وقيل بالرومية بمعنى قطعهـن .
٦٥ـ صلوات	الحج : ٤٠	بالعبرانية : كنائس اليهود ، وأصلها (صلوتا) .
٦٦ـ طه	طـه : ١	هو كقولك (يا محمد) بلسان الحبش ، وقيل : بالنبطية معناها يا رجل ، وقيل بلسان الحبشة أيضـاً .
٦٧ـ الطاغوت	البقرة : ٢٥٦	هو الكاهن بالحبشية .
٦٨ـ طفقا	الأعراف : ٢٢	معناه قصداً بالروميـة .
٦٩ـ طوبى	الرعـد : ٢٩	اسم الجنة بالحبشية وقيل بالهندية .
٧٠ـ طور	المؤمنون : ٢٠	هو الجبل بالسريانية وقيل بالنبطية .
٧١ـ طوى	طـه : ١٢	معرَّب معناه ليلاً ، وقيل: هو رجل بالعبرانية .
٧٢ـ عبدت	الشعراء : ٢٢	معناه قتلت بلغة النبط .
٧٣ـ عدن	التوبـة : ٧٢	جنـات عـدن هي : جنـات الكروم والأعنـاب بالسريانيـة وقيـل : بالروميـة .
٧٤ـ العرم	سبـأ : ١٦	بالحبشية وهي المسناة التي يجمع فيها الماء ثم ينبثـق(٧٥) .

الألفـــاظ	السورة ورقم الآية	اللغـــة والمعنـــى
٧٥ـ غيـض	هـود : ٤٤	نقص ، بلغة الحبشة .
٧٦ـ غسّاق	جـن : ٥٧	هـو البـارد المنتن بلسـان الترك ، وقيـل : بالطخارية(٧٦) .
٧٧ـ فـردوس	الكهف : ١٠٧	البستان ، بالرومية(٧٧) ، وقيل الجنة ، وقيل: الكرم بالنبطيـة وأصله (فرداسـا) وقيـل : بالسريانيـة ، وقـال الجـواليقي : الفردوس بالسريانيـة ، وقيل : بالروميـة .
٧٨ـ فوم (فومها)	البقرة : ٦١	الحنطـة بالعبريـة .
٧٩ـ قراطيس	الأنعام : ٩١	قال الجواليقي : يقال : ان القرطاس أصله غير عربي(٧٨) .
٨٠ـ قسط	آل عمران : ١٨	العـدل : بالروميـة .
٨١ـ القسطاس	الاسراء : ٣٥	بلغة الروم : الميزان(٧٩) .
٨٢ـ قسورة	المدثر : ٥١	الأسـد : بالحبشية .
٨٣ـ قطـنـا	ص : ١٦	معناه كتابنا : بالنبطيـة .
٨٤ـ قفل (أقفالها)	محمد : ٢٤	فارسي معرّب(٨٠) .
٨٥ـ قمّل (والقمل)	الأعراف : ١٣٣	هو الدّبا بلسان العبرية والسريانية .
٨٦ـ قنطـار	آل عمران : ٧٥	ذكر الثعلبي في فقـه اللغة(٨١) ، أنه بالرومية اثنا عشر ألف أوقية . وقال الخليل : زعموا أنه بالسريانية ملء جلد ثور ذهباً أو فضة . وقال بعضهم : انه بلغة بربر ألف مثقال ، وقال ابن قتيبة ، قيل : انه ثمانية آلاف مثقال ، بلسان أهل افريقيـة
٨٧ـ القيّـوم	البقرة : ٢٥٥	هو الذي لا ينـام بالسريانيـة .
٨٨ـ كافـورا	الدهـر : ٥	قيل : انه فارسي معرّب ، ذكره الثعالبي(٨٢)
٨٩ـ كفّـر	محمد : ٢	معناه: امحعنا بالنبطية وقيل بالعبرانية محا عنهم.

الألفـــاظ	السورة ورقم الآية	اللغـــــة والمعنـــــى
٩٠- كفلين	الحديد : ٢٨	ضعفين بالحبشية .
٩١- كنـز	الكهف : ٨٢	ذكر الجواليقي أنه فارسي معرّب(٨٣) .
٩٢- كـوّرت	التكوير : ١	غوّرت بالفارسية .
٩٣- لينـة	الحشر : ٥	هي النخلة ، قال الكلبي : لا أعلمها الا بلسان يهود يثرب .
٩٤- متكـأ	يوسف : ٣١	بلسان الحبشي يسمون الترنـج متكـأ . وقال الواسطي : هو الأترنج بلغة القبط(٨٤) .
٩٥- المجوس	الحـج : ١٧	ذكر الجواليقي أنه أعجمي(٨٥) .
٩٦- مرجان(والمرجان)	الرحمن : ٢٢ ، ٥٨	قيـل : انه أعجمي(٨٦) .
٩٧- مسـك	المطففين : ٢٦	ذكر الثعالبي في فقه اللغة أنه أعجمي(٨٧) .
٩٨- المشكـاة	النـور : ٣٥	الكوة ، بلغـة الحبشة .
٩٩- مقاليـد	الزمر : ٦٣	مفاتيـح بالفارسية .
١٠٠- مرقـوم	المطففين : ٩	مكتوب : بلسان العبرية .
١٠١- مزجـاة	يوسف : ٨٨	قليلة ، بلسان العجم ، وقيل : بلسان القبط .
١٠٢- ملكـوت	الأنعام : ٧٥	هو الملك ، بلسان النبط ، وقيل : اسم أعجمي .
١٠٣- منـاص	ص : ٣	معناه : فرار بالنبطية .
١٠٤- منسأة (منسأته)	سبأ : ١٤	العصا بلسان الحبشة .
١٠٥- مهـل	الكهف : ٢٩	قيـل : هو عكر الزيت بلسـان أهـل المغرب ، وقيـل : بلغـة البربر .
١٠٦- منفطر	المزمـل : ١٨	ممتلئـة بلسان الحبشة .
١٠٧- ناشئة الليـل	المزمـل : ٦	قيام الليل بالحبشية .
١٠٨- ن	ن : ١	فارسي أصله أنون ، ومعناه : اصنع ما شئت .
١٠٩- هـدنـا	الأعراف : ١٥٦	معناه تبنا بالعبرانية .
١١٠- هـود	البقرة : ١١١	الهود : اليهود ، أعجمي .

الألفــاظ	السورة ورقم الآية	اللغـــة والمعنـــى
١١١ــ هَون (هَونا)	الفرقان : ٦٣	حكماء بالسريانية ، وقيل بالعبرانية حُلماً .
١١٢ــ هيت لك	يوسف : ٢٣	هلم لك بالنبطية ، وقيل : بالسريانية ، وعن عكرمة هي بالحورانية ، وقيل : بالعبرانية ، وأصله (هيثلج) أي تعاله .
١١٣ــ وراء (وراءهم)	الكهف : ٧٩	معناه أمام بالنبطية .
١١٤ــ وردة	الرحمن : ٣٧	ذكر الجواليقي أنها غير عربية(٨٨) .
١١٥ــ وزر	القيامة : ١١	هو الحبل والملجأ بالنبطية .
١١٦ــ ياقوت(الياقوت)	الرحمن : ٥٨	ذكر الجواليقي والثعالبي وآخرون أنه فارسي(٨٩) .
١١٧ــ يحور	الانشقاق : ١٤	بلغة الحبشة : يرجع .
١١٨ــ يس	يس : ١	يا انسان بالحبشية ، وقيل : يا رجل .
١١٩ــ يصدون	الزخرف : ٥٧	يضجّون ، بالحبشية .
١٢٠ــ يصهر	الحج : ٢٠	ينضج ، بلسان أهل المغرب .
١٢١ــ أليم	طه : ٣٩	البحر بالسريانية ، وقيل بالعبرانية ، وقيل بالقبطية .
١٢٢ــ اليهود	البقرة : ١١٣	قال الجواليقي : أعجمي معرَّب ، منسوبون الى يهوذا ابن يعقوب ، فعرّب باهمال الدال .

وذكر السيوطي في آخر كتابه منظومة للقاضي تاج‌الدين السبكي تضمنت سبعاً وعشرين لفظة فقال في مطلعها :

السلسبيلُ وطَـهَ كُوِّرَتْ بِيَـعٌ ... رومٌ وطوبى وسجّيلٌ وكافـورُ ..

والزنجبيلُ ومِشكاةٌ سـرادقُ مَـعٌ ... إستبرقٌ صلواتٌ سـندُسٌ طُـورُ

الخ هذه المنظومة ، وقد ذيل عليها الحافظ ابن حجر بأبيات فيها أربعة وعشرون لفظاً قال فيها :

وزدت حزم ومنهل والسجل كـذا ... السَّري والأبُ ثم الجِبتُ مذكـورُ

وقطنـا وإنـاهُ ثـمَّ مُتَّكَـأً ... دارسْتَ يصهرُ منـه فهـو مصهورُ

ثم ذيل السيوطي عليها بباقي الألفاظ فتمت أكثر من مائة لفظة ·

قال السيوطي :

وزدت يس والرحمـــن مـــع ملكـو　　ت ثمَّ سينين شـطر البيت مشطورُ
ثم الصـراط ودرّيٌّ يحـورُ ومـر　　جان وثمَّ مع القِنْطارِ مذكورُ(٩٠)

☐ منهج السيوطي في المهـذب :

ويتمثل منهج السيوطي في كتابه (المهذب) بذكر الكلمة ثم بشرح معناها ذاكراً اللغة التي جاءت منها ، مسنداً القول الى صاحبه ، والى الكتاب الذي نقل عنـه ·

فمثلاً كلمة (أسفاراً) /الجمعة : ٥/ يقول : « قال الواسطي في (الارشاد) هي الكتب بالسريانية، وقال الكرماني في (غرائب التفسير) هـي نبطي ·

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عبدالعزيز بن منيب ، حدثنا أبو معاذ عـن عبيد عن الضحاك في قـوله تعـالى « يحمل أسفاراً ··· » قال : كتباً والكتاب : بالنبطية يسمى سفراً »(٩١) ·

وعند لفظة « سرادق » (الكهف : ٢٩) · يقول : قـال الجواليقي : فارسي معـرَّب ، وأصله بالفارسية « سرادار » وهو الدهليز ·

وقال غيره : الصـواب أنه بالفارسية « سرابردة » أي ستر الدار ·

وقال الراغب : « السرادق فارسي معرَّب ، وليس في كلامهـم اسم مفرد ثالثـة ألف وبعـدها حرفان »(٩٢) ·

وأحياناً ينسب السيوطي الكلمة الواحدة الى أكثر من لغة ، ففي كلمة « سندس » (الكهف: ٣١)· هو ينقل عن الأئمة أنها بالسريانية والهندية فيقول :« ذكر الثعالبي في فقـه اللغـة انه فارسي ، وكذلك قال الجواليقي » هو رقيق الديباج بالفارسية · وقال الليث : « لم يختلف أهـل اللغـة والمفسرون في أنـه معرَّب · وقـال شيذلة : هوبالهندية »(٩٣) ·

وكذلك الأمر بالنسبة لكلمة « سري » فقدذكر أنها بالسريانية والنبطية واليونانية فقال : « قال ابن جرير: حدثنا الحارث بن الحسن ، حدثناورقاء عن أبي نجيم عن مجاهد « سريا » (مريم:٢٤) قال : نهراً بالسريانية ، وعـن سعيد بن جبير :بالنبطية ، وحكى شيذلة : أنه باليونانية (٩٤) ·

وأما ما يؤخذ على كتـاب السيوطي المهذبفهو حشده هذا الكم الكبير من الألفاظ ونسبتها الى غير العربية متبعاً في ذلك منهجه في النقل والاستيعابوالجمع فتسامح في نسبة عدد غير قليل من الألفاظ الى غير العربية مـع أنها مما يقطع الى عربيـة فصيحة ·

فكلمة (شطر) التي نقل أنها حبشية ومعناهاتلقـاء(٩٥) هي عربية فصيحة ، وقد أكد الامام الشافعي ــ الذي كلامه لغة يحتج بها(٩٦) ــ علىعربيتها فقال في رسالته : « وشطره » جهته في كلام

العرب ، اذا قلت : أقصد شطر كذا معروف أنك تقول : أقصد قصد عين كذا ، يعني : قصد لقى كذا وكذلك « تلقاءه » ، أي : أستقبل تلقاءه وجهته ، وان كلها معنى واحد ، وان كانت بألفاظ مختلفة »(٩٧) ٠

ثم يأتي بالشواهد على ذلك من كلام العرب: فيقول ث وقال خفاف بن ندبة :

الا من مبلغ عمراً رسولاً   وما تغني الرسالة شطر عمرو

وقال ساعدة بن جؤية :

أقول لأم زنباع أقيمي   صدور العيس شطر بني تميم

وغير ذلك من الشواهد ٠ ثم يقول الامام الشافعي: « وهذا كله ـ مع غيره من أشعارهم يبين أن « شطر الشيء » قصد عين الشيء»(٩٨) ٠

فكل ما تقدم يبين أن الكلمة عربية أصيلة وليست من المعرّب الذي دخل الى اللغة ، فنسبة مثل هذه الكلمات الى العجمة غير صحيح ٠

وكذلك الشأن بالنسبة لكلمة (ابلعي) في قوله تعالى : « يا أرض ابلعي ماءك » (هود : ٤٤) ٠ فقد نقل السيوطي أنها بالحبشية ومعناها ازدرديه ونسبها ثابتة الى الهندية ومعناها اشربي(٩٩) ٠

وهذا اللفظ عربي أصيل شأنه شأن سائر الألفاظ العربية وتركيبه الصرفي تركيب عربي أصيل، فنسبة هذه اللفظة الى الحبشية أو الهندية تحكم بغير دليل مقبول ٠ فقد ذكر أئمة اللغة كالجوهري وابن منظور هذه الكلمة في معاجمها فقال في لسان العرب : « بلع الشيء بلعاً وابتلعه وتبلعه وسرطه سرطاً : جرعه ، والبلعة من الشراب: كالجرعة ، وبلع الطعام وابتلعه: لم يمضغه وأبلعه غيره ٠٠٠ »(١٠٠) وهذا ما يؤكد نسبة هذه الكلمة الى اللغة العربية ، وأنها فصيحة مبينة ٠

وكذلك كلمة « يحور » من قوله تعالى : « إنه ظن ألّن يحور » (الانشقاق : ١٤) ٠ فقد نقل السيوطي عن ابن الجوزي الحور : الرجوع بلغة الحبشة(١٠١) ٠ وأكد ذلك بما روي عن نافع ابن الأزرق أنه سأل ابن عباس عن قوله تعالى : « إنه ظن ألّن يحور » قال : الّن يرجع بلغة الحبشة(١٠٢) ٠ ثم اتى بأدلة أخرى من الأثر تدعيماً لذلك ٠ ونحن لا ننكر هذا المعنى أو وقوعه في الحبشية، ولكننا ننكر نسبة اللفظة الى الحبشية،لأن هذه اللفظة مستعملة في العربية منذ القدم ، فقد جاء في لسان العرب قوله « الحور : الرجوع عن الشيء والى الشيء ، صار الى الشيء وعنه حوراً ومحاراً ومحارة وحروراً : رجع عنه واليه وكل شيء تغير من حال الى حال فقد حار يحور حوراً » قال لبيد :

وما المرء الا كالشهاب وحنونه   يحور رماداً بعد إذ هو ساطع(١٠٣)

وقد استشهد بهذا البيت ابن عباس (رضي الله عنه) عندما سأله ابن الأزرق : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم ، أما سمعت قول الشاعر وذكر البيت(١٠٤) ٠

فالكلمة اذاً مستعملة بهذا المعنى في العامية، ووجودها في الحبشية بنفس المعنى أمر جلي لكونها لغة سامية كالعربية وهذا مصداق ما ذكره أصحاب الرأي الأول من القول بتوافق اللغات ، اذ لا يعني ذلك أن احدى اللغتين قد نقلت الكلمة عن الأخرى .

ومما يؤخذ على السيوطي أيضاً نسبته بعض الكلمات الى العجمة بدون تحديد ماهية هذه اللغة مكتفياً بنقله عن الأئمة ، فمثلاً نقل عن الجواليقي في قوله « سلسبيلاً » أنه اسم أعجمي(١٠٥) . وكذا الأمر في كلمة « سقر » فقد نقل عن الجواليقي أيضاً أنها أعجمية بدون أن يحدد اللغة التي وردت فيها(١٠٦) . وأحياناً يصرح بأن هذا اللفظ المنسوب الى العجمة لم يقف عليه عند غير من نسبه اليه(١٠٧) .

ولكن الذي يشفع للسيوطي في ذكره ذلك انسياقه وراء مذهبه في الجمع والاستيعاب مع دقة العزو وأمانة النقل ، فهو ينسب كل قول لقائله بأمانة ويذكر أن بركة العلم نسبته الى قائله ، وقد اعتمد السيوطي في كتابه هذا على عدد من المصادر منها الارشاد للواسطي ، والبحر المحيط لأبي حيان ، والبرهان لشيذلة ، والزينة لأبي حاتم اللغوي ، والعجائب لكرماني ، وفقه اللغة للثعالبي ، وفنون الأفنان لأبن الجوزي ، ولغات القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام ، والمحتسب لابن جني ، والمصنف لابن أبي شيبة ، والمعرب للجواليقي ، والمفردات للراغب الأصفهاني .

* * *

وقبل أن ننهي البحث لا بد من الاشارة الى أن للسيوطي كتاباً آخر في الموضوع نفسه سماه « المتوكلي فيما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية والنبطية والقبطية والسريانية والعبرانية والرومية والبربرية » .

وقد طبع الكتاب عدة طبعات في دمشق والقاهرة والباكستان وأخيراً صدر بتحقيق الدكتور عبدالكريم الزبيدي وطبع في دار البلاغة ببيروت سنة ١٩٨٨ م . ويبدو أن هذا الكتاب قد ألّفه السيوطي بعد تأليفه كتاب (المهذب فيما وقع في القرآن من المعرّب) لأنه لم يرد ذكره في فهرس مؤلفاته أو في حسن المحاضرة أو في كتابه الاتقان الذي ذكر فيها « المهذب » .

ويبدو أيضاً أن الخليفة المتوكل على الله عبدالعزيز المتوفى سنة ٩٠٣ هـ صديقه اطلع على كتاب المهذب المرتب على حروف المعجم فلم يعجبه، فأصدر أمره الى السيوطي بأن يؤلف له مؤلفاً فيه الألفاظ التي وقعت في القرآن الكريم وذكر الصحابة والتابعون أنها بلغة الحبشة أو الفرس أو غيرهم ، فبادر الى امتثال أمره وألّف له هذا الكتاب الذي رتب فيه الألفاظ على أساس اللغات، فبدأ بذكر ما ورد في القرآن بلغة الحبشة ، ثم ما ورد في القرآن بلغة الفرس ثم ذكر ما ورد في القرآن بالرومية ، ثم ذكر ما ورد في القرآن بالهندية ثم بالسريانية والعبرانية والنبطية والقبطية والتركية والزنجية . وختم الكتاب بذكر ما ورد في القرآن بالبربرية . وسماه بالمتوكلي نسبة الى الخليفة المتوكل على الله ، وقد اقتدى السيوطي في ذلك بأبي بكر الشاشي الذي ألّف كتاباً في الفقه بأمر الخليفة المستظهر بالله وسماه (المستظهري) ،وبامام الحرمين حيث ألّف كتاباً في الفقه باسم الوزير غياث الدين نظام الملك وسماه (الغياثي) وغيرهم ممن فعل ذلك . يقول السيوطي « فركبت جوادَهم ، وسلكت جَوادّهم »(١٠٨) .

وقد ذكر السيوطي أنه اختصره من كتابه المبسوط المسالك الذي هو « الدر المنثور في التفسير المأثور »(١٠٩) ٠

وقد استهل السيوطي كتابه هذا بمقدمة قصيرة ذكر فيها سبب تأليفه الكتاب وتسميته كما ذكرنا سابقاً ، ثم ذكر أدلة القائلين بوقوع المعرّب في القرآن الكريم ـ والسيوطي واحد منهم ـ فقط دون ذكر آراء المخالفين ٠ ثم بدأ بذكر ما ورد في القرآن بلغة الحبشة الخ ٠٠٠ وقد سلك في كتابه هذا نفس السبيل التي سلكها في كتابه المهذب ،مكتفياً بسرد هذه الألفاظ مورداً النقول التي تعزوها الى لغة من اللغات دون تدخل أو ترجيح أو تعليق متبعاً في ذلك منهجه النقلي وعقليته الحديثية ، وقد حدد في مقدمته ذلك بأن يذكر من الألفاظ « ما ذكر الصحابة والتابعون أنها بلغة الحبشة أو الفرس أو غيرهم مما سوى العرب »(١١٠) ٠

وقد جمع السيوطي في كتابه هذا حوالي (١٢٤) لفظة عدا المكررات ٠ موزعة بين اللغات التي ذكرها ؛ فنسب للحبشية (٢٨) لفظاً ،وللفارسية (٢٩) لفظاً ، وللرومية (٩) ألفاظ ، وللهندية (٣) ألفاظ ، وللسريانية (١٩) لفظاً ،وللعبرانية (٢٠) لفظاً ، وللنبطية (٢٣) لفظاً ، وللقبطية (٧) ألفاظ ، وللتركية (١) لفظة واحدة،وللزنجية (٣) ألفاظ ، وللبربرية (٧) ألفاظ ٠ وبعض هذه الألفاظ قد تكرر أكثر من مرة وفيأكثر من لغة ، وذلك استناداً الى اختلاف الروايات الواردة فيها اللفظة ولم يعلق السيوطي على ذلكبشيء ، فهو بصدد الحديث عن السريانية يورد لفظة (الفردوس) وذلك باسناد عن ابن عباس عنكعب الأحبار ، ثم لا يلبث أن يوردها بين ما ورد بالنبطية ويعزو ذلك الى السري ، وقد أوردها منقبل بين الكلمات التي جاءت بالرومية ، ونقل ذلك عن مجاهد ٠

وكذلك كرر لفظة (ابلعي) مرتين ، احداهما فيما ورد في القرآن الكريم بالحبشية والأخرى فيما ورد في القرآن بالهندية ، وكرر لفظة (أسفار)فيما ورد في السريانية والنبطية ٠ و (قنطار) ذكرها في ثلاث لغات فيما ورد في القرآن بالروميةوالسريانية والبربرية و (أليم) ذكرها فيما ورد في القرآن بالسريانية والعبرانية والنبطية ٠ الى غيرذلك من ألفاظ كررت في أكثر من لغة معتمداً في ذلك على الروايات التي نقلتها ٠

وهناك ألفاظ ذكرها السيوطي في المهذب ولميذكرها في المتوكلي منها (سنا) و (سلسبيل) و (سيّدها) وهذه الكلمات لم ينسبها في المهذب الىأي لغة بل نقل أنها أعجمية أو أنها لا تعرف في لغة العرب ، ومنها (نون) فقد أورد في المهذب عنالكرماني أنها فارسية(١١١) ٠

وقد اعتمد السيوطي في تأليفه المتوكلي علىمجوعة من كتب التفسير والقراءات وعلوم القرآن، والحديث والمعرّب ولغات القرآن واللغة وفقههاذكرتها في مصادره في كتاب المهذب ٠

وما نأخذه على السيوطي في كتابه هذا هو ما أخذناه على كتابه السابق المهذب من انسياقه وراء مذهبه في الجمع والاستيعاب ونسبة كثير منالألفاظ الى لغات غير عربية لمجرد وجودها في تلك اللغات ، اذ ليست تلك اللغات بأولى من اللغةالعربية في نسبتها اليها ، وليس مجرد التشابه في الصيغ والأصوات في اللغات التي ترجع الى أصلواحد دليلاً على نقل احداها عن الأخرى ٠

واخيراً :

جزى الله تعالى خيراً الامام السيوطي في تتبعه لهذه الألفاظ الموجودة في تلك اللغات واستيعابها وترتيبها وتنظيمها وتأليفها في هذين المؤلفين ، اللذين لم يجتمع قبلهما في كتاب ·

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

« محمد يوسف الشربجي »
كلية الشريعة ـ جامعة دمشق

★ ★ ★

□ الحواشي :

١ ـ السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وانواعها ، تحقيق محمد حمد جاد المولى وآخران (ط عيسى البابي الحلبي ، مصر) ٢٦٦/١ · وانظر القنوجي ، البلغة في أصول اللغة ، تحقيق نذير مكتبي (ط دار البشائر الاسلامية ، بيروت : ١٩٨٨ م) ص ١٧٥ ·

٢ ـ الجوهري ، الصحاح ، تحقيق احمد عبدالغفور عمار (ط٣ دار العلم للملايين، بيروت : ١٩٨٤ م) ١٧٨/١ (عرب)

٣ ـ الشهاب الخفاجي ، شفاء الغليل فيما ورد في كلام العرب من الدخيل ، تحقيق عبدالمنعم خفاجي (ط المطبعة المنيرية ، القاهرة : ١٩٥٢ م) ص ٢٣ ·

٤ ـ الامام الشافعي ، الرسالة ، تحقيق أحمد محمد شاكر، ص ٤٠-٤٢ · (بتصرف يسير) ·

٥ ـ الرسالة : ٤٤ ·

٦ ـ هكذا اثبتها الشيخ أحمد شاكر محقق الكتاب استناداً الى لغة الامام الشافعي الحجازية ·

٧ ـ الرسالة : ٤٥ ·

٨ ـ الرسالة : ٤٧ ·

٩ ـ الطبري ، جامع البيان عن تاويل آي القرآن ، تحقيق أحمد ومحمود شاكر (ط دار المعارف ، مصر) ١٥/١ ·

١٠ـ جامع البيان : ٢١/١ ·

١١ـ ابو عبيدة ، مجاز القرآن ، تحقيق د. محمد فؤاد سزكين (ط مؤسسة الرسالة ، بيروت : ١٩٨١ م) ١٧/١ ، ونقله عنه ابن فارس في الصاحبي في فقه اللغة ، تحقيق مصطفى الشويحي (نشر المكتبة اللغوية العربية ، بيروت ١٩٦٣ م) ص ٥٩ والجواليقي ، في المعرب من الكلام الأعجمي ، تحقيق محمد شاكر (ط ٢ ، دار الكتب المصرية : ١٩٦٩ م) ص ٥٢ ، والسيوطي في المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب، تحقيق التهامي الراجي الهاشمي، ط المغرب) ص:٥٨ ·

١٢ـ مجاز القرآن : ١٧/١ ·

١٣ـ الصاحبي : ٦٢ ، وانظر المهذب : ٥٨ ·

١٤ـ مقدمة الشيخ شاكر على المعرّب للجواليقي ص ١١ •

١٥ـ المصدر السابق : ١٣ •

١٦ـ نشر هذا البحث في مجلة كلية الشريعة بمكة المكرمة ، العدد الثاني •

١٧ـ ابن الجوزي، فنون الأفنان ، بتحقيق د. حسن ضياءالدين عتر (ط ١ ، دار البشائر الاسلامية ، بيروت : ١٩٨٧ م) ص ٣٤٢ ـ ٣٣٤ (حاشية) •

١٨ـ الزركشي ، البرهان في علوم القرآن • تحقيق د. يوسف المرعشلي وآخران (ط دار المعرفة ، بيروت: ١٩٩٠) ٣٨٣/١ •

١٩ـ ابن فارس : الصاحبي : ٦٠ ، والجواليقي ، المعرب من الكلام الأعجمي ، بتحقيق الدكتور ف. عبدالرحيم (ط دار القلم ، دمشق : ١٩٩٠ م) ص : ٩٢ • وانظر الزركشي، البرهان في علوم القرآن : ٣٨٧/١ ، والمزهر : ٢٦٨/١ •

٢٠ـ السيوطي، المهذب : ٦٠ وانظر د. عبدالجليل عبدالرحيم، لغة القرآن الكريم (ط مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان : ١٩٨١ م) ص ٢٠٥ • والقنوجي البلغة في أصول اللغة، تحقيق نذير محمد مكتبي (ط دار البشائر الاسلامية، بيروت: ١٩٨٨) ص ٧٨ • وقال الشوكاني : ومثل هذا لا يقع فيه خلاف ، والعجب ممن نفاه (اي وقوع المعرب في القرآن) انظر ارشاد الفحول (ط دار المعربة، بيروت : ١٩٧٩ م) ص ٣٢ •

٢١ـ المهذب : ٦١ـ٦٢ ، وانظر الاتقان : ٤٢٩/١ •

٢٢ـ المصدرين السابقين •

٢٣ـ د. رمضان عبدالتواب ، فصول في فقه العربية (نشر مكتبة الخانجي، القاهرة • ودار الرفاعي ، الرياض ، ط٢ ، ١٩٨٣) ص : ٣٦٣ •

٢٤ـ اخبار العالم الاسلامي ص ٢ ـ ٣ (بتصرف يسير) •

٢٥ـ نشر في مجلة اخبار العالم الاسلامي التابعة لرابطة العالم الاسلامي السعودية ، العدد ١١٦٢ ، ٢٢ شعبان ١٤١٠ هـ•

٢٦ـ الصاحبي: ٦٠ ، والمعرب : ٥٣ ، وانظره في فنون الافنان : ٣٤٣ـ٣٤٤ • والبرهان : ٣٨٧/١ ، والمهذب : ٦٥ ، والاتقان : ٤٣٠/١ •

٢٧ـ د. طاهر سليمان حمودة ، جلال الدين السيوطي ، عصره وحياته وآثاره ، وجهوده في الدرس اللغوي (ط المكتب الاسلامي ، بيروت : ١٩٨٩ م) ص : ١٩١ •

٢٨ـ وردت هذه الآية في سورة الحجر أيضا آية ٧٤ « وامطرنا عليهم حجارة من سجيل » وفي سورة الفيل آية ٤ « ترميهم بحجارة من سجيل » •

٢٩ـ المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب : ٦٠ـ٦١ وانظر الاتقان : ٤٢٨/١ والسيوطي ، المتوكلي فيما ورد في القران من اللغة الحبشية الخ ••• تحقيق د. عبدالكريم الزبيدي (ط دار البلاغة ، بيروت ١٩٨٨) ص : ٣٦ •

٣٠ـ المهذب : ٦٢ • وانظر الاتقان : ٤٢٩/١ •

٣١ـ وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم اربع مرات في /الكهف : ٣١/ و /الدخان : ٥٣/ و /الرحمن : ٥٤/ و /الانسان : ٢١/ •

٣٢ـ المهذب : ٦٤ ، وانظر الاتقان : ٤٣٠/١ •

٣٣ـ انظر القنوجي ، أبجد العلوم ، اعداد : عبدالجبار زكار (ط وزارة الثقافة بدمشق ١٩٨٨ م) ٢٠٢/٢ •

٣٤ـ السيوطي ، المهذب : ٦٠ ، والاتقان : ٤٢٨/١ ، وقد أكد السيوطي موقفه وردّ على مخالفيه في كتابه الاكليل في استنباط التذييل (ط دار الكتب العلمية ، بيروت : د.ت) ص ١٩٠ ، حيث قال في مؤلفه (اعجمي وعربي) استدل به من منع وقوع المعرب في القرآن ، وهو استدلال مردود ، لأن المعنى من السياق : كلام أعجمي ومخاطب عربي ، وقد فسره كذلك ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم لكن قالوا (ونبي عربي) •

٣٥ـ الصاحبي : ٢٩ ـ ٣٠ ٠

٣٦ـ الاتقان : ٤٢٧/١ـ٤٢٨ ٠

٣٧ـ ابن عطية ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق احمد صادق الملاح (ط القاهرة: ١٩٧٤م) ٦٩/١ـ٧٠ ٠ والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (ط دار احياء التراث العربي ، بيروت : ٦٩/١ ، وانظر البرهان : ٣٨٦/١ـ٣٨٧ ٠

٣٨ـ المعرب : ٥٣ ٠

٣٩ـ ابن عباس ، رواية ابن حنون ، اللغات في القرآن ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد (ط ٢ ٠ دار الكتاب الجديد ، بيروت : ١٩٧٢ م) ص : ١٦ ٠

٤٠ـ المصدر السابق : (المقدمة) ص : ٩ ٠

٤١ـ الطبري ، جامع البيان : ١٧ ، المقدمة (ط شاكر) ٠

٤٢ـ المهذب ، بتحقيق التهامي الراجي ، ص ١٦٨ ٠

٤٣ـ المرجع السابق : ١٦٨ ٠

٤٤ـ نلمس عقلية الامام السيوطي الحديثية في التاليف في كثير من كتبه ، فهو ينسب كل قول الى قائله والكتب بسانيدي نقل عنه من ذلك على سبيل المثال كتابه الأشباه والنظائر النحوية والمزهر وكتابنا هذا ٠

٤٥ـ المهذب : بتحقيق التهامي ص : ٥٧ ٠

٤٦ـ حكى ذلك الثعالبي في فقه اللغة (ط الدار العربية للكتاب ، ليبيا وتونس : ٩٨١ م) ص : ٣١٦ ضمن فصل سماه في سياقة أسماء تفردت بها الفرس دون العرب ، فاضطرت العرب الى تعريبها او تركها كما هي ٠

٤٧ـ في الصحاح (زرد) زرد اللقمة بالكسر يزردها زردا ، أي بلعها ، والازدراد : الابتلاع ، وساشير الى هذا الكتاب فيما بعد بحرف (ص) للاختصار (ط دار العلم للملايين) ٠

٤٨ـ في القاموس المحيط (خلد) اخلد اليه مال وسعشير الى هذا الكتاب بحرف (ق) ٠

٤٩ـ في لسان العرب (آزر) : آزر اسم أعجمي وهو اسم أبي ابراهيم ، وقيل: هو ذم في لغتهم كانه قال : واذ قال ابراهيم لأبيه الخاطىء » (لسان العرب : ط دار المعارف، مصر) وساشير الى هذا الكتاب فيما بعد بحرف (ل) للاختصار ٠

٥٠ـ في (ص) الاستبرق : الديباج الغليظ ، فارسي معرّب وتصغيره ، أبيرق ، وانظر (ل) (برق) ٢٦٣/١ ٠

٥١ـ فنون الأفنان ـ ص : ٣٥٠ ٠

٥٢ـ ل : (الل) ١١٢/١ قال ابن منظور : والالّ : العهد والحلف ، ورد على من قال انه من أسماء الله عز وجل بقوله « وهذا ليس بالوجه لأن أسماء الله تعالى معروفة كما جاءت في القرآن وتليت في الأخبار قال : ولم نسمع الداعي يقول في الدعاء يا إل كما تقول : يا الله الخ ٠٠ وهذا منقول عن الفراء ٠

٥٣ـ فنون الأفنان ـ ص : ٣٥١ ٠

٥٤ـ ذكره الزركشي في البرهان : ٣٨٥/١ (ط دار المعرفة ، بيروت) ويسمون الأولى الآخرة ٠

٥٥ـ المصدر السابق ٠

٥٦ـ ل : البيعة بالكسر : كنيسة النصارى (بيع) ٤٠٢/١ ٠

٥٧ـ فقه اللغة : ٣١٦ ٠

٥٨ـ ص : (تبر) التبار : الهلاك وتبره تتبيراً ، أي كسره وأهلكه ٦٠٠/٢ وانظر ق : (تبر) أيضاً •
٥٩ ـوقد تكررت هذه اللفظة في القرآن سبعة وسبعين مرة •
٦٠ـ ل : (جهنم) ٧١٥/١ قال ابن منظور : بئر جهنم وجهنام بكسر الجيم والهاء بعيدة القعر وبه سميت جهنم لبعد قعرها، وقال الجوهري : جهنم من أسماء النار التي يعذب الله بها عباده ، ويقال : هو فارسي معرب • (جهنم) ١٨٩٢/٥ •
٦١ـ في الاتقان « حرم » وهي قراءة شاذة •
٦٢ـ ل : (حطط) الحط : الوضع ، وفي (ص) حط الرحل والرح : أي نزل •

٦٣ـ حكاه الثعلبي في فقه اللغة : ص ٣١٦ وقال ابن منظور: الدينار فارسي معرب وأصله دنار بالتشديد بدليل قولهم دنانير ، وهو مما تكلمت به العرب فصار عربية • ل (دنر) ١٤٣٢/٢ •
٦٤ـ ص (دعن) الرعونة : الحمق والاسترخاء : ٢١٢٤/٥ •

٦٥ـ ل (ربب) الربانيون : العلماء بالحلال والحرام والأمر والنهي قال أبو عبيد : واحسب الكلمة ليست بعربية انما هي عبرانية او سريانية وذلك ان أبا عبيدة زعم ان العرب لا تعرف الربانيين ، وانما عرفها الفقهاء وأهل العلم ، ١٥٤٩/٣ •
٦٦ـ ل : (رحم) الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء وهو اسم من أسماء الله عز وجل مذكور في الكتب الاول ١٦١٢/٢•
٦٧ـ ل (زنجبيل) الزنجبيل : مما ينبت في بلاد العرب بأرض عمَان وهو عروق تسري في الأرض ، ونباته شبيه بنبات الراسن ، والعرب تصف الزنجبيل بالطيب ١٨٧٠/٣ •
٦٨ـ ص (سجل) السجل : الصك ١٧٢٥/٥٠ •
٦٩ـ ل (سجن) قال : وسجين وسجيل بمعنى واحد والمعنى أنها حجارة مما كتب الله تعالى انه يعذبهم بها ١٩٤٦/٥ •
٧٠ـ ص : (سقر) : اسم من أسماء النار : ٦٨٧/٢
٧١ـ ل : (سلسبيل) السلسبيل : السهل المدْخل في الحلق، قال ابن الأعرابي : لم اسمع سلسبيل الا في القرآن : ٢٠٦٤/٣ •
٧٢ـ ل : (سنا) قال « سنا البرق » ضوءه : ٢١٢٩/٣ وانظر فقه اللغة : ٣١٦ •
٧٣ـ الثعالبي ، فقه اللغة : ٣١٧ •

٧٤ـ ل : (شهر) قال : الشهر القمر ، سمي بذلك لشهرته وظهوره وهو العدد المعروف من الأيام ٢٣٥١/٤ •
٧٥ـ ص : (عرم) العرم : المسناة ، لا واحد لها من لفظها : ١٩٨٣/٥ •
٧٦ـ نسبة الى طخارستان • ولاية من نواحي خراسان • معجم البلدان : ٢٣/٤ •
٧٧ـ ذكره الثعلبي في فقه اللغة : ٣١٨ فيما نسب الى الرومية وقال معناها : البستان •

٧٨ـ ل : (قرطس) قال ابن منظور : ٣٥٩٢/٥ « القرطاس : معروف يتخذ من بردي يكون بمصر ، والقرطاس : الصحيفة الثابتة التي يكتب فيها ، وقد حقق هذه الكلمة الدكتور التهامي الهاشمي وبين ان أصلها اغريقي •
٧٩ـ فقه اللغة للثعالبي : ٢١٨ •
٨٠ـ قال في (ص) (قفل) : ١٨٠٣/٥ القفل معروف • والقفل الباب مثل أغلق • وقال ابن منظور : (قفل) ٣٧٠٧/٥ والقفل : ما يغلق به الباب مما ليس بكثيف ونحوه •
٨١ـ ص : ٣١٨ •
٨٢ـ فقه اللغة : ٣١٨ ، وفي (ل) (كفر) ٣٩٠١/٥ والكافور: أخلاط تجمع من الطيب •
٨٣ـ ذكره الثعلبي في فقه اللغة في ذكر أسماء قائمة في لغة العرب والفرس على لفظ واحد : ص ٣١٦ ، وفي (ل) ٣٩٣٧/٥ (كنز) والكنز : اسم للمال اذا أحرز في وعاء لما يحرز فيه ، أو المال المدفون •
٨٤ـ ل (وكا) ٤٩٠٤/٦ ، قيل للطعام متكأ لان القوم اذا قعدوا على الطعام اتكؤا ، وقال الزجاج : ما يتكأ عليه لطعام أو شراب أو حديث •
٨٥ـ المجوسية : نحلة ، والمجوسي : منسوب اليها ، وهم عبدة النار • (ل) مجس : ٤١٤٠/٦ •

٨٦ـ ص (مرج) ٣٤١/١ ، المرجان : ضد اللؤلؤ وانظر (ل) مرج ٤١٦٩/٦ .

٨٧ـ ص (مسك) ١٦٠٨/٤ والمسك ضرب من الطيب ، فارسي معرب . وانظر ل مسك : ٤٢٠٣/٦ .

٨٨ـ ص (ورد) ٥٥٠/٢ الورد بالفتح : الذي يشم ، الواحدة وردة وانظر ل ورد : ٤٨١٠/٦ .

٨٩ـ ص (يقت) ٢٧١/١ ، الياقوت ، يقال : فارسي معرب، وهو فاعول ، الواحدة ياقوتة ، والجمع : اليواقيت . وانظر ل (يقت) ٤٩٦٤/٦ وفقه اللغة : ٣١٧ .

٩٠ـ هذه المنظومات مذكورة في آخر المهذب : ص ١٦٩ـ١٧٨، والاتقان ٤٤٣/١ـ٤٤٤ .

٩١ـ المهذب : ٧٢ ، وانظر الاتقان : ٤٣١/١ـ٤٣٢ .

٩٢ـ المهذب : ٩٨ـ٩٩ .

٩٣ـ المرجع السابق : ١٠٢ .

٩٤ـ المرجع السابق : ٩٩ ، وانظر الاتقان : ٤٣٦ .

٩٥ـ المهذب : ١٠٤ .

٩٦ـ الشافعي ، الرسالة : ١٤ (المقدمة) .

٩٧ـ المصدر السابق : ٣٤ .

٩٨ـ الرسالة : ٣٨ وكذا عند الطبري في جامع البيان : ٢٠/٢ وانظر ، الفراء ، معاني القرآن .

٩٩ـ المهذب : ٦٧ .

١٠٠ـ ابن منظور ، لسان العرب : (ط دار المعارف ، مصر) ٣٤٥/١ (بلع) . وانظر الجوهري الصحاح (ط دار العلم للملايين) ١١٨٨/٣ (بلع) .

١٠١ـ ابن الجوزي ، فنون الأفنان : ٣٥١ ، والمهذب : ١٦١ .

١٠٢ـ المهذب : ١٦٢ وانظر الاتقان : ٣٩٢/١ .

١٠٣ـ لسان العرب : ١٠٤٢/٢ (حور) وانظر الصحاح : (حور) .

١٠٤ـ الاتقان : ٣٩٢/١ .

١٠٥ـ المهذب : ١٠١ .

١٠٦ـ المهذب : ١٠٠ .

١٠٧ـ قال في لفظ « سنا » عده الحافظ ابن حجر في نظمه ولم اقف عليه لغيره . أنظر المهذب : ١٠١ . وانظر ايضة ص ١٥٨ فقد نقل عن الجواليقي ان (وردة) في قوله « فكانت وردة كالدهان » /الرحمن : ٣٧/ . الورد المشموم في الربيع ، يقال انه ليس بعربي .

١٠٨ـ السيوطي ، المتوكلي فيما ورد في القرآن من اللغات الخ ، تحقيق د. عبدالكريم الزبيـدي ، (ط دار البلاغة ، بيروت ١٩٨٨ م) ص ٣٤ .

١٠٩ـ لم يذكر السيوطي اسم هـذا الكتاب صراحة ولكن بالمقارنة بينـه وبـين الدر المنثور يمكننا استنباط ذلك والله أعلم . انظر المتوكلي : ٣٢ .

١١٠ـ المتوكلي : ٣٢ .

١١١ـ المهذب : ١٥٣ .

من كتب التراث :

مشتهى العقول في منتهى النقول

تأليف : الإمام جلال الدين السيوطي

تحقيق : بديع السيد اللحام

تصدير :

هذه رسالة طريفة ونادرة تتجلى من خلالها شخصية الامام السيوطي العالم الموسوعي .

من المعروف أن المكتبة العربية قد حفلت بعدد من المصنفات التي استقلت برصد الأوليات ، وقد بدأ التأليف فيها مبكراً في تاريخ المكتبة العربية ، ففي أواخر القرن الهجري الثاني وضع هشام بن الكلبي (ت : ٢٠٤ هـ ـ ٨١٩ م) كتاب الأوائل . ثم تلاه المدائني (ت : ٢٢٥ هـ ـ ٨٣٩ م) ، ومن بعدهما ألف أبو هلال العسكري (ت : ٣٩٥ هـ ـ ١٠٠٤ م) أشهر كتب « الأوائل » .

ولم ينقطع التصنيف في هذا الباب بعد ذلك ، فاسماعيل الموصلي (: ٦٣١ هـ ـ ١٢٣٣ م) له مصنف ، وبدر الدين الشبلي (ت : ٧٦٩ هـ ـ ١٣٦٧ م) له مصنف وغيرهم ... وأخيراً لا آخراً وضع السيوطي (ت ـ ٩١١ هـ ـ ١٥٣٣ م) مصنفاً حافلا ، جامعاً ومستوعباً لكل ما كتب قبله ، مع زيادات جمة وسماه : « الوسائل الى معرفة الأوائل » . وقد طبع هذا الكتاب عدة مرات .

لقد قمت بالبحث والتفتيش ، في فهارس المكتبات وخزائن المخطوطات ، لعلّي أعثر على مصنّف واحد ، رصد لنا « منتهيات الأشياء وغايات الأمور » كما رُصدت من قبل « أوائلها » . فلم أجد سوى الامام السيوطي في رسالته هذه ، والتي نقدمها اليوم لقراء العربية ، بمناسبة هذا العدد الخاص من مجلة التراث العربي ، وأرجو أن يجد القارىء في هذه الرسالة من الطرافة والمتعة ما وجدت عندما ظفرت بها ، وطالعتها المرة تلو المرة .

★ باحث ومحقق في التراث .. سيصدر له كتاب /جهود علماء دمشق في علم الحديث خلال القرن الرابع عشر للهجرة/.

جمع السيوطي في هذه الرسالة بعض منتهيات الحوادث وغايات الأمور ، انتقاها ونقلها عمن تقدمه ، كما يوحي بذلك عنوانها« منتهى النقول » • ولكنه وعلى خلاف المعهود عنه في منهجه في التأليف لم يسند لنا هذه النقول الى أصحابها ، أو يعزوها الى قائلها أو الكتاب الذي نقلت منه ، وهو القائل : « قد علم الله والناس من عادتي في التأليف أني لا أنقل حرفاً من كتاب أحد الا مقروناً بعزوه الى قائله ، ونسبته الى ناقله »(١) ولكننا لا نلمح لهذه العادة أثراً في هذا المؤلف الذي بين أيدينا ، والله أعلم بالسبب •

لم يكتف السيوطي بعدم عزو النقول الى أصحابها ، فهو لم يقم أيضاً بتمحيص تلك النقول ــ لبيان صحيحها من سقيمها ــ ومنها نقول أشبه ما تكون بالخيال ، ان لم نقل انها من وحي الخيال فعلا ، مما نجده مسطراً في كتب التاريخ القديم ، التي كانت ميداناً واسعاً وخصباً كالأخبار الاسرائيلية الموضوعة ، والآثار المكذوبة ، وخاصة عند ذكر بدء الخليقة ، والأمم البائدة ، والغيبيات التي لا تستند الى دليل نصّي قطعي الثبوت والدلالة •

ليست كل نقول السيوطي من هذا النمط فهناك نقول أخرى أوردها في رسالته ، تستند الى الخبر الصحيح والنص الصريح ، مما لا جدال فيها ولا مماراة ، وخاصة تلك النقول المتعلقة بـ (منتهى النعيم ، ومنتهى العذاب ، ومنتهى الليالي ، ومنتهى فتن الدنيا) ••• وغيرها ، وهناك نقول أخرى تتعلق ببعض الشخصيات الاسلامية ، مما تجده مسطراً في الفقرات من (٢٣ ــ ٤٠) •

قدم السيوطي لرسالته هذه بمقدمة وجيزة جداً ، بيَّن فيها أن ما يحويه هذا المجموع ما هو إلا ثمار منوعة ، اقتطفت من كتب متعددة ، وجمعت دون عناية بترتيب وتبويب وتزويق • فلا نلمس نظاماً معيناً في ترتيبها ، فهي أشبه بكشكول أو مخلاة صغيرة ، جمعت نقولا لا رابط بينها ، سوى كون كل منها صدر بقولنا : « منتهى •• »

توثيق الكتاب والنسخ المعتمدة في التصحيح :

لم يذكر السيوطي هذا الكتاب من بين مؤلفاته ، عندما عددها لنا في كتابه « حسن المحاضرة » ، ولا في كتابه « التحدث بنعمة الله » ، أو فهرست مؤلفاته الذي وضعه سنة (٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م) ، أي قبل وفاته بسبع سنوات • ولكن عدم ذكر السيوطي لهذا الكتاب فيما مر لا يعني أنه ليس من مؤلفاته • فهناك عدد كبير من المصنفات التي وضعها السيوطي ، بعد الاحصاءات التي مرت لكتبه ، وهذه المصنفات ، أعني التي لم يذكرها السيوطي ، قد نسبها له من جاء بعده •

وممن نسب هذا الكتاب الى السيوطي : صاحب هدية العارفين ، وصاحب عقود الجوهر ، وصاحب مكتبة الجلال السيوطي ، وصاحب دليل مخطوطات السيوطي • يضاف الى ذلك أن جميع مخطوطات هذا الكتاب سطر على صفحة عنوانها اسم الجلال السيوطي ، وبذلك لا يبقى مجال للشك في صحة نسبة هذا الكتاب لمؤلفه الامام السيوطي ، وهو من أواخر ما صنفه من الكتب •

لقد قام كثير من الباحثين بتحقيق بعض كتب الامام السيوطي في هذه الأيام ٠ وبالرغم من وجود عدد من النسخ المخطوطة لكتاب : « مشتهى العقول في منتهى النقول » ، فان هذا الكتاب لم يسبق له أن طُبع ، اللهم إلا طبعة حجرية قديمة، طُبعت في مصر عام ١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩ م ٠ وهذه المطبوعة أصبحت أندر من مخطوطات الكتاب الأصلي، لذلك قمت بالبحث عن نسخة من الكتاب المطبوع ، في عدد من المكتبات العامة والخاصة ، والتي تحوي الكتب القديمة ، فلم أعثر لها على أثر ، لهذا وجدت الرغبة الصادقة في اخراج هذا الكتاب ، بعد أن حصلت على ثلاث نسخ مخطوطة منه ،محفوظة في المكتبة الظاهرية بدمشق (مكتبة الأسد الوطنية) واليك بيان هذه النسخ :

ـ **النسخة (١) :** ضمن مجموع رقمه (٥٨) عدد أوارقه (١٥٠) منها (٨) ورقات (٩٧ ـ ١٠٤) لكتاب السيوطي الخط نسخي معتاد، المسطرة (١٩) سطراً ، وتنتهي كبقية النسخ ، ولكن دون ذكر الخاتمة ٠ بل يتصل الكلام بأبيات شعرية عن مدينة دمشق ، والنسخة غير معروفة الكاتب، وهي من خطوط القرن الثاني عشر الهجري ، وهي برغم ما فيها من أخطاء أصح النسخ الثلاث ٠

ـ **النسخة (٢) :** ضمن مجموع (رقمه ٧٧٠٢) ق (١ ـ ٥/أ)(٤) ، مكتوبة بخط نسخي معتاد أيضاً ، مسطرتها (٢٧) سطراً ، مجدولة بالحمرة في بداية الفقرات ، حالة المخطوطة جيدة ، لكنها غير معروفة الناسخ ولا تاريخ النسخ ، وهي تلي النسخة (١) بدرجة الجودة ٠ وقد جاء عنوان الكتاب على ظهر النسخة محرّفاً : « منتهى العقول ومنتهى النقول » ، ولكنه جاء على الصواب في الداخل ٠

ـ **النسخة (٣) :** ضمن مجموع (رقمه : ٤٩٩٩) ، ق (١٠٠ ـ ١٠١/أ) الخط عادي ، والمسطرة (٤٢) ٠ كتبها المرتجي رحمة ربه الغفور ، زاهد ابن الشيخ أحمد الزيزي (كذا) ، غفر الله له ولمن دعى له ولمن أمَّن على دعائه ٠٠ وذلك في يوم الخميس المبارك ، خلا اثنان وعشرون يوماً من شهر محرم الحرام ، من شهور سنة ألف ومائتين وأربعة وستين (١٢٦٤ هـ ـ ١٨٤٧ م) ٠٠ وجاء عنوان الكتاب فيها « مشتهى العقول ومنتهى النقول » وهذه النسخة مليئة بالأخطاء والتصحيفات ، وفيها زيادات واضحة بقلم الناسخ ٠

وبما أن النسخ الثلاث المعتمدة اشتركت بوجود بعض الأخطاء ، وفي كل منها من السَّقْط ما ليس في الأخرى ، لذا فقد لجئت الى إخراج نص الكتاب من النسخ الثلاث ، ولم أوفر جهداً في تصحيح النّص بقدر الامكان ، وذكرت في التعليقات فروقات النسخ ، ولم أشأ أن أُثقل الحواشي بالتعليقات ، فاقتصرت على عزو الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على قلتها ، وهذا فيما أرى يتناسب مع طبيعة نشر أمثال هذه النصوص في المجلة ٠

أرجو أن أكون قد وفّقت الى اضافة ما يُفيد من خلال هذا النص المحقق ، وما توفيقي الا بالله ٠

بديع السيد اللحام

النص المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى • وبعد :

هذا مجموع لطيف من كتاب شريف ، أعني كتاب : (مشتهى العقول في منتهى(٥) النقول) • وهو في جزء(٦) وفيه الاجزاء ، وهذه أثمار من أشجار ، واقطار من بحار(٧) ، من تبويب ولا ترتيب •

١ ــ منتهى الأجسام « العرش » : انتهت قوائمه الى ثلاثمائة وستين قائمة • ما بين كل قائمتين(٨) من قوائمه ثمانون ألف عام ، وهو سقف الجنة ، ويُظِل سبعين يوم القيامة، من السبعين(٩) السبعة التي في البخاري ، الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه(١٠) •

وبعض ملائكة العرش عرض شحمة أذنه مسيرة خمسمائة عام •

وطار مَلَك اسمه « حزقاييل » بثلاثة عشر ألف(١١) جناح (كل جناح)(١٢) قدر الأرض الى عنق العرش عشرين ألف سنة ، ثم ضاعف الله له أجنحة وقوة فطار ثلاثين ألف سنة(١٣) ثم قال : «يا رب الى منتهى العرش»؟ فأوحى الله اليه : « لو طرت(١٤) الى أن ينفخ في الصور لن تبلغ (ساق العرش)(١٥) » •فقال« سبحان ربي الأعلى » [فأنزل الله] : (سبح اسم ربك الأعلى)(١٦) •

قلت : يعني يا محمد سبح اسم ربك الأعلى(١٧) الذي أسرى بك ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، الذي باركنا حوله الى (سدرة المنتهى الى)(١٨) ما لا يصل حزقاييل ولا جبرائيل(١٩) •

٢ ــ منتهى الليالي « ليلة القدر » قال الله تعالى : (ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها ، باذن ربهم من كل أمر ، سلام هي حتى مطلع الفجر)(٢٠) •

٣ ــ منتهى كل دار « الجنة » أو « النَّار » :

فالجنَّة : عرضها كعرض السموات(٢١) والأرض ، طولها يمتد الى الأبد ، وشجرة طوبى يسير الراكب السريع(٢٢) في ظلها مئة عام ما يقطعها(٢٣) وأشجارها أصولها في الغيب وفروعها(٢٤) الى الأرض ، تطرح الحلي والحلل(٢٥) •

٤ ــ منتهى النعيم « النظر الى الله تعالى بلا كيف ولا وصف » ، ولا يحيطون به علماً • (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار)(٢٦) ، ولحديث : « إنكم سترون ربكم »(٢٧) (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة)(٢٨) •

وقوله تعالى : (لن تراني)(٢٩) ، أي في غير(٣٠) الجنَّة •

٥ ـ **منتهى العقاب**(٣١) « **حجاب الخلق عن الحق** » : قال الله تعالى (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)(٣٢) ، (ومفهوم الضد : غير المحجوبين)(٣٣) يرون ربهم من المؤمنين فينسون النعيم(٣٤) اذا رأوه ، فياخسران(٣٥) أهل الاعتزال ٠

٦ ـ **منتهى الملائكة ملك اسمه « الروح »** : قدر أهل الحشر(٣٦) وحده ، وفي الحشر(٣٦) بعض الملائكة(٣٧) خطوة الواحد منهم(٣٨) أربعة آلاف سنة ٠

٧ ـ **منتهى السعادة**(٣٩) **لنبينا « محمد صلى الله عليه وسلم »** وخص بزيادة على أربعين خصيصة ، وخلق الحق الخلق لأجله ليخاطبه بالقرآن(٤٠) ، ولولاه لم تخرج الدنيا من العدم ٠

٨ ـ **منتهى الشقاوة لـ : « إبليس »** : عَبَدَ الله تسعين ألف سنة ، ثم انقلب شقياً سرمداً(٤١) الى أبد الآبدين ، لقوله تعالى : (وإن عليك اللعنة الى يوم الدين)(٤٢) ٠

٩ ـ **منتهى العلوم في**(٤٣) « **القرآن** » : عجز عنه الثقلان ، قال الله تعالى : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله)(٤٤) ٠

وفيه علوم عدد(٤٥) الأنبياء ـ مئة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي ، وقيل : مئتي ألف وأربعة(٤٦) وعشرون ألف ـ (قل : لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً)(٤٧) ٠

١٠ ـ **منتهى الملك لـ : « سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام)** : سماطه كل يوم : (ألف جمل ، وأربعون ألفاً من الغنم ، وأربعة آلاف من البقر ، في قدور راسيات يعملون له ما يشاء ٠ وبساطه مسيرة مئة ألف فرسخ(٤٨) ، عليه الطير كالقبة ، ومئة(٤٩) ألف كرسي من ملوك الانس والجن ، ومن جنده «بلقيس» لها اثنا عشر ألف نائب ، تحت يد كل نائب مئة ألف من الجند ، وملكها بعرشها في ملك « سليمان عيه السلام » جزء من مئة ألف جزء ، وكفى قوله تعالى : (وورثَ سليمانُ داودَ وقال : يا أيها النَّاس عُلِّمنا منطق الطَّير وأوتينا من كلِّ شيءٍ ، إنَّ هذا لهو الفضلُ المبين)(٥٠) ، والآيات والآثار في ذلك كثيرة ، ويكفي قوله تعالى : (ربِّ اغفرلي وهَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنَّك أنت الوهَّاب)(٥١) ٠

١١ ـ **منتهى المدائن « بغداد »** : حماماتها (ستون ألفاً)(٥٢) ، ومساجدها (ثلاثمئة ألف) ، ومفتوها بالأسواق (أربعة وعشرون ألفاً) ودورها (ثلاثة أيام) ، ومدتها (خمسمئة سنة وشيء) ، وبها : الأديان الأربعة ، والثلاثة والسبعون فرقة ، ودار الخلافة بها : (أحد عشر ألف طواشي ، وسبعة آلاف عبد خواص من البربر والروم) ونوبة كل فراش أربعة آلاف ٠

١٢ ـ **منتهى كرم الوزراء «البرامكة»**: كاد ألا يوجد أحد من العلماء والحكماء والندماء والعظماء الا وللبرامكة عليه كرم نما كماء السماء ٠

وتكرم « جعفر »(٥٣) بخمسين ألف دينار من الذهب ، وتكرر ذلك منه كثيراً(٥٤) في ولايته كلها من غير مَنٍّ ولا أذى ولا انفصال ولا تخصيص ولا لغرض ولا عرض حتى صار يضرب بهم المثل الأكمل بقولهم(٥٥) : تبرمك فلان ·

ومن كرم «جعفر» تكرم في يوم على ألف شاعر ببابه أعطى كل شاعر ألف درهم ــ والدرهم : ثلاثة أنصاف ــ ·

ومن كرمه أنه تكرم على(٥٦) من هجاه بخمسة آلاف درهم ، وعفى عن تأديبه وتعذيبه ·

١٣ ــ منتهى جند « الأموية » : ستمئة [ألف ، وعمروا الجامع الأموي بدمشق صرفوا عليه مقدار ألف كيس] ، زيادة(٥٧) على عشر مرات ، وكان فيه اثني عشر ألف مرخّم ، واثني عشر ألف نجار ·

١٤ ــ منتهى نساء الخلفاء « زبيدة » : جدها وزوجها وابنها خلفاء ، جدّها «المنصور» الذي بنى بغداد ، وزوجها « هارون الرشيد » ، (وابنها « محمد الأمين »)(٥٨) ·

١٥ ــ منتهى الفتن الاسلامية « فتنة التتار » ببغداد : قتلوا ألف (٥٩) ألف وستمئة ألف ، وسدوا الدجلة بالكتب ، وعلقوا الصلبان على المنابر وعلى دار الخلافة ، وعلقوا المصاحف الشريفة في أعناق الكلاب ، وزادوا في الفساد على « شداد بن عاد » و « فرعون ذي الأوتاد » ونزعوا الخلافة من الاسلام(٦٠) ، وبشّر وحذّر وأنذر بهذه الفتنة الرسول ﷺ (٦١) ، وكانت في سنة(٦٥٦ هـ) ·

١٦ ــ منتهى فتن الدنيا «فتنة الدجال» : لقوله عليه الصلاة والسلام : « ما بين آدم والساعة أمر أكبر من الدجال »(٦٢) لا يسلم منه أحد من هذه الأمة الا اثنا عشر ألفاً ، وسنته الثالثة لا تنبت(٦٣) الأرض ذرّة ولا تمطر(٦٤) السماء قطرة ·

١٧ ــ منتهى الأمم هذه «الأمة المحمدية» : علماؤها كأنبياء بني اسرائيل(٦٥) ، وكفى منهم : الخلفاء الأربعة ــ وهم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ــ ، وعمر بن عبدالعزيز ، والأئمة الأربعة(٦٦) ، والذين اخترعوا العلوم ــ كاختراع علي رضي الله عنه علم «النحو» ، والخليل « العروض » ، والامام الشافعي ، أصول الفقه »(٦٧) ، والامام الجرجاني . المعاني والبيان » ·

١٨ ــ منتهى الحفظ لـ ابن جرير الطبري » : فريد في علم التفسير ، وكان يحفظ حمل ثمانين بعيراً ·

ــ وحفظ « ابن الأنباري » في كل جمعة ألف كراس ، وحفظ ثلاثمئة ألف بيت من الشعر استشهاداً من الشعر للنحو ·

ــ وكان « الشافعي » رضي الله عنه يحفظ من مرة ــ أو نظرة ــ ·

ـ و « ابن سينا الحكيم » حفظ القرآن في ليلة واحدة ٠

ـ و « أبو زرعة » كان يحفظ ألف ألف حديث ٠

ـ والكل من بعض محفوظ امام السنة(٦٨) « أحمد بن حنبل » ٠

١٩ منتهى التصانيف في الكثرة(٦٩) لـ« ابن شاهين » : صنّف ثلاثمئة وثلاثين مصنفاً منها ، التفسير ألف جزء ، والمسند الف وخمسمئة جزء ، والتاريخ مئة وخمسون مجلداً ، ومداد هذه التصانيف وغيرها سبعة وعشرون قنطاراً(٧٠) ٠

قلت : هذا من كرامة طي الزمان كالمكان من وراثة الأسرار(٧١) وليلة القدر ٠

٢٠ ـ منتهى الحشرات عقرب اسمها «كرور » وتسمى « الجرارة » : اذا لدغت ثعباناً قدر النخلة الباسقة(٧٢) يذوب جسمه من لدغتها(٧٣) ـ تموت الأفاعي من سموم العقارب ـ وقدر جسم هذه العقرب ثلاث أرزات موزونات في ميزان الذهب ، ولدغت هذه العقرب طست نحاس(٧٤) ، فغسل بالطين مرات ، فسقطت يد الذي غسله(٧٥) لأنه كان لا يُغسل الا أن يوضع في النار على كور الحداد والنحاس حتى يذهب أثره بزوال جسم من النحاس ٠

ـ وهذه العقارب بالكثرة في بلاد عَسْكَرمُكْرَم(٧٦) ٠

ولدغت انساناً به الفالج (فعوفي وخلص من الفالج)(٧٧) ـ وربما صحّت الأبدان بالعلل ـ ٠

٢١ ـ منتهى الحيوان « السبع » : وأكثره وأكبره بالمغرب قد عجل الجاموس ٠ اذا صرخ كأنّ القيامة اذا قامت ، تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس (سكارى [وما هم بسكارى])(٧٨) ٠ لم يخلق اللّه في قلب السبع هيبة أحد من الخلق، كأنهم عنده كالكلاب والذباب ـ اذا غضب أو نُوزع أو غولب(٧٩) لاينهزم أبداً، وله كرم وهمم وشيم، وشمم وثبت قدم، ولو كان يقتل ما زال ولاتحول، فهو سلطان الوحوش وخاقان أوطان الفروس(٨٠) ٠

٢٢ ـ منتهى السيول المكية » : هدّمت هذه السيل عام احدى وسبعين وسبعمئة زيادة على ألف بيت ، وقتلت نحو ألف نفس ، وقافلة بأربعين جملاً، وأكثر حيوان الجبل(٨١) من الغنم والبقر والجمال ٠ ونقل السيل حجراً من الوعساء الى « تكية الخاسكية » ما حُمِل الحجر الا بأربعة وعشرين عتّالا ، وهدّم أحجاراً من الجبال ، وسدّ «عين عرفة» ٠

ـ وما عرف أحد هذه السيل من المنجمين ولا المكاشفين ولا غيرهم ٠

ـ وعلوه الى قفل باب الكعبة ، وطوله وعرضه من مكة الى المدينة الى زبيد الى حضرموت ، ومدته من العشاء الى الظهر ، ورعده كأنما رجت الأرض رجاً ، وبرقه كالشمس الصاحية ، وبَرَدُه أكبره كالبطيخ الصغير ، وأصغره كبيض الحمام ، [ولو

انفتح سد خشكلدي(٨٢) ، أو أنــه استمــر ،كانت المياه لا تبقي ولا تذر من البشر والحجر، ولكن الله دفعه كما دفع أصحاب الفيل](٨٣)(وشر التتر ، واذا بلى دبًّر)(٨٤) ·

٢٣ ـ **منهتى الفضل** في هذه الأمة « لأبي بكر » رضي الله عنه ·

٢٤ ـ **ومنتهى الأمر بالمعروف** لـ « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه ·

٢٥ ـ **ومنتهى علم القضاء** لـ « علي بن أبي طالب كرم الله وجهه(٨٥) ·

٢٦ ـ **منتهى كتابــة جمع القــرآن** لـ « عثمان بن عفان » رضي الله عنه ·

٢٧ ـ **منتهى علم الفرائض** لـ « زيد بن ثابت » رضي الله عنه ·

٢٨ ـ **منتهى علم الفقه** لـ « معــاذ بن جبل » رضي الله عنه ·

٢٩ ـ **منتهى علم التفسير** لـ « ابن عباس » رضي الله عنهما ·

٣٠ ـ **منتهى إظهار علم القراءة** لـ« نافع » رحمه الله ·

٣١ ـ **منتهى علم السنة** لـ « مالك » رحمه الله ·

٣٢ ـ **منتهى علم القياس** لـ «أبي حنيفة» رحمه الله ·

٣٣ ـ **منتهى علم فقه السنة** للامــام «الشافعي» رحمه الله ·

٣٤ ـ **منتهى حفظ السنة** لـ : «أحمد بن حنبل» رحمه الله ·

٣٥ ـ **منتهى الزهد** لـ « ابراهيم بن أدهم » رحمه الله ·

٣٦ ـ **منتهى العبادة للصوفية** «الفضيل بن عياض » رحمه الله ·

٣٧ ـ **منتهى علم التصوف** لـ « الجنيد» رحمه الله(٨٦) ·

٣٨ ـ **منتهى السَّهر لـ** «السري السقطي» رحمه الله، نحو ثلاثين سنة(٨٧) لم يضع جنبه الى الأرض الا في علّة الموت(٨٨) ·

٣٩ ـ **منتهى الكتــب الصحيحة** لـ « البخاري » رحمه الله ·

٤٠ ـ **منتهى علم الأثر** لـ « ابن جرير »رحمه الله ·

٤١ ـ **منتهى الشعر** لـ « المتنبي » رحمه الله(٨٩) ·

٤٢ ـ **منتهى الكرم للوزراء** « البرامكة» ·

٤٣ ـ **منتهى الحكماء الاسلاميين كاليونانيين** « الفارابي وابن سينا » ·

٤٤ ـ **منتهى علم الأسمــاء** لـ « آدم » عليه السلام(٩٠) ·

٤٥ ـ **منتهى التكليم** لـ « موسى » عليه السلام ·

٤٦ ـ **منتهى الخلة** لـ « ابراهيم » عليه السلام ·

٤٧ ـ **منتهى الروحية** لـ « عيسى » عليه السلام(٩١) ·

٤٨ ـ **منتهى الفضل** لنبينا « محمد » عليه الصلاة والسلام ، وهم كلهم نيابة عنه صلى الله عليه وسلم (في الفضل)(٩٢) ·

٤٩ ـ **منتهى العلم اللدني** للخضر عليه السلام ·

٥٠ ـ **منتهى الجمال** لـ « يوسف » عليه السلام ، وهو شطر جمال « المصطفى » ﷺ ·

٥١ ـ **منتهى الماء الأرضي** « الطوفان » فانَّ علوه على الأرض فرسخ ونصف وأربعون ذراعاً ، ودائرته ما بين المشرق والمغرب ·

٥٢ ـ **منتهى الصبر** لـ « أيوب » عليه الصلاة والسلام ، سبعة عشر سنة وجسمه بيت الدود(٩٣) ·

٥٣ ـ **منتهى الصبر على الفراعنة لـ** : « أولي العزم » في الآية في قوله : (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم)(٩٤) ·

٥٤ ـ **منتهى من لبث في قومه** [« نوح » عليه السلام ، لبث فيهم] ألف سنة الا خمسين عاماً(٩٥) ·

٥٥ ـ **منتهى نسب الأنبياء** « يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم » عليهم الصلاة والسلام ·

٥٦ ـ **منتهى البخل** لقارون ، بخل بالزكاة تعمداً(٩٦) ، [فحلَّ عليه مثل قوله : (أم لهم نصيب من الملك فاذاً لا يؤتون الناس نقيراً)](٩٧) ·

قال تعالى : (وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ، اذ قال له قومه : لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين)(٩٨) ·

٥٧ ـ منتهى الاجتماع في الدنيا بين يدي موسى عليه السلام(٩٩) على « العصا » لقوله تعالى :

(قال : موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى)(١٠٠) ·

فعساكر فرعون في ذلك اليوم : سبعون كرَّة ، كل كرَّة مئة ألف من الجند ·

وغلمانه المطوّقون بالذهب الشبّاب ـ ولالاط(١٠١) باجماع أهل الأديان ـ وقوم موسى عليه السلام : ستمئة ألف وسبعون ألفاً ·

وجند هامان ابن عم(١٠٢) فرعون ووزيره : ألف ألف على يمينه ، وستمئة ألف على يساره(١٠٣) ٠

ومات : أربعة وعشرون ألفاً لما تلقفت العصا ما يأفكون ، وكانت دائرة الحلقة ثلاثة أيام كبغداد ٠

٥٨ ـ منتهى أعمال الحكماء الباقية« البرابي » : في براري الصعيد ، أعجب من الهرمين وأغرب علماً وعمـلا ، ومن عجائب برابي الصّعيد قول ابن رافع في طائيتـه في ديوانه :

فهـذا هو العلم الـذي وضعوا له برابـي إخميم وخصّوا بـه فقطا

والبرابي : قصور شامخة كالجبال فيها العالم مصور ومنقوش ومكتوب ٠

فالمصور : الأنس والجـن والملائكة والشياطين والحيوان ٠

والمنقوش : كالنبات والمعادن ٠

والمكتوب : كالعلوم والأعمال ٠

وقيل : إن تعبير تقريب ما هو مكتوب على باب بربة مدينة « دَنْدَرَة »(١٠٤) بقرب قنا وقوص : « صرفنا على مطبخ العقلاء ثلاثين قنطاراً فلفلاً » ٠

وغِلَظ كل عامود أربعة أبواع ٠

[وأنواع ما فيها من اختراع الصنائع يعجز عن حصره أهل الاطلاع ٠

ومن عجائب البرابي أنك ترى الحجـر الواحد قطعة واحدة قدر منارة السلطان حسن فما دون ذلك مصورة منقوشة مكتوبة ٠

قيل : وقالوا في بعض كتب التعريف : « لما أن دلّت علومنا السماوية على فساد العالم الأرضي خشينا عليه فنقشنا على هذه البرابي ما يحتاج اليه العالم من علم الصنائع والبضائع الى آخر الدهر » ٠

وقيل : ان دندر بن قفط بن إخْميم بن مصر بن سام بن نوح عليه السلام ، صاحـب البربة المشهورة بـ « بربة دنـدر » ، اتخـذ تنوراً من نحاس يرى فيه ما يحدث كل يوم ، فمما رأى وقوف النيل سبع سنين في زمن يوسف عليه السلام ٠ وبشّر الحكيم قومه وأنذرهم من قبل فحفر في الأرض ما يحتاج أن يزرعه قمحاً بلا زيادة نيل ، وخزّنه وانفرد بهذا في زمانه ، ولم يمت له من الجوع أحد ٠ وانفرد بحسن هذه البربة كأنها عروس منقوشة مـع أنها كجبل عظيـم ، وهي محـررة مسطـرة مبتكرة](١٠٥) ٠

قال بعض القضاة من نياب السلطنـة : لو اجتمع الآن كل سلطان في هذا الزمان وصرفوا جميـع أموالهم على عمالهم لن يستطيعوا أن يصوروا مثل هذا من خشب ولا طين ، فكيف وهذه من حجر كبير منقوش ومفروش ومكتوب ومصور ؟٠

قال بعضهم : والذي أقوله ــ والله أعلم ــ : إن هذه البرابي تصديق تعبير قصص موسى عليه السلام ، لقوله تعالى : (وجاؤوا بسحر عظيم)(١٠٦) وهذا من نهاية دوام تصديق الاعجاز ، وكيف موسى غلب على هؤلاء الذين أثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وما كان هذا الا بأمر رب العالمين رب موسى وهارون ، وان الذين يتعجبون من سد الدجلة بكتب بغداد لو رأوا برابي الصعيد والعلوم المكتوبة فيها كيف يكون تعجبهم ؟ وليس الخبر كالعيان ، واني متعجب من قول أصحاب العجائب : « ان أعجبها الهرمين » مع أن أقل برابي الصعيد ــ باجماع من شاهدها من أهل الكونين ، أجلّ وأكمل من عجائب الهرمين! • مع أن باني الهرمين قيل انه من أصحاب البرابي ، ولكنّ هذا على قدر ما اطلعوا(١٠٧) •

وما شهدنا الا بما علمنا ، وفوق كل ذي علم عليم ، ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء والى ربك المنتهى ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم •

تمت الرسالة المباركة •

* * *

□ الحواشي والتعليقات :

١ ـ السيوطي ، الكاوي في تاريخ السخاوي : ٩٤٩/٢ (مطبوع ضمن شرح مقامات السيوطي بتحقيق الدكتور سمير الدروبي ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٨ م) •

٢ ـ هدية العارفين : ٥٤٢/١ ، واحمد الشرقاوي اقبال ، مكتبة الجلال السيوطي : ٣١٩ (ط/دار المغرب الرباط، ١٩٧٧ م) •

٣ ـ عبدالاله النبهان ، فهرس مؤلفات السيوطي المطبوعة (ط ضمن مجلة عالم الكتب السعودية ، مج ١٢ـ١٤ رجب ١٤١١ هـ) ص : ٥٠ •

٤ ـ الفهرس العام لمخطوطات الظاهرية (ط/ مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٧ م) •

٥ ـ في ١ : ومنتهى •

٦ ـ في ٣ : أجزاء وبقية النسخ جزء •

٧ ـ في ٣ : أنهار •

٨ ـ في ٣ : قائمة •

٩ ـ ساقطة من : ١ و ٢ •

١٠ـ في ١ : العرش • قلت : وهو يشير الى ما اخرجه البخاري [رقم : ٦٢٩] ومسلم [رقم : ١٠٣١] عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال : « سبعة يظللهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله : الامام العادل ، وشاب نشا في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امراة ذات منصب وجمال فقال : اني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » •

١١ـ في ٢ : بثمانية عشر الف ، وفي ٣ : له ثمانية آلاف •

١٢ـ ما بين القوسين ساقط من : ٢

١٣ـ في ٣ : وطار الف سنة •

١٤ـ في ٣ : صفت •

١٥ـ ما بين القوسين ساقط من : ٣ •

١٦ـ سورة الأعلى آية : ١ •

١٧ـ ما بين العقفتين ساقط من : ٢ و ٣ •

١٨ـ ما بين القوسين ساقط من : ٢ •

١٩ـ اكثر ما اورده المصنف هنا عن العرش هو مما لا يصح من الاسرائيليات وتجده مدونا عند السيوطي في الهيئة السنية : ١ـ٤ (ط : بيروت) • وقد حكم السيوطي على بعضها بالوضع في اللآليء وذيلها كما في تنزيه الشريعة المرفوعة للكناني : ١/٢١١ •

٢٠ـ سورة القدر الآيات : ٣ـ٥ •

٢١ـ في ٣ : السماء •

٢٢ـ في ٣ : الرابع •

٢٣ـ في ٢ : لا يقطعها •

٢٤ـ ساقطة من : ١ •

٢٥ـ اخرج قريباً من هذا في وصف شجرة طوبى ابن جرير عن قره بن اياس ، وابن مردوية عن ابن عمر وابن عباس• كما في كنز العمال : ١٤/٤٥٠ـ٤٥١ •

٢٦ـ سورة الأنعام آية : ١٠٣ •

٢٧ـ اخرج البخاري [رقم : ٥٢٩] ومسلم [رقم : ٦٢٦] وغيرهما عن جرير بن عبدالله (رضي الله عنه) قال : كنا عند النبي (ﷺ) فنظر الى القمر ليلة ـ يعني البدر ـ فقال: انكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته ، فان استطعتم ان لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا• ثم قرأ: « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب »• [سورة طه آية : ١٣٠] •

٢٨ـ سورة القيامة آية : ٢٢ •

٢٩ـ سورة الأعراف آية : ١٤٣ •

٣٠ ساقطة من : ٣ •

٣١ـ في ٣ : العذاب •

٣٢ـ سورة المطففين آية : ١٥ •

٣٣ـ ما بين القوسين ساقط من : ٣ •

٣٤ـ في ٣ : فينسون العذاب النعيم •••

٣٥ـ في ٣ : فيا خسارة •

٣٦ـ في ٣ : المحشر (في الموضعين) •

٣٧ـ في ٣ : ملائكة •

٣٨ـ في ٣ : أحدهم •

٣٩ـ في ٢ : الشرف •

٤٠ـ في ٣ : ليغاطبه به ـ اي القرآن ـ •

٤١ـ في ١ ـ سرمدياً •

٤٢ـ سورة الحجر آية : ٣٥ •

٤٣ـ ساقطة من : ١ و ٣ •

٤٤ـ سورة الاسراء آية : ٨٨ •

٤٥ـ ساقطة من : ٢ •

٤٦ـ ساقطة من : ١ •

٤٧ـ سورة الكهف آية : ١٠٩ • قلت : وقد ورد في حديث اخرجه الحاكم واحمد وابن حبان وغيرهم ان عدد الأنبياء مئة الف واربعة وعشرون الفاً • انظر كنز العمال : رقم ٣٢٢٧٦ •

٤٨ـ ساقطة من : ٢ •

٤٩ـ في ٣ : منتي •

٥٠ـ سورة النمل آية : ١٦ •

٥١ـ سورة ص آية : ٣٥ • قلت : اورد السيوطي في الدر المنثور [٥/٣١٤] آثاراً اسرائيلية موقوفة على وهب بن منبه وغيره في وصف سماط سليمان ، ووصف بساطه •

٥٢ـ ساقطة من : ٣ •

٥٣ـ جعفر بن يحيى البرمكي وزير هارون الرشيد العباسي ولد ونشا في بغداد (١٥٠ هـ) قلده الرشيد الوزارة وفوضه في شؤون البلاد الى ان غضب على البرامكة جملة فقتله في مقلمتهم سنة (١٨٧ هـ) وهو موصوف بالفصاحة وكرم اليد والنفس • الأعلام [١٣٠/٢] •

٥٤ـ في ٣ : مرارا •

٥٥ـ ساقطة من : ٢ •

٥٦ـ في ٣ : عن •

٥٧ـ ما بين المعقفين ساقط من : ٣ ، وكلمة « زيادة » ليست في : ١ و ٣ •

٥٨ـ ما بين القوسين ساقط من : ٣ ، قلت : الأعرق منها في ذلك « فاطمةبنتعبدالملك » جدها : مروان بن الحكم، وأبوها عبدالملك ، واخوتها : سليمان ووليد وهشام ويزيد ، وأولاد اخوتها : الوليد بن يزيد ، ويزيد وابراهيم ابنا الوليد ، وزوجها عمر بن عبدالعزيز كلهم استلموا الخلافة .

٥٩ـ في ٣ : ألفا .

٦٠ـ زيادة من : ٣ .

٦١ـ لعله يشير الى ما أخرجه الخطيب بسند ضعيف عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال : يكون مدينة بين الفرات ودجلة يكون فيها ملك ابن عباس وهي الزوراء يكون فيها حرب مقطعة تسبى فيها النساء ويذبح فيها الرجال كما تذبح الغنم » قال الخطيب : اسناده ضعيف جداً ، قال السيوطي : وقعت هذه الحروب ... وذلك مما يقوي ورود الحديث، انظر كنز العمال : ١١/٣١٤٥٥ .

٦٢ـ الحديث ساقط من : ١ و ٢ . قلت : وقد أخرجه مسلم [رقم : ٢٩٤٦] .

٦٣ـ في ٣ : لا تمطر .

٦٤ـ في ٢ : لا تقطر .

٦٥ـ اشتهر على الألسنة « علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل » قال الحافظ ابن حجر ، والزركشي ، والسيوطي : لا أصل له . كشف الخفاء : ٢/٨٣ .

٦٦ـ وهم : أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد .

٦٧ـ زاد ناسخ ٣ هنا : رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة متقلبه ومثواه ونفعنا به وببركة علومه في الدنيا والآخرة آمين يا رب العالمين .

٦٨ـ زاد ناسخ ٣ هنا : امام السنة الذي قال في حقه شيخ البخاري : أغاث الله الاسلام برجلين لا ثالث لهما أبو بكر الصديق يوم الردة ، والامام أحمد بن حنبل (رضي الله عنهما) يوم المحنة .

٦٩ـ ساقطة من : ٣ .

٧٠ـ في ٣ : « ألف قنطار ومئة قنطار ، قلت : وسبعة وعشرين .. » .

٧١ـ في ١ : ورواية الاسراء . وفي ٢ : رواية ...

٧٢ـ في ١ : النحل الباسقات .

٧٣ـ قال صاحب حياة الحيوان : « وهي جرارات تلسع فتقتل .. وربما تناثر لحم من لسعته أو عفن لحمه أو استرخى حتى انه لا يدنو منه أحد الا وهو يمسك بأنفه مخافة اعدائه ، ومن لطيف أمرها أنها مع صغرها تقتل الفيل والبعير بلسعها . الدميري:٢/٤٥ .

٧٤ـ ساقطة من : ١ .

٧٥ـ في ١ : غاسله .

٧٦ـ بلد مشهور من نواحي خوزستان . [معجم البلدان : ٤/١٢٣] .

٧٧ـ ساقطة من : ٢ .

٧٨ـ ما بين القوسين ساقط من : ٣ ، وما بين المعقفين ساقط من : ٢ .

٧٩ـ في ١ : غلب .

٨٠ـ بعض هذه الأوصاف تنطبق على « النمر » من السباع. [حياة الحيوان : ٢/٣٣٤] .

٨١ـ في ١ : الجبال .

٨٢ـ كذا في النسخ الثلاث ولعله اسم موضع .

٨٣ـ ما بين المعقفين ساقط من : ٣ .

٨٤ـ ما بين القوسين ساقط من : ١ و ٣ .

٨٥ـ الفقرة (٢٥) ساقطة من : ٣ .

٨٦ـ الفقرتان (٣٦ و ٣٧) ساقطتان من : ١ .

٨٧ـ في ٣ : مئة ليلة .

٨٨ـ ساقطة من : ١ و ٣ .

٨٩ـ الفقرتان (٤٠ و ٤١) ساقطتان من : ٣ .

٩٠ـ الفقرة (٤٤) ساقطة من : ٣ .

٩١ـ الفقرتان (٤٦ و ٤٧) ساقطتان من : ١ .

٩٢ـ ما بين القوسين ساقط من : ١ .

٩٣- الفقرة (٥٢) ساقطة مـن : ٣ • قلت : وما ذكره عن أيوب (عليه السلام) هنا لا يصح وهو من الاسرائيليات ومناف لعصمة الأنبياء (عليهم السلام) •

٩٤- سـورة •

٩٥- ما بين المعقفين ساقط من : ٢ ، وفي ٣ : لبث في قومه خمسين الف سنة •••

٩٦- في ١ و ٢ : يخل بالزكاة بعدما كان فقيراً •

٩٧- سورة النساء آية : ٥٣ ، وهي ساقطة من : ٢ •

٩٨- سورة القصص : ٧٦ •

٩٩- في ٣ زيادة : وهارون •

١٠٠- سورة طـه آية : ٥٩ •

١٠١- في ١ زيادة : أبـداً •

١٠٢- « عـم » ساقطة من : ١ •

١٠٣- في ٣ : الف على يمينه وستمئة على يساره •

١٠٤- دنـدرة : بليـد على غربي النيل من نواحي الصعيد وفيها برابي كثيرة منها بربا فيها مئة وثمانون كوة تدخل الشمس كل يوم مـن كوة • [معجم البلدان : ٤٧٧/٣] •

١٠٥- في ٢ : مبيكرة ، وما بين المعقفين ساقط من : ٣ •

١٠٦- سورة الأعراف آية : ١١٦ •

١٠٧- البرابي : جمع بربا كلمة قبطية يعني موضع العبادة أو البناء المحكم أو موضع السحر • قال ياقوت بعد أن أورد بعض ما في هنا من أوصاف البرابي: «القصة المذكورة قلّ أن يخلو منها كتاب في أخبار مصر فلذلك ذكرت ، وان كانت بالخرافة أشبه » [معجم البلدان] • اما ابن بطوطة فيقول : « وعند الناس في هذه الصور اكاذيب لا يعرج عليها » [رحلة ابن بطوطة : ٦٧/١ ، ط/الرسالة] •

* * *

مؤلفات جلال الدين السيوطي

المخطوطة و المطبوعة

عنوان الكتاب

- أ -

- آداب الملوك ....
- آكام العقيان في أحكام الخصيان ....
- الآية الكبرى في شرح قصة الاسراء ....
- الابتهاج بنظم المنهاج ....
- أبواب السعادة في أسباب الشهادة ....
- الاتقان في علوم القرآن ....
- اتحاف الاخصا في فضائل المسجد الأقصى ....
- اتحاف الفرقة برفو الخرقة ....
- اتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء ....
- اتحاف الوفد بنبأ سورتي الخلع والحفد ....
- اتمام الدراية لقراء النقاية ....
- اتمام النعمة في اختصاص الاسلام بهذه الأمة ..
- الأجر الجزل في الغزل ....
- الأجوبة الزكية عن الألغاز السبكية ....
- الأحاجي النحوية أنظر مقامات السيوطي ..
- أحاديث التسبيح الواردة في الحديث الصحيح
- الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان ....
- أحاديث الشتاء ....
- أحاديث شريفة في فضائل قزوين والاسكندرية
- الأحاديث المنيفة في فضل السلطنة الشريفة ..
- أحاديث واردة في التشهد والجنائز والزكاة والصوم والحج وغير ذلك ....
- الأحاديث الواردة في الطاعون والدعاء بدفع الوباء ....
- أحاديث مسلسلات ....
- أحاديث من الجامع الصغير ....
- أحاسن الاقتناس في محاسن الاقتباس أو أحاسن الائتناس ....
- الاحتفال بالأطفال ....
- أحوال البعث ....

(*) اعتمدنا في نقل مؤلفات السيوطي المخطوطة والمطبوعة على دليل مخطوطات السيوطي واماكن وجودها .. الذي قام باعداده : السيد احمد الخازندار - والسيد محمد ابراهيم الشيباني .

عنـــوان الكتـــاب

عنــوان الكتــاب

عنـوان الكتـاب

- برد الأكباد في الصبر على فقد الأولاد
- برد الظلال في تكرار السؤال
- البـرزخ
- البرق الوامض في شرح تائية ابن الفارض
- البرهان في علامات مهدي آخر الزمان
- بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال
- بسط الكف في اتمام الصف
- بشرى العابس في حكم البيع الديور والكنائس
- بشرى الكئيب بلقاء الحبيب أو (تلخيص كتاب أحوال البرزخ)
- بغيـة الرائد في الذيل على مجمع الزوائد
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة
- بغية الوعاظ في طبقات الحفاظ
- بلبـل الروضة
- بلغة المحتاج في مناسك الحاج
- بلوغ الأمنية في الخانقاة الركنية
- بلوغ المآرب في أخبار العقارب
- بلوغ المآرب في قص الشارب
- بلوغ المأمول في خدمة الرسول
- البهجة السنية في شرح أسامي النبي (عليه الصلاة والسـلام)
- البهجة المرضية في شرح ألفيّة ابن مالك
- بهجة الناظر ونزهـة الخاطر
- بيان التشبيه في اللهم صلي على محمد
- البيان في رياضة الصبيان
- بيان قول النبي من عرف نفسه فقد عرف ربه

ـ ت ـ

- التاج في اعراب مشكل المنهاج
- تأخير الظلامة الى يوم القيامة
- تاريخ أسيوط أو (المضبوط في أخبار السيوط)
- تاريخ الخلفـاء
- تاريخ الزهور في وقائع الدهور
- تاريخ الصحابة
- تاريخ العمر (وهو ذيل على أنباء الغمر)
- تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه
- تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية
- التبر الذائب في الأفراد والغرائب
- التبري من معرة المعري (وهي أرجوزة في أسماء الكلب)
- تبييض الصحيفة بمناقب أبي حنيفة
- التثبيت عنـد التبييت (ذكر فيه فتنة القبور وما يتعلق بها)
- تجريد العناية في تخريج أحاديث الكفاية
- التحبير في علوم التفسير
- التحدث بنعم الله تعالى
- تحذير أهل الآخرة من دار الدنيا الدثرة
- تحذير الايقاظ مـن أكاذيب الوعاظ
- تحذير الخواص من أكاذيب القصاص
- تحرير شرح الأعمى والبصير
- تحرير المنقول وتهذيب الأصول
- تحصين الخادم (وهو مختصر كتاب خادم الرافعي والروضة في الفروع)
- تحفة الآثار في الأدعية والأذكار
- تحفة الأبرار بنكت الأذكار
- تحفة الانجاب بمسألة السنجاب
- التحفة البهيـة والطرفة الشهية
- تحفة الجالس ونزهة المجالس
- تحفة الجلساء برؤيـة الله (سبحانه وتعالى) للنساء
- تحفة الحبيب بنحاة مغني اللبيب
- تحفة ذوي الأدب في مشكل الأسماء والنسب
- التحفة السنية في قواعد العربية
- تحفة الظرفاء بأسماء الخلفاء
- التحفة الظريفة في السيرة الشريفة
- تحفة العجلان في فضل عثمان

عنوان الكتاب

- تحفة الغريب في الكلام على مغني اللبيب
- تحفة الكرام بأخبار الأهرام
- تحفة المجتهدين بأسماء المجددين
- تحفة المذاكر في المنتقى في تاريخ ابن عساكر
- التحفة المكية والنفحة المسكية
- تحفة النابه في تلخيص المتشابه
- تحفة الناسك بنكت المناسك
- تحفة النجبا في قولهم هذا بسرا أطيب منه رطبا
- تخريج أبيات التلخيص
- تخريج أحاديث شرح السعد
- تخريج أحاديث شرح العقائد النسفية
- تخريج أحاديث شرح المواقف في الكلام
- تخريج أحاديث الصحاح
- تخريج أحاديث الموطأ
- التخصيص في شواهد التلخيص
- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي
- التذكرة في العربية
- تذكرة من ضحى من صلاة ضحى
- تذكرة المؤتسي بمن حدث ونسي
- التذبذب في الزوائد على التقريب
- التذييل والتذنيب على نهاية الغريب
- التربية العليا في أدب الفتيا
- ترجمان القرآن في تفسير المسند
- ترجمة النووي والبلقيني
- الترشيح على الجامع الصحيح
- الترصيف حاشية على شرح التصريف
- تزيين الأرائك في ارسال نبينا الى الملائك
- تزيين العبارة لتحسين الاشارة
- تزيين الملائك بمناقب الامام مالك
- التسميط الفانيد في حلاوة الأسانيد
- تسمية الأشياء
- تشديد الأركان في ليس في الامكان أبدع مما كان
- تشنيف الأسماع بمسائل الاجماع
- تشنيف السمع بتعديد السبع
- التصحيح لصلاة التسبيح
- تصديق المتوكل
- التضليع في معنى التقنيع
- التطريف في التصحيف
- تعريف الأعجم بحروف المعجم
- التعريف بآداب التأليف
- تعريب الفتية بأجوبة الأسئلة المائة
- التعظيم والمنّة في أن أبوي النبي (ﷺ) في الجنّة
- التعقبات على الموضوعات
- تعليق الشص في حلق اللص
- التعليقة المنيفة على مسند أبي حنيفة
- التعلل والاطفاء لنار لا تطفأ
- تفتح الطيب في أسئلة الخطيب
- تفسير آية (ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر)
- تفسير الجلالين
- التفسير المسند
- تفسير الفاتحة
- تقريب القريب في الحديث
- تقرير الاستناد في تفسير الاجتهاد
- التقسيم في مشروعية التسبيح
- تكملة أرجوزة ابن دانيال في قضاة مصر
- تكملة العقود الدريّة في الأمراء المصريّة
- تلخيص الأربعين في المتباين لابن حجر
- تلخيص البيان في علامات مهدي آخر الزمان
- تمهيد الفرش في الخصال الموجبة للعرش
- تناسق الدرر في تناسب السور
- التنبيه بمن يبعثه الله على رأس كل مائة
- التنبيه على اللحن الجلي والخفي في القرآن والألفاظ المستكرهة
- تنبيه الغبي في تنزيه (تبرئة) ابن عربي
- تنبيه الواقف على شرط الواقف

عنـــوان الكتـــاب

عنـــوان الكتـــاب

عنــوان الكتـــاب

عنوان الكتاب

عنـوان الكتـاب

ـ ز ـ

عنـــوان الكتـــاب

عنـوان الكتـاب

عنـوان الكتـاب

عنـــوان الكتـــاب

ـ ق ـ

عنـــوان الكتـــاب

عنـــوان الكتـــاب

- لباب النقول في أسباب النزول أو فيما وقع في القران من المعرّب والمنقول
- لباب النقول فيما وقــع في القران من المعرّب والمنقول (انظر: لباب النقول في أسباب النزول)
- لبس اليلب في الجواب عن ايراد اهل حلب
- اللفظ الجوهري في رد خبــاط الجوجري في مسالة الرؤية للنساء
- اللفظ المكرّم بخصائص النبي المحترم
- لقط المرجان في أخبار الجان
- اللفظ الرايــق والمعنى الفايــق في الحقائــق والطرايق
- لم الاطراف وضم الأتراف
- اللمع في أسباب الحديث
- اللمع في أسماء مــن وضـع
- لمعة الاشراق في الاشتقاق
- اللمعة في أجوبة الأسئلة السبعة وأحوال الموتى
- اللمعة في تحقيق الركعة لادراك الجمعة
- اللوامع المشرقة في ذم الوحدة المطلقة
- اللوامع والبوارق في الجوامع والفوارق
- اللؤلؤ المنثور في نصيحة ولاة الأمور

ـ م ـ

- ما اعتبر بنصه في زيادة العمر ونقصه (أنظر: افادة الخبر بنصه في زيادة العمر ونقصه)
- ما رواه السادة في الاتكاء على الوسادة
- ما رواه الأساطين في عدم المجيء (الدخول) الى السلاطين
- ما رواه الواعون في أخبار الطاعون
- الماهد للسائل الزاهد
- المباحث الزكية في المسألة الدوركية
- مباسم الملاح ومناسم الصباح في مواسم النكاح
- مبهمات أو مفحمات الأقران
- المتجلي في تطور الولي
- المتوكل فيما في القرآن من اللغات العجمية
- المثابة في آثار الصحابة
- مجاز الفرسان الى مجاز القرآن
- مجرد الموطــأ
- المجلس الحادي والتسعون من املاء السيوطي
- مجمع البحرين ومطلع البدرين
- المجمل في الرد على المهمـل
- مجمع السيوطي
- المحاضرات والمحــاورات
- المحرر في قوله تعالى: (ليغفر لكَ اللهُ ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر)
- مختصر الأحكام السلطانية
- مختصر إحياء علوم الدين للغزالي
- مختصر الأذكار للنووي
- مختصر الألفية ودقائقها
- مختصر الايضاح في علم النكاح
- مختصر التنبيــه
- مختصر تهذيب الأسماء واللغات
- مختصر الجامع الصغير وذيله
- مختصر تحقيق الخادم
- مختصر الدرر البحار في الأحاديث القصار
- مختصر رسالة ثلــج الفــؤاد في أحاديث لبس السواد
- مختصر شفاء الغليل في ذم الصاحب والخليل أو الشهاب الثاقب في ذم الخليل والصاحب
- مختصر الطب النبوي
- مختصر النص القاهر
- مختصر الفهرس الكبيـر
- مختصر محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغــاء
- مختصر ملحة الاعراب
- المدرج الى المدرج
- المدرك في تصحيح المستدرك

عنوان الكتاب

- مرّ النسيم الى ابن عبدالكريم
- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع
- مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع
- المرج النضر والأرج العطر
- المرد في كراهية السؤال والرد
- مرقاة الصعود الى سنن أبي داوود
- المرقاة العلية في شرح الأسماء النبوية
- مرويات أمير المؤمنين أبي العز المتوكل على الله
- المزدهي في روضة المشتهي
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها
- المسارعة الى المصارعة
- مسألة الستين من مهمات مسائل الدين
- مسألة ضربي زيداً قائمة
- مسألة في كيفية الوحي من الله تعالى ومسائل أخرى
- مسألة في نبوة السيد ابراهيم بن النبي
- مسألة منقولة من كتاب قمع الحرص للقرطبي
- مسألة هل الشمع كان على عهد النبي والصحابة والتابعين (أو مسامرة المسموع في ضوء الشموع)
- مسالك الجنان في والدي سيّد الأكوان
- مسالك الحنفا في والدي المصطفى
- مسامرة المسموع في ضوء الشموع
- مسائل تتعلق بالزيادة على رد السلام
- مسائل الزهد تتعلق بحكم الصيد
- مسائل الزهد والذكر
- مسائل فقهية تتعلق بدخول النساء المساجد
- المستطرفة في أحكام دخول الحشفة
- المستظرف من أخبار الجواري
- المسلسلات الكبرى
- مسند أبي بكر وعمر وعثمان
- مسند الصحابة الذين ماتوا في زمان النبي (ﷺ)
- مسند عمر بن عبدالعزيز الخليفة الأموي
- مشتهى العقول في منتهى النقول
- المشنف على ابن المصنف
- المصابيح في صلاة التراويح
- المصاعد العلية في القواعد النحوية
- مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجه
- المضبوط في أخبار (تاريخ) أسيوط
- مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى
- المطالع السعيدة في شرح الفريدة
- مطلع البدرين فيمن يؤتى أجره مرتين(أجرين)
- المعاني الدقيقة في ادراك الحقيقة
- معترك الأقران في مشترك القرآن
- المعتصر في تقرير عبارة المختصر
- المعتلي في تعدد صور الولاء (الولي)
- معجم شيوخ السيوطي
- المعجم الصغير ـ يسمى المنتقى
- المعرب في شرح المغرب
- المغرب في لغة الفقه
- مفاتيح الغيب في التفسير
- مفتاح التلخيص
- المفاخرة بين الطيلسان والطرحي
- مفتاح الجنّة في الاحتجاج أو الاعتصام بالسنّة
- مفحمات الأقران في مبهمات القرآن
- مقاطع الحجاز
- مقاليد العلوم في الحدود والرسوم
- المقامات
- المقامة البحرية
- المقامة التفاحية
- المقامة الجيزية
- المقامة الدرية
- المقامة الذهبية في الحمى
- مقامة الرياحين (أو المقامة الوردية)
- المقامة الزمردية في الخضروات
- مقامة ساجعة الحرمين

عنوان الكتاب

عنـــوان الكتـــاب

عنـــوان الكتـــاب

ـ و ـ

ـ الواضح في تعليم الرمي ....
ـ الواعون في أخبار الطاعون ....
ـ الوافي في شرح كتاب التنبيه للشيرازي لم يكمله
ـ الوجه الناضر فيما يقتضيه الناظر ....
ـ الوجه النضر في ترجيح نبوة الخضر ....
ـ وجوب الاقتداء بالسنة النبوية ....
ـ الوجيز في طبقات الفقهاء الشافعية ....
ـ الوديك في فضل الديك ....
ـ الورقات في الوفيـات ....
ـ الورقات المقدمة ....
ـ الوسائل الى معرفة الأوائل ....
ـ الوسيلة (وهو مختصر المرقاة العليـة في شرح الأسماء النبوية) ....
ـ الوشاح في فوائد النكاح ....
ـ وصول الأماني بأصول التهاني ....
ـ وظائف اليوم والليلة ....
ـ الوفية في مختصر الألفية ....
ـ وقع الأسل في ضرب المثل ....
ـ وهج الجمر في تحريم الخمر ....

ـ ي ـ

ـ اليد البسطى في تعيين الصلاة الوسطى ....
ـ الينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع ..
ـ اليواقيت الثمينة في صفات السمينة ....
ـ اليواقيت في الحروف الأدن في توجيـه قولهـم لاها الله اذن ....

★ ★ ★